السكندري

حُقوقُ الطّبعِ محفُوظةٌ

اسم الكتـــاب: السكندري
تـأليـــــــف: مايكل يوسف
القـطــــــع: 14*20
تدقيق وتصحيح: مريم توركان
سنـة النشـر: 2025
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 29232 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 5 - 668 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-668-5
9 789778 446685

السكندري

رواية تاريخيّة

مايكل يوسف

تقديم

تمثّل رواية «السكندري» للكاتب مايكل يوسف عملًا سرديًا فريدًا يمزج بين التاريخ والهوية، بين أسطورة الماضي وواقع الإنسان الحديث.

ينطلق الكاتب من رموزٍ تأسيسية للحضارة — الإسكندر وكليوباترا — ليعيد قراءتها في ضوء الشخصية السكندرية المعاصرة، تلك التي تعيش بين الموج والذاكرة، وتحمل في داخلها تناقض المدينة التي وُلدت من البحر لتبقى بوابة الشرق إلى الغرب.

لا تقدّم الرواية التاريخ كوقائع، بل كنبضٍ إنساني يتكرّر بأشكال مختلفة؛ فالإسكندر الذي حمل حلم التوسّع، وكليوباترا التي دافعت عن المجد، هما تأمُّل في جوهر الإنسان الذي وُلِد بين حضارتين.

وبأسلوبٍ لغويّ رصين، ورؤية فكرية متّقدة، يفتح مايكل يوسف في «السكندري» مساحةً للتأمّل في معنى الانتماء، وفي مصير الإنسان حين يفقد توازنه بين القوة والذاكرة.

إنها ليست حكاية عن الماضي، بل عنّا نحن — عن الإنسان الذي يواجه مراياه في مدينةٍ تعلّمه كيف يكون خالدًا رغم كلّ شيء.

فالعمل متميّز رغم كِبر حجمه، في زمنٍ تتصارع فيه عقارب الساعة من شدّة السرعة الكامنة التي لا نلاحظها إلا بعد مرور الأيام التي أصبحت كالبَرق خاطفة.

إلّا أن «السكندري» خطفني إلى عالمٍ آخر في طموحه وتناقضاته؛ فهو صدى لأرواحٍ مرّت وتركت دَهشةَ الخلود.

ليست رواية «السكندري» مجرد حكاية عن مدينة، بل عن كينونةٍ تولد من البحر، وتنهض من بين أمواجه كلّما ظنّ التاريخ أنها غفَت.

إنها سيرة الإنسان السكندري الذي ورث روح الإسكندر، وتشكلت في قلبه ذاكرة الحضارات التي مرّت من هنا، من عظمة المقدوني وكبرياء كليوباترا، إلى دهشة المصري الذي رأى الغزاة والعشّاق والأنبياء يمرّون أمام بيته، ويترك كلٌّ منهم شيئًا من روحه على الرمل.

يكتب مايكل يوسف في «السكندري» رواية لا تُؤرّخ للأحداث بقدر ما تُعيد بَعْثَها، فتغدو الصفحات جسدًا نابضًا بالدهشة، يتعاقب فيه الزمان كما تتعاقب الأمواج على شاطئ المدينة التي لا تهدأ.

يمتزج فيها صوت الإسكندر القادم من المعابد القديمة بصوت السكندري المعاصر، فيتحوّل البطل من فردٍ في التاريخ إلى رمزٍ للخلود الإنساني، كأن المدينة نفسها هي التي تروي.

تفتح الرواية أبواب الزمن على مصراعيها، من بريق التاج المقدوني إلى نار الغيرة والحب في معبد آمون، ومن لقاء الملوك إلى همس العاشقين، حتى

تصل إلى حاضرٍ يكتشف فيه الإنسان أن المدينة لم تكن يومًا مكانًا، بل حالة وجودٍ تُختبَر بالروح لا بالجغرافيا.

في لغته، يزاوج الكاتب بين فخامة السرد التاريخي وشفافية البوح الإنساني، فيغدو النصّ جسرًا بين العقل والأسطورة، بين الحقيقة والحلم، بين النور والظلال.

"السكندري" عملٌ يتّسع للعشق والمجد، للدمع واليقين، ولذلك تبقى الإسكندرية فيه كما هي دومًا:

امرأةٌ من ضوء البحر، يطلبها الجميع ولا يمتلكها أحد.

د. غادة زهران

البشر يرحلون... أما الأماكن والأفكار فهى وحدها التي تعرف معنى الخلود.

مايكل يوسف

(ما قبل البداية)

سطعَ البرق فانسلّت أشّعته من زجاج الشرفة؛ ليضيء كامل الغرفة لثوانٍ قليلة، في تلك الليلة الدهماء، كانت العاصفة تضرب مدينة الإسكندرية العريقة بقوةٍ في ذلك الوقت من السنة، وبرغم الظلام الدامس والأمطار الغزيرة، إلّا أنَّ شدة البرق كانت كافية لتكشف كامل محتوياتها وقاطنها الوحيد، الذي يجلس في الظلام الحالك، للوهلة الأولى تظنّهُ تمثالًا من الحجر وضع في ذلك المكان ضمن مقتنيات الغرفة الكثيرة، لكنَّ حركة تنفسه المنتظمة والأدخنة التي تنبعث من لفافة التبغ التي يمسكها بيده -والتي لم تمسّ شفتاه إلّا مرات قليلة، وكأنَّ وجود لفافة التبغ بين أصابعهِ النحيلة، أصبح عادة أكثر من كونها إدمان التبغ نفسه!

من الصعب أنْ تتبين ملامحه، لا بسبب العتمة المُسيطرة على المكان، بل بسبب ملامحه نفسها؛ إذ كانتْ ملامح جامدة بدون أيّ تعبير، شعر كستنائي فاتح مع أنف معقوف قليلًا، وعيون زرقاء تميل إلى الرمادي أشبة بلون السماء المُلّبدة بالغيوم في يومٍ عاصف، للوهلة الأولى تكاد تقسم أنَّهُ أحد تماثيل الآلهة الإغريقيّة، وقد دبّت بهِ الحياة بسبب حركة أنفاسه!

- تقدم.. لقد كنت في انتظارك.

قالها بهدوء وبصوتٍ هادئ عميق، وكأنَّهُ يخرج من كهف عميق بجبلٍ ضخم، وتابع بنفس الهدوء.

- لقد تأخرت كثيراً، كنت أظنّك أذكى وأسرع.

ظهر من خلفهِ شبح لرجلٍ ضخم الجثّة يلتحف بالسواد، بالكاد تستطيع تميز حدوده الجسديّة من الظلام المحيط به. تقدم ضخم الجثّة بهدوء من الجالس، ولمع بيدهِ ذلك المسدس الضخم الذي يحمله، ودون أنْ يلتفت لهُ الجالس، تابع حديثهُ قائلًا.

- ألقي هذهِ اللعبة التي تحملها بين يديك جانبًا، وهلمّ واجلس قبالي، فالحديث بيننا قد يطول.

قالها وهو يُشير بيدهِ إلى مقعد وثير مُقابل له، تقدم ضخم الجثّة دونَ أنْ ينبس ببنت شفة، وجلس حيثُ أشار لهُ، وفتح أزرة سُترته السوداء؛ ليجلس بأريحيّة أكثر ولأوّل مرّة تحدّث.

- تمامًا كما أخبروني عنك، ذكي، لمّاح، تمتلك حدسًا، وكذا فراسة غريبة، وكأنَّكَ قائد لمجموعة من الشياطين تسعى لخدمتك، وتنفيذ أوامرك!

انطلقت ضحكة عالية من الجالس شقت سكون الليل، ضحكة تدبّ الرُعب في قلب أشدّ الرجال قساوة، وبمُجرّد أنْ انتهى منها، مالَ للأمام وهو ينظر في عين ضخم الجثّة، نظرة قاسية تبث الرعب في القلوب، وقال بسخرية واضحة.

- وهل تصدق كُلّ ما يُقال؟

صمت ضخم الجثّة قليلًا ولكنَّهُ ازدرد لعابهُ في النهاية، وقال.

- أينَ هي؟

اتسعت ابتسامة السخرية أكثر على وجه الجالس، وتراجع ليُريحَ ظهره، وهو يقول بهدوء.

- عجبًا!

- ألست أنتَ مَن يحمل السلاح؟!

- ومع ذلك أكاد أشتم رائحة الخوف تنبعث منك.

قالها وأطلق ضحكة ساخرة أُخرى، كاد ضخم الجثّة أنْ يفقد ما تبقى من رباطة جأشه بسببها، وظهر التوتر جليًا على ملامحه.

- اهدأ، أهدأ.

قالها الجالس الوقور لضخم الجثّة، وهو يبتسم نفس الابتسامة الساخرة، وتابع.

- لماذا تريدها؟

- وما أدراك أنَّها بحوزتي؟

نظر لهُ الضخم لفترة، واستجمع ما تبقى من شجاعته أخيرًا، واقترب منهُ قائلًا.

- أعلم أنّها معك، وأعلم أيضًا أنّها سبب كُلّ ما تملك من قُدرات.

كانَ الجالس الوقور ينظر لهُ بملامح ثابتة جامدة لا تتغيّر، وبهدوء غريب قال.

- لو هذا صحيح، هل تعتقد أنَّكَ ستحصل عليها؟

- هل تتخيل أنَّني قد أُعطيها لكَ عن طيب خاطر؟!

أجابهُ ضخم الجثّة.

- بالطبع لا.

- لكنْ قد نصل إلى اِتفاق يُرضي جميع الأطراف.

ابتسمَ الوقور بركن شفتيه ابتسامة أشدّ سخرية من سابقتها، وهو يقول.

- أخبرني، ماذا تعرف عنها؟

أجابهُ ضخم الجثّة دونَ تردد أو انتظار.

- لقد قتلت الموضوع بحثًا، وعثرت على الكثير من الدلائل التاريخيّة على وجود تلكَ القلادة، وعلى الكثير من الأحداث المُرتبطة بها.

أشاحَ الوقور بيده، وكأنَّهُ سئمَ هذا الحديث، واعتدل مرّة أُخرى في مقعده، واقترب للأمام وشبك أصابع يديه أمامه، وقال بصوتٍ رخيمٍ وهادئ.

- ما هذا إلَّا أساطير لا تمت للواقع بصلة، لكنْ إنْ أردتَ أنْ تعرف القصة بالكامل فسأرويها لك.

استند بظهرهِ مرّة أُخرى على مقعده، ووضع ساقه اليُمنى على اليُسرى، ورفع يده في أسلوب مسرحي، وقال.

- ولكنْ تذكر جيّدًا، ما ستسمعهُ الآن، لم ولن تجدهُ أبدًا في أيّ كتاب أو مرجع أيًّا كان..

- فأنصِت جيّدًا.

أنهى عبارتهُ وشرع يُلقي على مسامعهِ الكثير والكثير.

الفصل الأوّل

تحت سماء صافية مُرصّعة بالنجوم اللامعة، وقف قصر الملك (فيليب الثاني) كرمزٍ للعظمة والهيبة في تلكَ الحقبة، ذلكَ القصر المشيد من الحجر الجيري الأبيض، الذي يعكس ضوء المشاعل المتوهجة المنتشرة في أرجاء المكان.

كانت أبواب القصر الضخمة مصنوعة من الخشب المزخرف بالنقوش الدقيقة، التي تحكي قصص الانتصارات العسكرية للملك العظيم، فيما ارتفعت أعمدة حجرية مُزيّنة برموز الآلهة الإغريقيّة لتدعم سقف القصر.

داخل القصر، بدت قاعة الاحتفالات الكُبرى وكأنّها معبد مُقدس، تتوسطها نافورة بسيطة يتدفق منها الخمر بدلًا من الماء في تلكَ الليلة!

تغطت الجدران بلوحات جداريّة حيّة تُصور الأساطير الإغريقيّة والإنجازات العسكريّة للملك، بينما تزينت الأرضيات ببلاطاتٍ من الطين المصقول مرسوم عليها نقوش هندسيّة بسيطة.

الموسيقيون، بآلاتهم الخشبية والوترية، عزفوا ألحانًا تقليديّة مقدونيّة أضفت على المكان جوًّا مهيبًا، فيما ترددت أصداء الأغاني الاحتفالية عبر أروقة القصر، الموائد المصنوعة من الخشب المصقول، امتلأت بأطباقٍ من الفخار مليئة بأشهى أنواع اللحوم والفواكه الطازجة، تُقدم بجانب النبيذ المُعتّق في جرار خزفية.

في تلك الليلة الأسطوريّة، ظهرت العروس الفاتنة (كليوباترا)، مرتدية ثوبًا بسيطًا من الكتان الأبيض، يُزيّنهُ حزام ذهبي يعكس أناقتها الملكيّة.

وضعت على رأسها تاجًا مصنوعًا من الذهب الخالص، مُرصعًا بأحجار العقيق الأخضر، ورافقها الملك (فيليب الثاني) بعباءتهِ الأرجوانية المطرزة، يقف بثبات يعكس قوته وهيبته.

جلسَ الملك وبجوارهِ عروسه، تتطلع إليهم الأعين، ومن بين المدعوين وقف (أتالوس)، قائد جيوش الملك (فيليب) وأبو العروس، وكان قد تلاعب الخمر برأسهِ ورفع عقيرته بالدعاء.

- زيوس العظيم، بحقِّ إله الأوليمب، ترأف على عبدك (فيليب) وامنحهُ الذريّة الملكيّة، التي تستحق أنْ ترث هذا الملك العظيم.

وما أنْ أنهى عبارته حتّى اصطدمَ بوجههِ كأسًا؛ ممّا جعلهُ يسقط من الصدمة لا من الألم، ووقف شابّ جميل المُحيّا، مفتول العضلات، رشيق القوام، واسع الصدر، يرتدي واقي للصدرمصنوع من البرونز، وحرملة قرمزية أضفت عليهِ طابع ملكي فريد، كان هو مَن ألقى الكأس في وجه (أتالوس)، واقترب منهُ قائلًا في غضب.

- أيُّها الشرير، وما أنا؟ هل أنا بلقيط؟

هُنا أدركَ (فيليب) أنَّ عليهِ التدخُّل؛ بعدما أهانَ ابنه (الإسكندر) قائد جيوشه (أتالوس) أمام الجميع، كان الغضب مع الخمر قد أعميا (فيليب) تمامًا، حتّى أنَّهُ قد مدَّ يدهُ ليستلّ سيفه من غمده؛ ليضرب ابنه ويقتله!

لكنَّ القدرَ كانَ لهُ رأيٌ آخر، إذ زلّت قدمه وسقط أرضًا بفعل الخمر والغضب، ممّا جعلَ (الإسكندر) يقول ساخرًا مُستهزئًا بهِ.

- إليكم الرجل الذي يُحضّر لغزو آسيا، سقط وهو ينتقل من مقعدٍ لآخر.

تدخل العديد من الحاضرين لفضّ الشجار، الذي كاد أنْ يتطور، ونجحوا بالفعل، وخرج (الإسكندر) من القاعة غاضبًا ساخطًا على أبيه.

بعدَ تلكَ الحادثة أخذَ أُمّه (أوليمبياس)، وذهب إلى خالهِ (الإسكندر الأيبروسي)، الذي استقبلهُ بحفاوة بالغة، ومن عندهِ إلى مدينة (أليريا) واستقر بها قرابة الستة أشهر.

كان لتلكَ الحادثة الأثر البالغ في العلاقة بينَ (فيليب) وابنه فيما بعد، لكنَّ الأخير كانَ قد تشبعَ من حكم (أرسطو)، وأدركَ جيّدًا أنَّهُ لن ينتصر أبدًا إنْ ناصب أبيه العداء، خاصّةً أنَّهُ ليسَ مقدونيًّا خالصًا؛ فأُمّهُ ليستْ مقدونية.

مرّت الأيّام وأرسل (فيليب) إلى ابنهِ يحثّهُ على العودة، ويُخبرهُ بأنَّهُ قد عفا عنه، وقد كان، ولكنْ لم يمرّ وقتٌ طويل حتّى تناقلت الشائعات عن زواج أخيه الغير شقيق من ابنة أحد الحُكام الفُرس، وهو ما أثار غضب أُمّه (أوليمبياس)، التي أخبرتهُ أنَّ هذا الزواج ما هو إلّا إعداد من أبيهِ لأخيهِ (فيليب أرهيدايوس)، كي يتولى الحكم من بعده، فما كانَ منهُ إلّا أنْ أرسلَ رسالة إلى ملك الفُرس، يُخبرهُ فيها أنَّهُ ليسَ من اللائق أنْ يُزوّج ابنته من وريث غير شرعي، الأفضل أنْ يُزوّجها لهُ هو (الإسكندر).

كانتْ تلكَ هي القشة التي قصمت ظهر البعير في علاقة (فيليب) بابنهِ الأكبر، وهاج وغضب (فيليب) حتّى أنَّهُ ألقى القبض على أصدقاء (الإسكندر)، وزجّ بهم في السجن، جرّاء ما حدثَ من ابنه.

ولكنْ سرعان ما تطورت الأحداث، وقُتل (فيليب) على يد عاشق مكلوم يُدعى (يوسانيوس) في مدينة (إيجة)، وبايعَ النُبلاء (الإسكندر) على تولي سؤدة الحُكم من بعد أبيه (فيليب المقدوني).

وعادت (أوليمبياس) للظهور مجددًا، تلكَ السيدة التي كانَ مخدعها لا يخلو من الأفاعي والثعابين؛ إذ كانتْ لا تظهر في أيّ مكان إلّا ويُحيط بعنقها أفعى سامّة، لكنَّها كانتْ معها مثل الحمل الوديع، وألقت بسمومها في آذان ابنها (الإسكندر)، وحرضتهُ على التخلُص من جميع أعدائهِ من حوله.

وبالفعل جرت سمومها مجرى الدم بعروقه، وأمر بإعدام ابن عمّه وبعض الحُكام المقدونيين، ليسَ هذا فحسب؛ بل أحرقت هي بنفسها زوجة أبيه الجديدة (كليوبترا) وابنتها أحياء، وأعدم هو أباها (أتاليوس).

لم ينج أحد من تلكَ المذابح إلّا أخاهُ الأصغر (فيليب)، والذي كانَ قد صفح عنهُ بعد أنْ أصاب اللوث عقله.

وبعد انتشار أخبار عن مقتل (فيليب) المقدوني، اندلعت الثورات في كُلّ مكان بالإمبراطورية المقدونية، وشرعت العديد من المناطق في الاستقلال، مستغلّة صغر سن الوريث (الإسكندر).

ولكنْ كُلّ هذا لم يفت في عضد الملك الجديد، وأثبت للجميع أنَّهُ برغم صغر سنه إلّا أنَّهُ مُقاتل صنديد، لا يُشق لهُ غبار في أرض المعركة، وشرع يحشد الجيوش ويعد العتاد، وتحرك تجاه كُلّ المناطق التي اشتعلت بها الثورات وحاولت الاستقلال، واستعاد السيطرة عليها مرّة أُخرى، وكان يُنّكل بأهلها شرّ تنكيل؛ كي تكونَ عِبرة لباقي المُدن.

وأكمل مسيرته ولم يتوقف، ونجحَ في حشد قوات أكثر وأكثر، ومع كُلّ فتح جديد تُؤلَف حولهُ الأساطير، وينضم لهُ مقاتلين من كُلّ المُدن التي نجح في ضمّها إلى مُلكه، وانتهى من استعادة السيطرة تمامًا.

لم يكن هذا ما يحلم به، فقد كانَ حلمه هو ما وراء البحر الأعظم، حلمه أنْ يكونَ ملك الأرض كلّها، وشرع في تحقيق حلمه وتحرّكَ شرقًا.

ونجح في إسقاط كُلّ المدن في طريقه، كان يعلم أنَّهُ لبناء إمبراطورية عظيمة يجب أنْ يبدأ بأُمّ الدُّنيا (مصر).

وبالفعل اتخذ الطريق إليها، لم يلقى أيّة مقاومة تُذكر في طريقهِ بالكامل، لكنَّ مدينة واحدة رفضت أنْ ترضخ لهُ (غزّة)، تلكَ المدينة الصغيرة على الحدود المصريّة، رفض ملكها الإستسلام، حاصرها لأيّام وشهور، أُصيب في كتفهِ أثناء محاولتهِ إسقاطها، لكنَّ تلكَ المدينة الصغيرة الباسلة أثبتت شجاعة كبيرة، ونجحت في أنْ تكسر من هيبة وبأس جنوده، ولكنَّها قد سقطت في النهاية.

ونجحَ في إسقاطها بعد حصارٍ دام لأكثر من سبعة أشهُر، بعدما كاد اليأس أنْ يتملك منه، وقتل كُلّ جنودها شرّ قتلة، وربط قائدها المغوار في إحدى العربات الحربية، وأعطى الأوامر لقائدها أنْ يدور حول المدينة وهي تجرّ جسده، الذي أثخن بالجراح التي قتلته.

وأصبح الطريق الى مصر مُمهدًا، وتحرك (الإسكندر) وهو يحمل آمال عظيمة،

لم يكن يعلم أنَّهُ يسطر التاريخ من تلكَ النقطة.. تاريخ لن يُمحى أبدًا، تاريخ مكتوب بالذهب والدّماء.

الفصل الثاني

تجرعَ ما في كأسهِ مرّة واحدة، وألقى الكأس إلى إحدى أركان الخيمة بعد أنْ انتهى منهُ، كانَ يجلس على كرسيٍّ مُزخرف بنقوشٍ يونانيّة، تُمثّل أربعة أسود تحمله، يجلس مُسترخيًا، واضعًا ساق أرضًا والأُخرى على مسند مُعدّ لها، لولا تنّفسه لظننتهُ تمثالًا من الرخام صُنعَ خصيصًا لتمجيدهِ وتخليد أثره.

فتحَ خصاص الخيمة التي يجلس بها وتقدم أحد قادة جيشه، وصديقه المُقرب (هيفايستيون)، صديق عُمره ووقفَ أمامهُ، وضرب الدرع الذي يغطي صدره بقبضة يده، وقالَ بصوتٍ جهوري حازم.

- المجد للمقدوني.

أشارَ لهُ (الإسكندر) أنْ يرخي قبضته ويستريح، وقال لهُ وهو يبتسم.

- صديقي (هيفايستيون)، أيّة رياح طيبة ألقت بكَ إلى خيمتي، ألستَ على رأس فيلقٍ يقوم الآن بتأمين طريق القوات إلى العاصمة المصرية (ممفيس)؟

اقترب منهُ الأخير وهو يبتسم، ويضع يدهُ على كتف صديقه (الإسكندر)، وتنّهدَ قائلًا.

- لم نجد أيّة مقاومة تُذكر أثناء عبورنا من أرض سيناء إلى خارجها، بالعكس كان الترحيب من المصريين على أشده، ويهرب من أمام سنابك خيولنا جنود الفرس، حتّى خشيت أنْ أدخل العاصمة (ممفيس) قبلَ سيّدي وملكي (الإسكندر المقدوني)، فعدت أدراجي بعدما قمت بتأمين كامل الطريق بجنودنا؛ للانضمام إلى جيش مولاي مرّةً أُخرى للتحرك إلى العاصمة.

وقفَ (الإسكندر) من على مقعده، وتقدمَ للأمام صامتًا مُفكرًا وأخيرًا التفتَ إلى صديق عُمره قائلًا.

- هل من المُمكن أنْ يكونَ هُناكَ خُدعة أعدّها قادة الفُرس لنا؟

مطَّ (هيفايستيون) شفتيه، وقالَ وهو يهزّ رأسه نافيًا.

- لا أعتقد يا مولاي، لقد ضاقَ المصريين ذراعًا من الفُرس، وهُم يرونَ في (الإسكندر) المُخلّص لهم من أولئكَ الكفرة حسب معتقدهم، والذينَ قد أذاقوا المصريين شتّى ألوان العذاب، والفقر والجوع.

ظلّ (الإسكندر) صامتًا لفترة، يُفكر فيما قالهُ صديقه وقائد قوّاته، كانَ يحلم دائمًا بتلكَ اللحظة، لحظة وضع تاج مصر (تاج الوجهين)؛ إذ كانَ يُدرك جيّدًا أنَّ مصر هي مفتاح أحلامه كلّها، مصر هي مفتاح العالم، وعندَ هذهِ النقطة التفتَ إلى (هيفايستيون)، وابتسمَ قائلًا.

- هيّا بنا.

- لنُنظف أرض مصر من قذارة الفُرس.

قالها وتحرّكَ خارجًا ومن خلفهِ قائد جيوشه.

****

تحت شَّمس الصحراء الساطعة والحارقة، ظهرت في الأُفق جحافل جيش (الإسكندر الأكبر)، تسير في نظامٍ مَهيب كأنّها موجة عاتية لا يُمكن إيقافها!

كانتْ الرماح تتلألأ كأنّها أشّعة شّمس أُخرى تخرج من الأرض، والخوذات البرونزيّة تعكس بريقها الذهبي في كُلّ اتجاه، سارَ (الإسكندر) في مُقدّمة جيشه، مُمتطيًا جواده الأبيض الشهير (بوسيفالوس)، يعلو رأسه خوذة مُزيّنة بريشٍ أحمر قانٍ، وعباءته الأرجوانيّة تُرفرف خلفه، رمزًا للملكيّة والقوّة، على الجانب الآخر، كانَ المصريون قد تجمعوا على أطراف المُدن والقُرى، يُراقبونَ هذا المشهد المبهر، ارتفعت همسات الحشود تدريجيًا إلى هتافات مُرحبة.

- اليكساندروس.

- اليكساندروس.

كانَ المصريون يهتفون باسمهِ، بالطريقة التي اتقنوها نقلًا عن اليونانيّة القديمة، ممّا أعطى هيبة لوقع الاسم، فملأت الأجواء بالحماسة والرهبة، كانوا يرونَ في (الإسكندر) مُحررًا لهم من ظُلمِ الفُرس، الذين طالت سيطرتهم واستبدادهم على أرضهم.

في تلكَ اللحظات، كانت قوات الفرس في حامية (ممفيس) تتراجع بخوفٍ وارتباك، بدت وجوه الجنود شاحبة، وعويل قادتهم يُسمع في كُلّ اتجاه، يأمرون بالإنسحاب دونَ أدنى مقاومة، جيش (الإسكندر) قد أذهلهم بسرعتهِ وتنظيمه، الذي لم يترك لهم مجالًا للصمود.

مع اقتراب جيش المقدونيين، علت سُحب الغبار خلف الفرس الفارّين، وكأنَّ الأرض نفسها تلفظهم بعيدًا عن أرض مصر!

عندما دخل (الإسكندر) العاصمة (ممفيس)، استقبلهُ الكهنة المصريون عند بوابة المعبد العظيم، مُرتدينَ زيّهم الأبيض التقليدي، حاملينَ رموز الآلهة المصريّة، وقدموا

لهُ التاج المزدوج، رمز مصر العُليا والسُفلى. تقدم كبير الكهنة بخطوات ثابتة نحو (الإسكندر)، رافعًا التاج إلى أعلى، وجثى على رُكبتيهِ راكعًا، قائلًا بلُغةٍ تنُم عن الاحترام.

- مرحبًا بكَ يا ابن (آمون) في أرض مصر، لقد اختارتكَ الآلهة لتكونَ حامي هذهِ الأرض ومُحررها.

ابتسمَ (الإسكندر) بثقة، مُدركًا أهمية هذا الاعتراف من الكهنة والشعب، رفع يدهُ وألقى نظرة على الحشود المُلتفة حوله، قائلًا بصوتٍ جهوري.

- أيُّها المصريون، جئت إليكم لا غازيًا، بل كَحليفٍ ومُحرّر، لن يكونَ على أرضكم بعد اليوم ظُلم أو استبداد.

تعالت الهتافات مرّة أُخرى، وركع الكثير من المصريين تعبيرًا عن امتنانهم وفرحتهم. دخلَ (الإسكندر) المعبد برفقة كهنة (آمون)؛ حيثُ أدى الطقوس التقليديّة، ليُعلن نفسه فرعون مصر وحاميها الشرعي.

في تلكَ الليلة، أُضيئت مدينة (ممفيس) بالمشاعل والاحتفالات، ورقص المصريون مع جنود الإسكندر في مزيجٍ فريدٍ من الثقافات، كانَ ذلكَ اليوم إيذانًا ببدء حقبة جديدة لمصر، حقبة يرى فيها المصريون أملًا في زعيمٍ شابّ يجمع بينَ القوة والحكمة، وبينَ احترام تاريخهم ورؤيته لمستقبل مشرق.

ووسط كُلّ تلكَ الاحتفالات جلس (الإسكندر) يُتابع وهو مُبتسم احتفالات جنوده مع المصريين، وبجوارهِ صديقه وقائد جُنده، الذي تنّهدَ قائلًا.

- لم أعتقد أبدًا أنْ نصل إلى العاصمة المصريّة بهذهِ السهولة، حتّى أنَّ أحدًا من جنودنا لم يُطلق سهمًا واحدًا، فهل تعتقد أنَّ باقي الأراضي المصريّة سوفَ تكون بذات السهولة؟

هزَّ (الإسكندر) رأسهُ وأجابَ نافيًا.

- لا أعتقد أنَّنا قد نلقى بعض المقاومة في بعض المدن، وبخاصّة في الجنوب؛ إذ أنَّ اكثر التمركز لقوات الفرس هناك، وليسَ لهم أيّ طريق آخر للهرب من أمام جيوشنا، فجنوبًا الصحراء الفاصلة بينَ الحدود المصريّة وحدود دولة (كوش)، وهي مسافة شاسعة، لن يقوى جنود الفرس الفارّين على قطعها بدون أيّة امدادات أو مُؤن.

صمت بعدها (الإسكندر) مُفكرًا، ممّا جعلَ (هيفايستيون) يسألهُ.

- وما رأي سيّدي في هذهِ المشكلة؟

التفتَ إليهِ (الإسكندر)، وقالَ وهو يربت على كتفهِ.

- ممر آمن إلى الشمال،

وتحرّكَ للأمام مُبتعدًا وهو يُتابع.

- سوف نترك ممر آمن للجنود الفارّين؛ كي نسمح لهم بالهرب شمالًا، وحتّى الحدود الشرقية لمصر، ثُمَّ ننشر الخبر في كُلّ الربوع، وبذلكَ نضمن عدم مُلاقاة أيّة مُقاومة تُذكر.

تهللت أسارير (هيفايستيون) للفكرة، واقتربَ من صديقهِ وهو يضحك قائلًا.

- كما تعودنا منكَ دائمًا.. دهاء الذئب.

ضحكَ الاثنان، وأخيرًا التفتَ إليهِ (الإسكندر) مُعطيًا تعليماتهِ بالخطّة، التي سيشرع في تنفيذها لإحكام السيطرة بالكامل على أرض مصر، وتطهيرها من جنود الفرس، وبالفعلِ لم تمضِ فترة شهرين بعدَ هذهِ المُحادثة، إلَّا وكانتْ أرض مصر بالكامل، قد

لفظت آخر جندي فارسي من عليها، وعاد أغلبهم إلى بلاد فارس، يجرّون أذيال الخيبة والهزيمة، ونجحَ (الإسكندر) خلال تلكَ الفترة في توطيد علاقتهِ مع المصريين أكثرَ وأكثر.

حتّى كانَ الحدث الأهمّ والأقوى في تاريخ علاقته مع المصريين، الحدث الذي تسبب في تغيير مجرى التاريخ بالكامل بالنسبةِ للعالم، وهو زيارة معبد (آمون) الكبير بواحة سيوة.

ذلكَ الحدث الذي تسبب في الكثير والكثير من التغيُّرات المُذهلة.

الفصل الثالث

شاخص البصر، يَقفُ كَمثالٍ لتمثالٍ إغريقيٍّ يُمثّلهُ هو شخصيًّا بلا حراك!، ينظر إلى السماءِ بنجومها المتلألئة، لم يتحرّك أو حتّى يُحرّك جفن أو يهتز ساكنًا، وكأنَّهُ يسبح في ذلكَ الفضاء السرمدي، حتّى أنَّهُ لم يشعر باقتراب صديقه من خلفه، إلّا حينما ربتَ الأخير على كتفهِ بهدوء، ورغم حرصه ويقظته وتأهبه المشهور بهم، إلّا أنَّهُ لم يجفل حتّى، بل استدارَ بهدوءٍ وابتسمَ بودٍّ، وقال.

- عزيزي (هيفايستيون) لم أشعر بقدومك.

وعاد ينظر إلى السماء الصافية بانبهار، وتابع.

- هذهِ البلاد لها سِحرٌ غريب، لم أراهُ أو أشعر بهِ من قبل في أيّ مكانٍ آخر وطأتهُ قدماي.

انظر، انظر يا صديقي، هذهِ المرّة الخامسة تقريبًا التي أرى فيها شهاب يخترق السماء، لم أرى في حياتي ولا في سماء مقدونيا، أو حتّى روما أو أوروبا بأسرها طوال حياتي، ولو لمرّة واحدة شهاب يخترق السماء، ولكنْ هُنا والآن رأيتُ كُلّ هذا العدد.

قالها بانبهارٍ وهو يُشير بيدهِ إلى السماء، ويده الأُخرى على كتف صديق عمره، شعر (هيفايستيون) بالسعادة التي تغمر صديقه، لم يراهُ أبدًا في هذهِ الحالة، ولا هذهِ النشوة والهدوء والسلام النفسي، فهو يعلم جيّدًا طبيعته، وأنَّهُ شخصٌ سريع الغضب، ومُتحفز دائمًا وصدامي، وبرغم كُلّ هذا، تبدلت شخصيته تمامًا مُنذُ أنْ أتى إلى أرض مصر ،ولكنْ كُلّ هذهِ الصفات قد تبدلت هُنا في أرض مصر، وكأنَّهُ تعرّضَ لسحرٍ عظيم!، بدّلَ حاله، وأصبحَ شخص آخر، سحر غامض في هوائها وأرضها.

كادَ (هيفايستيون) أنْ يسرح بخيالهِ هو أيضًا في سحر السماء بنجومها، وينسى السبب الذي أتى بهِ إلى هُنا، فاقترب أكثر من صديق عُمرهِ حتّى وقف خلفه مباشرة، وهمسَ قائلًا.

- يجب أنْ نتحدّث عن الفترة المُقبلة، هُناكَ أمور كثيرة يجب أنْ تتخذ فيها قرارات.

وضع (الإسكندر) سبابتهُ على فمه، وهمس لهُ أنْ يتوقف عن الحديث؛ إذ كانَ لا يُريد أنْ يخرج من هذا الإحساس والشعور بالاسترخاء.

- اترك هذهِ الأحاديث جانبًا الآن، واتركني أستمتع بالطبيعة وسحرها.

لكنَّ (هيفايستيون) كانَ يُدرك أنَّ كُلّ دقيقة ولها ثمنها، لذا تقدم ووقف أمامهُ ووضع يده على كتفيه، وكأنَّهُ يُجبرهُ على العودة لأرض الواقع؛ ليفيقَ من السحر الذي تعرّض له ،وبالفعلِ نجحَ أنْ يجعل صديقه يعود للواقع مرّة أُخرى، فتابع (هيفايستيون) حديثهُ سريعًا، خشية أنْ يغوص (الإسكندر) في أحلامهِ مرّةً أُخرى.

- الآن أنت ملكت مفتاح الشرق، فما هي الخطوة القادمة؟

- جحافل الفرس التي خرجت من مصر تمركزت كلّها شرقًا، ومن الخطر أنْ نتركها، بالتأكيد سوف يعمل (داريوس) الفارسي على استعادة السيطرة، وتنظيم وتوحيد جيشه مرّة أُخرى.

- قد نكون نجحنا في فرض السيطرة على أرض مصر بالحنكة والذكاء ودونَ قتال، وعن طريق فتح ممر آمن للجنود للفرار إلى الشمال الشرقي، ولكنْ مع كُلّ هذهِ الأعداد التي فرّت وتجمعهم مرّة أُخرى، بالتأكيد سوف يقوم ملك الفرس مرّة أُخرى بتوحيدهم وتنظيمهم.

كانَ (الإسكندر) صامتًا يستمع لصديقهِ وقائد جيشه، يدرس ويقوم بتحليل كُلّ كلمة قالها، وبعد فترة صمت طويلة، أجابهُ.

- معك كُلّ الحقّ يا صديقي، وتابعَ وهو يتقدم قليلًا للأمام.

- ولكنْ يجب علينا أنْ نقومَ بتأمين مصر أوّلًا، وتأمين عرشنا فيها قبلَ أنْ نتحرك إلى الشرق مرّة أُخرى.

تقدم (هيفايستيون) منهُ مرّة أُخرى، وقال.

- ماذا ترى؟

ابتسمَ (الإسكندر) وأجاب.

- أوّل الخطوات كسب ثقة المصريين، وخاصّةً رجال الدين، فهُم المُحرّك الرئيسي لعامّة الشعب، ويُكن لهم المصريين كُلّ الاحترام والتقدير، أعتقد أكثر من الحاكم نفسه، والدليل أنَّ الحاكم يتقلّد الحكم بمباركة الكهنة، والإله (آمون).

انعقدَ حاجبا (هيفايستيون)، وتساءل.

- وكيف هذا؟

اتسعت ابتسامة (الإسكندر)، وتابعَ بكُلِّ هدوء.

- بإتباع نفس الطريقة.

- سوف يذهب ملك مصر الجديد إلى الإله (آمون) يطلب منهُ المُباركة.

كانَ (هيفايستيون) يُنصت والدهشة تكسو ملامحه، لكنَّ (الإسكندر) لم يُمهلهُ أيّ وقت للدهشة، فتابع بسرعة وبلهجةٍ حازمة.

- لتستعدّ القوات، فسوفَ نتحرّك في الصباح الباكر إلى (واحة آمون)؛ حيثُ المعبد الكبير للإله.

وتابعَ وهو يفرد ذراعيهِ، ويرفع رأسه إلى السماء شاخص البصر.

- أنا قادم إليكَ يا إلهي (آمون) العظيم،
- امنحني السُلطة والقوة لأحمي أرضكَ وشعبك.

وخرّ ساجدًا على وجههِ، وقالَ بخشوع.

- أنا ابنكَ (الإسكندر)، ومرّة أُخرى توهج شهاب في السماء.

****

كانتْ الصحراء تمتد أمام أعينهم بلا نهاية، بحر من الرمال الذهبيّة يلمع تحت شّمسٍ قاسية لا تعرف الرحمة، سارَ موكب (الإسكندر) ببطء، يقطع الفيافي الجرداء التي لا يُسمع فيها سوى صوت الرياح، وهي تصرخ في آذان الرجال والخيول.

بينَ حينٍ وآخر، كانتْ دوامات من الغبار ترتفع إلى السماء، وكأنّها أشباح قديمة تترقب وصول الغريب، الذي جاء من وراء البحر؛ ليطرق أبواب سرّ الأرض المُقدسة، شعرَ معها رجاله أنّها عبارة عن جنودٍ خفيّة، تحمي تلكَ المنطقة، وتخرج في هئية رمال تحملها الرياح، لتفحص كُلّ مَن هو غريب.

(الإسكندر) كانَ يمتطي جواده الأبيض (بوسيفالوس)، شامخًا في مقدمة الركب، يرتدي درعه البرونزي وحرملتهِ الأرجوانيّة، التي صبغتها الرمال غدت بلونٍ يميل إلى الذهبي، وخوذته اللامعة انعكست عليها خيوط الشّمس فتألقت كأنّها هالة نور تُحيط برأسه!

التزمَ الصمت أغلب الطريق، عيناهُ معلقتان بالأفق، كأنَّ شيئًا ما في داخلهِ يقوده إلى حيثُ لم تطأ قدمه من قبل، إلى جوارهِ سار (هيفايستيون)، صديقه ورفيقه الأوفى، وقد ظهرت على ملامحهِ علامات القلق من طول المسير ومشقة الطريق، لكنَّ (الإسكندر) لم تبدو عليهِ أيّة مظاهر ضعف أو خوف، بل كانَ يسير بثباتٍ وكأنَّهُ جزء من هذهِ الأرض!، وكأنَّ الصحراء نفسها تعترف بهِ وتمنحهُ قوتها!

ومع اقتراب الغروب في اليوم الرابع من الرحلة، بدأت تظهر في الأُفق خضرة نادرة غريبة على هذا المشهد، تتلألأ كالجوهرة وسط مُحيط الرمال، ارتفعت صيحات الجنود.

- إنّها الواحة.. واحة (آمون).

ازدادت الحماسة في صفوف الجيش، حتّى إنّ بعضهم قد رفعوا أصواتهم بالتسبيح للآلهة؛ شُكرًا على النجاةِ من ذلكَ الامتداد الموحش، والصحراء القاحلة المُخيفة، تلكَ الصحراء التي تحدّاها (قمبيز) سابقًا، وأرسلَ خمسون ألف جندي ليهدم ذلك المعبد،

ويُعلن أنَّهُ ليسَ هُناكَ إله آخر غيره، فابتلعت الصحراء جنوده بالكامل وأبادتهم عن بكرةِ أبيهم، حتّى أنَّهُ لم يتبقى منهم أيّ أثر، أو حتّى سنبك من سنابك الخيل.

فكان جنود (الإسكندر) يعلمونَ جيّدًا أينَ هم؟

وقوة هذهِ الأرض، ومع كُلّ خطوة كانوا يقتربون، تزداد رائحة النخيل العطرة، وتظهر جداول المياه اللامعة تحت أشّعة الشَّمس الأخيرة.

الفصل الرابع

دخلَ (الإسكندر) وموكبه (واحة آمون)، فاستقبلتهُ الطبيعة أوّلًا بظلال أشجارها وجمال بِرَكِها، لكنْ ما جذب انتباه الجميع، هو ما كانَ ينتظرهم على مشارف المعبد العظيم، صفوف من الكهنة بملابسهم البيضاء الناصعة، مُصطفين في نظامٍ مهيب، وكأنّهم في انتظارهم مُنذُ تحرّكهم!، كانتْ على رؤوسهم تيجان الكهنوت المرصعة بريش النعام، وفي أيديهم عُصيّ طويلة تنتهي برؤوسٍ على شكل زهرة اللوتس.

عندما اقتربَ (الإسكندر) علت أصوات الطبول والدفوف، وارتفعت الأناشيد المقدسة بلغة المصريين العريقة، لغة المعبد المقدسة التي بدت كأنّها تتجاوز حدود الزمن!، فتحت أبواب المعبد الثقيلة المصنوعة من خشب الأرز، والمطعمة بالنحاس، وخرج كبير الكهنة يتقدمهم شيخ وقور ذو لحية بيضاء، ومنظر مهيب، تشعر وكأنَّ هُناكَ هالة من الطاقة الصافية الخفية تُحيط به، عيناهُ كأنّهما بحر من الأسرارِ تغرق فيهِ حينما تنظر فيهما.

توقفَ الموكب أمام البوابة، فهبط (الإسكندر) عن صهوة جواده وسار بخطواتٍ بطيئة، يُرافقهُ (هيفايستيون) وعدد من كبار قادته، تقدم كبير الكهنة بخطواتٍ ثابتة، ثُمَّ انحنى أمام الإسكندر، قائلًا بصوتٍ مهيب، وكأنَّهُ يأتي من قاعِ بئرٍ عميقٍ ساحر.

- مرحبًا بكَ يا ابن (آمون)، يا مَن اختارته السماء ليكون ملكًا على الأرضين، وحامي مصر ومُحررها من غربائها.

ساد صمت عميق بعد تلك الكلمات، ارتجف لهُ بعض الجنود الذين لم يفهموا معنى الكلمات تمامًا، لكنَّ وقعها كان كالرعد.

أمّا (الإسكندر) فقد رفع رأسهُ قليلًا، وابتسم ابتسامة واثقة، ثُمَّ مدَّ يدهُ إلى كبير الكهنة ليُساعدهُ على النهوض برفق، وقالَ هامسًا.

- إنْ كنتُ ابنًا لآمون، فقد جئت لأستمع لصوت أبي، وأعرف قدري في أرضكم المُقدسة.

أشارَ كبير الكهنة إلى الداخل، فانطلقت المشاعل على جانبي الطريق، تقود (الإسكندر) نحو باحة المعبد، كان البناء شامخًا عظيمًا، جدرانه مُزينة بنقوشٍ مصرية قديمة، تحكي قصص الآلهة وسيرة الملوك العظماء السابقين، وعلى سقفه نقوش فلكيّة تُمثل النجوم والكواكب كما رآها المصري القديم.

في وسط المعبد، ارتفع تمثال الإله (آمون)، ذهبي ضخم بجسد إنسان، ويحمل صولجان ذو كرة لامعة في مقدمته، عيناهُ المرصعة بالأحجار الكريمة تعكسان ضوء المشاعل، فيبعثان رهبة في النفوس.

أمام التمثال كان موقد ضخم تحترق فيهِ أخشاب عطرية غامضة، رائحتها مزيج من اللبان والصمغ، والعطور النادرة القادمة من الجنوب.

ركعَ (الإسكندر) أمام التمثال بخشوعٍ غير معهود في ملوك محاربين، وضع سيفه أرضًا إلى جانبه، كأنَّهُ يُسلّم قوته وسلطانه بينَ يدي الإله!

ارتفعت الأناشيد حوله، وأخذ الكهنة يتلون تراتيل طويلة بلغة المعبد، والتى لا يعلمها إلَّا هُم، بينما كان كبير الكهنة يقترب حاملًا عصا مقدسة منقوشة برموز غريبة، من المستحيل أنْ تجدها في مكانٍ آخر، وكأنّها خصصت لهذا الصولجان تُعطيهِ قوة خاصّة.

ثُمَّ أشارَ الكبير إلى الجميع بالصمت، وقال بصوتهِ العميق.

- اسأل أيُّها المقدوني فآمون لا يُخفي مصير أبنائه عنهم.

رفع (الإسكندر) رأسه، ونظر إلى التمثال كأنَّهُ يخاطب عينين حيّتين، وقال متضرعًا.

- أيُّها الإله العظيم، يا مَن عرفت سرّ الأزمنة، جئتُ إليكَ من أقاصي الأرض لأعلم هل قدري أنْ أملك مصر وحدها، أم أنَّ العالم أجمع مكتوب باسمي؟

- وهل سلالتي ستبقى، أم أنَّني وحدي الموعود بالعظمة؟

ارتجّ المعبد بصدى كلماته، وكأنَّ الحجر نفسه أصغى إليها!

تقدم كبير الكهنة وأغمض عينيه، ثُمَّ بدأ يتلو صلوات بلغة المعبد، تردد صداها بينَ الأعمدة الشاهقة، حتّى بدت و كأنّها تأتي من عالم آخر! وحينما انتهى فتح عينيه فجأة وأعلن.

- يا ابن (آمون)، إنّك لم تولد من جسد بشر كما يولد الآخرون، بل قد اختارتك السماء مُذ صرختك الأولى، لكَ أنْ تملك الأرض من مشرقها إلى مغربها، ولن يقف في طريقك جيش أو مدينة ويسجد لك كُلّ ملوك الأرض، أمَّا سلالتك فإنّها لن تدوم كما تدوم الجبال، لأنَّ العظمة التي وُهبت لك لا تُورث، بل تُعاش مرّة واحدة في كُلّ عصر، ولكن..

وصمت الكاهن قليلًا، ومالَ قليلًا إلى الأمام وتابع بصوتٍ خفيض، وكأنَّهُ يُريد أنْ لا يسمعهُ سوى (الإسكندر) فقط.

- يخرج منكَ وريث لا يرث ملكك، ولكن يرث الزمان والخلود، هو العظيم ولكنْ لا يعلمهُ أحد، هو رمز الخلود والقوة، وهو أيضًا المنتصر في شتّى معاركه، وهو المهزوم من قلبهِ دومًا، كتبت عليهِ الوحدة برغم أنَّ العالم يُحيط به.

اعتدل كبير الكهنة بعدَ أنْ انتهى من حديثهِ الخاصّ إلى (الإسكندر)، وأحنى الأخير رأسه، وقد ارتسم على وجهه مزيج من الفخر والحزن.

الفخر لأنَّهُ أدرك أنَّهُ الموعود، والحزن لأنَّ مجده لن يخلد في أبنائه، ولكنْ كست الدهشة ملامحه عندما توقف أمامَ كلمات الكاهن الأخيرة، عن الوريث الذي يرث الخلود والزمان، ولكنَّهُ خرج من دهشتهِ وشروده حينما اقترب (هيفايستيون)

بخطواتٍ هادئة، وقد رأى التغيُّر على ملامح صديقه، لكنَّهُ لم يجرؤ على الكلام، وتابع كبير الكهنة قائلًا.

- ستُفتح أمامك أبواب لم تُفتح لغيرك، وستعبر الصحاري والبحار، وستسجد لك شعوب لم تسمع باسمك من قبل، لكنْ كُن حَذرًا؛ فإنَّ كُلّ شهاب يُضيء السماء يُخبئُ خلفه ظلمة تنتظر لحظتها.

ارتجف الحاضرون من وقع تلك الكلمات، أمَّا (الإسكندر) فابتسم، ابتسامة غامضة، فقد أدرك المغزى من رسالة الكاهن عن الشهب، ثُمَّ قام واقفًا ورفع يديه نحو التمثال قائلًا.

- إنْ كانَ قدري أنْ أملك العالم، فسأحملهُ بيدي كما يحمل الأبّ ابنه، وإنْ كانتْ حياتي قصيرة، فلتكن كالشهاب الذي يخترق السماء مرّة واحدة، لكنَّهُ يترك أثره خالدًا في عيون كُلّ مَن رآه.

ارتفعت الهتافات في المعبد، وملأ الدخان المقدس المكان بصورة غريبة فجأة، حتّى أنَّ (الإسكندر) قد غاب للحظة عن أنظار جنوده وقادته، داخل سحابة الأدخنة.

وحينما خرج منها وهمَّ بالخروج من المعبد، شعر الجميع أنَّ شيئًا ما قد تغيّر، وكأنَّ رجلًا آخر خرج من المعبد، ليس مجرد ملك مقدوني، بل انسان آخر اختلط دمّه بنور الآلهة وأخذَ من قوتها!

في تلك الليلة، أُقيمت احتفالات عظيمة في الواحة، اجتمع الجنود مع المصريين حول النيران، رقصوا وغنّوا بلغات مختلفة، لكنَّ فرحتهم كانتْ واحدة.

جلسَ (الإسكندر) منفردًا قليلًا على ربوة قريبة، يُراقب السماء المرصعة بالنجوم، وقال بخفوتٍ وكأنَّهُ يُنشد صلاة ربَّانية.

- يا (آمون) لقد منحتني يقينًا كنت أفتقده، من الآن لن أرى نفسي ملكًا لمقدونيا أو لمصر فقط، بل سيّدًا على كُلّ أرض تطأها قدمي.

أثناء ذلك اقتربَ (هيفايستيون) وجلسَ بجواره، وقال مُداعبًا.

- لقد وجدتَ ما جئتَ تبحث عنه، أليس كذلك؟

ابتسم الإسكندر وأجابَ بهدوء.

- بل أكثر.. وجدتُ نفسي.

وساد الصمت إلّا من قرقعات الأخشاب المحترقة، في النيران المشتعلة أمامهم، بينما السماء فوقهم تنثر شهبها، كأنّها تُصدق على ما قيل في المعبد المقدس.. معبد الإله (آمون)!

الفصل الخامس

داعبت خيوط النور الأولى عينيه من بين خصاص الخيمة، فتحَ عيناهُ في كسل، فالوقت لا زال مبكرًا بعد الفجر مباشرة، حاول أنْ يغلق عينيه ويعود لسُباتهِ مرّة أُخرى، لكنَّ عقلهُ أبى أنْ يخضع، نهض من فراشه، لم يرتدي حتّى درع صدره المعدني، خرج بملابسهِ الصيفيّة الخفيفة، التي تُشبه في تصميمها إلى حدٍّ كبير الجلباب المصري.

وقفَ أمامَ خيمتهِ يملأ رئتيهِ من نسيم الفجر العليل، شعر بالهواء يتغلغل إلى كُلّ خلية من خلاياه، ويمدّها بقوةٍ غريبة، وكأنَّهُ تنفسَ أُكسيرًا للقوة، مازالت العتمة تملك الغلبة على خيوط الفجر، المسترسلة من بين السُحب، تحاول أنْ تفرض سيطرتها ولكنْ على وهن، ومن بعيد رأى نيران المشاعل الخاصّة بالمعبد، تتراقص وكأنّها راقصة هنديّة، ترقص رقصتها الأخيرة أمامَ أحد ملوك الشرق!

قرر أنْ يذهب الى هُناك وحيدًا دونَ جُندٍ أو حرس، أو حتّى رفيق، وبالفعل تحركَ بعدَ أنْ ربط سيور حذائه، وتأزر بسيفهِ حول خصره، كانَ يُدرك أنْ لا داعى للسيف في المعبد، ولكنْ خوفًا من ما قد يلقاهُ في طريق الذهاب أو العودة.

سارَ بخطواتٍ سريعة واثقة، ومع اقترابهِ كانَ يعلو صوتٌ عذب، يشدو بترانيم شعر، وكأنّها آتية من بين سُحب السماء، وليستْ من بشرٍ في معبد حجري وسط صحراء شاسعة!، أسرعَ الخُطى مأسور الفؤاد، ذاهب العقل ،وصلَ إلى باحة المعبد، وقف خارجًا ينظر ويتفحص المكان، خوفًا أن يقطع تلك الأصوات الشجيّة.

وجدَ بعض الفتيات يرتدينَ الزيّ المصري الأبيض الناصع، والذي يُظهر بشرتهنَّ الخمريّة المُشربة بالحُمرة، فيزيدهنَّ فتنةً وجمالًا فوق جمالهنَّ، يسجدن أرضًا ممدودات السواعد، تلمس جباههنَّ الأرض أسفل تمثال الإله (آمون) الذهبي العملاق، وتصدح حناجرهنَّ بكلماتٍ ساحرة، وبعضهنَّ تطلق نغمات موسيقية، وكأنَّ حناجرهنَّ آلات موسيقية في يدِ أمهر العازفين!

المشهد بالكامل عبارة عن لوحة خلّابة، تخطف العقول والأبصار، توقفت الفتيات واعتدلنَ من سجودهنَّ، فتراجعَ بهدوء حتّى لا يفزعهنَّ، وتوارى خلف أحد الأعمدة الخارجية، يتلصص عليهنَّ ويُمتع عيناهُ من جمالهنّ.

التفت الفتاة التي تتوسطهنَّ ونظرت إليهنّ، وأشارت لباقي الفتيات بالانصراف، فأطعنَ أوامرها، يبدو أنّها كبيرتهنَّ أو زعيمتهنّ، انصرفت الفتيات تاركات زعيمتهنّ، تقف بجسد نصف مُنحنى أمامَ تمثال (آمون)،

ومع اِنحنائها انحصر الثوب عن نصفها السُفلي، فظهرت ساقيها بالكامل، ومعها فخر هو فاه، كانَ قد سافر ومرَّ بنصف بلاد العالم، وقابل أجمل جميلات الشرق والغرب، ولكنْ مثل ذلكَ الجسد البضّ، والساق التي نُحتت بيدِ أعظم فنان، لم يَرى مثلها من قبل.

انتهت من صلاتها المنفردة واستدارت بهدوء، كانتْ خطواتها موزونة كإيقاعٍ موزون، ينساب مع ارتجاف ألسنة اللهب، وحينَ وقع بصر الإسكندر على ملامحها، فإذا وجهها صفحة من السحر المكنون، بشرة خمريّة كأنّها لون الأرض حين تبلّلها أمطار الفجر، وعينان فيروزيتان عميقتان، يتلألآنِ بوميضٍ لا تُدركه الكلمات.

كانَ جسدها آية في التناسق، قوام يفيض أنوثة ورشاقة، يوشّحه ثوب من الكتّان الناعم الأبيض يشفّ ولا يكشف، والأعجب أنَّهُ لايستر أيضًا، فكأنّما يثير الخيال أكثر ممّا يروي!

وفي لحظةٍ خاطفة، شعر (الإسكندر) بأنَّ قوتهُ التي أخضعت الممالك، لا طاقة لها أمام هذا الجمال المهيب، كأنَّ السهام قد اخترقت صدره بلا إنذار!، سقط صريع هواها، مأخوذًا بسحر وجهها وروحها، عاجزًا عن مقاومة ذلك الإنجذاب، الذي لم يعرفهُ من قبل، وكأنَّ المعبد قد تلاشى من حوله، فلم يعد يرى إلّا هي فقط.

اقترب (الإسكندر) في بطء، كأنَّ قدميه قد أثقلهما ذلك السحر، الذي يفيض من هيئتها، كانتْ لا تزال واقفة قرب المذبح، والأنوار المتراقصة تُلقي على وجهها مسحة من رهبةٍ

وبهاء، حينَ خطى نحوها خطوتهِ الأولى، شعرت به، التفتت، فانعكس في عينيها الذعر المفاجئ.

تراجعت خطوة، تتشبّث بأطراف ثوبها الكتّاني، والاضطراب يظهر جليًا على ملامحها، لم تكن تفهم كلماته، ولم يكن هو يعرف لغتها أو كيف يُحادثها، لكنَّ يديه ارتفعتا في الهواء في إيماءاتٍ وديعة، كأنَّهُ يُريد أنْ يسكب الطمأنينة على قلبها دونَ صوت!

رسمَ على ملامحهِ ابتسامة هادئة، اقتربَ ببطء، مُحاولًا أنْ يقول بصمتهِ ما عجزَ عنهُ لسانه، إنَّهُ لا يُريد إيذاءها، وفي لحظةٍ عابرة، مدّ يدهُ كما لو كان يوقفها عن الرجوع، فانزلقت أصابعه ولامست كفّها دونَ قصد، ما إنْ لامس بشرتها حتّى ارتجّ جسده كُلّه، إحساس مباغت اخترق كيانه كضربةِ صاعقة، لم يعرف كيف ولا لماذا؟، لكنَّ دفئها تسلّل إلى عروقه، فأربكهُ وأذهله في آنٍ واحد.

أمّا هي، فارتجفت فجأة، وشحب وجهها وكأنَّ الدّم قد اختفى منه، وارتسم على ملامحها فزع لم تستطع إخفاؤه، اجتذبت يدها في هلع، وجفلت كغزالة باغتها مفترس ضخم، ثُمَّ استدارت وولّت هاربة في أروقة المعبد.

تركض مسرعة، وثوبها يتماوج خلفها، راسمًا هالة منيرة بيضاء كظلّ يبتلعها في أعماق العتمة، فيما بقيَ (الإسكندر) واقفًا، مأخوذًا بما حدث، كأنَّ الزمن نفسه قد توقف عندَ هذهِ اللحظة، لم يدرِ ماذا يفعل؟

عقله توقف عن العمل تمامًا، أصابهُ العطب، تحرك بآخر ما لهُ من وعي، ساقتهُ ساقاه إلى خيمته، والتي يقف أمامها صديقه (هيفايستيون) مُرتعبًا، يبحث عن صديقه وقائده، الذي اختفى من فراشهِ مع خيوط الفجر الأولى، وإذ بهِ يراهُ عائدًا بثياب نومه، هائمًا على وجههِ في حالةٍ غريبة يُرثى لها، أسرعَ إليهِ وأمسكَ بكتفيهِ صارخًا.

- صديقي وقائدي العظيم، ماذا حدث؟
- هل أنتَ بخير؟

- أخبرني.

نظر لهُ (الإسكندر)، وصمتَ لفترة حتّى أنَّ (هيفايستيون) قد شعر بالجزع، لولا ابتسامة حالمة ارتسمت على وجه (الإسكندر)، جعلتهُ يزفر بارتياح، اقتربَ منهُ الأخير وهمس.

- لقد قتلتني!

تراجعَ (هيفايستيون) كالمذعور، وصرخ.

- مَن هي؟

- وكيف هذا يا سيّدي؟

- وأينَ أصابتك؟

أمسكَ (الإسكندر) بطرف ثوبه من أعلى وشقهُ بقوة، وهتفَ وهو يُشير إلى قلبه.

- هُنا.

- لقد أصابتني في قلبي، وجثى على رُكبتيهِ وتابع.

- أطلقت سهام جمالها، فلم يُخطئ واحد منها هدفه، فمزقت قلبي وحوّلتهُ إلى أشلاء.

ركع (هيفايستيون) جوار صديقه، وابتسم هامسًا.

- اوه!

- إنَّهُ الحُبّ إذًا، قد صرع أعظم مُقاتل.

ارتمى (الإسكندر) بينَ ذراعي صديقه، ووضعَ رأسهُ على كتفهِ، وهو يهمس بخفوت.

- لقد ماتَ (الإسكندر)، قُتلَ أشدّ قتلة..

- قُتِلَ بداء الحُبّ!

الفصل السادس

في نفس الليلة وخلال السكون الذي يُخيّم على الواحة، وقد خبت أصوات الطقوس، لم يعد إلّا صوت الرياح التي تداعب التباب الرمليّة، وضوء القمر يفرش أشّعته عليها، فأعطاها مظهر لبحر الهادئ، جلس (الإسكندر) في خيمة الاجتماعات المتنقلة، تنيرها مشاعل الزيت المعلقة على أعمدة مغروسة في الرمال.

إلى جوارهِ جلس (هيفايستيون)، صديقه المقرب ورفيقه في الحروب ودرعه وساعده، وعيناه ترقبان سيّده بحذرٍ وقلق، أمّا على الجانب الآخر، فكانَ يجلس (بطليموس) القائد والمؤرخ لحملات (الإسكندر)، يحمل بينَ يديهِ رقوقًا وأدوات للكتابة، حضر بُناءً على طلب الأخير.

رفع (الإسكندر) رأسه، وحدّق في (بطليموس) مليًّا، ثُمَّ قال بصوتٍ هادئ، يختبئ وراءه اضطراب في كُلّ خلجاته.

- يا (بطليموس)، ما حملتُك الليلة لأحاديث الحرب ولا لخطط الممالك، إنَّما حملتني نارٌ أشدّ استعارًا، نارٌ لا يخمدها ظفر ولا يطفئها مجد.

- أُريدكَ أنْ تُعلّمني لسان هذهِ الأرض، لسان المصريين، حتّى أفهم ما لم تقله الإشارات، وأبلغ قلب مَن حجبتني عنها الأقدار.

تبادل (بطليموس) و(هيفايستيون)النظرات، الأوّل بدأ مأخوذًا بالفضول، والآخر انعقد جبينه بقلق، ردَّ (بطليموس) بهدوء.

- أفهم قصدك يا مولاي، لكنَّ لسان المصريين بحرٌ عميق، صعب المراس، لا يُدرك في ليلة ولا شهر، يحتاج إلى صبر السنين.

قاطعهُ (الإسكندر) بحزم.

- وما السنين عند مَن وهب عُمره للفَتح؟
- ألم نعبر آسيا في شهور؟
- ألم نهزم ملوكًا لم يكن يظن أحد أنهم يُهزمون؟
- فكيف أعجز عن لسانٍ مهما استعصى؟

تنحنح (هيفايستيون) مُحاولًا التحدّث، وصوته يخرج ممزوجًا بالخوف.

- مولاي، ما هذا الطريق الذي تسلكه؟
- أهي الغزوات قليلة، حتّى تصير أسيرًا لعيني فتاة من فتيات المعبد؟
- ألا تعلم أنهنّ مقدسات، محرّم على كُلّ رجلٍ أنْ يقترب منهنّ؟
- الكهنة لن يرضوا عنك، وقد يُثير غضبهم ما يُعكّر صفو مقامك بينهم.

ساد صمت قصير، ارتجفت فيهِ شعلة المشعل، بسبب رياحٍ خفيفة انسلت من خصاص الخيمة، كأنّها تؤكد الكلمات، أطرق (الإسكندر) رأسه لحظة، ثُمَّ رفع عَينيهِ وفيهما بريق لا يُخطئه مَن عرفه.

- يا (هيفايستيون)، صديقي وأخي في السلاح، لقد قاتلتُ بجانبي في ميادين الموت، وشهدتَ أني لم أُرهب سيفًا ولا رمحًا، لكنَّ هذهِ الفتاة لمّا التقت يدي بيدها، شعرت أنّني أمام قوة لا تقلّ رهبة عن سيوف (دارا) ولا جيوشه، كأنّني لمست قدرًا مكتوبًا، لا أستطيع الفرار منه.

أدار (هيفايستيون) وجهه، يُخفي اضطرابه، بينما (بطليموس) ينظر إلى (الإسكندر) بتمعن، كمَن يزن كلماته في ميزان التاريخ، وقطع الصمت قائلًا.

- مولاي، لستُ أعمى عن ما تقول، إنَّ العاطفة قد تصنع من الإنسان إلهًا أو تُرديه عبدًا، ولكن أعلم أنَّ لسان مصر ليس مُجرّد كلمات، بل أسرارٌ تُورّث

من الكهنة إلى أبنائهم، وما أستطيع أنْ أُعطيك منهُ إلَّا القليل، إشارات وعبارات قد تفتح لكَ باب الفهم، ولكنّها لن تمنحك أسرارهم.

اقترب (الإسكندر) منه، وبصوتٍ خافت وكأنَّهُ يعترف بسرٍّ خطير.

- ذلك القليل يكفيني يا (بطليموس)، علّمني قدر المستطاع، كلمةً تُقرّبني، جملةً تفتح لي طريقًا.

- إنْ عجزت عن بلوغها بلساني، فكيف أعبر إليها بقلبي؟

ظهر الغضب على ملامح (هيفايستيون)، ضرب بكفّه على ركبته، وقالَ بحدّة.

- مولاي، هذهِ مخاطرة، أما يكفيك أنَّ الكهنة ينظرون إليك الآن كابن لآمون؟

- أتريد أنْ تقوّض ثقتهم بك من أجل فتاة؟ لو علموا بعزمك هذا لانقلب ودّهم عداوة، ولرأوا فيكَ دخيلًا لا مُخلّصًا.

ابتسم الإسكندر ابتسامة خفيفة، وقال بإصرار.

- يا (هيفايستيون)، لم أنسَ قدسيّة مقامهم، ولن أدنّس حرماتهم، إنما أطلب أنْ أفهم، أنْ أسمع صوتها كما هو، لا كما يُترجمهُ صمتُها، هل في هذا معصية؟

اقترب (بطليموس) وقد شبك أصابعه أمامهُ مُفكرًا، وقالَ بصوتٍ يمتلئ بالحكمة المعلمة.

- إنْ كنت مصرًّا، فسأعلّمك قدر المستطاع، لكن اعلم أنَّ كُلّ كلمة ستتعلمها تحمل في طيّاتها تاريخ أُمّة، وقوانين آلهة، وأسرار كهنة، لست أدري إنْ كانَ حُبُّكَ هذا سيقودك إلى نور الفَهم، أم إلى هاوية الخطر.

ارتفعت إليهِ عينا (الإسكندر) والفرح يطل منهما.

- إنّها الهاوية التي اخترتُها يا (بطليموس)، علّمني ودع القدر يمضي كما يشاء.

أدار (هيفايستيون) وجهه في ضيق، كأنَّ قلبهُ يصرخ بما لا يستطيع البوح به، ثُمَّ قالَ بصوتٍ خافت.

- ليتني أستطيع أنْ أحميك من نفسك، كما حميتُك من سيوف الأعداء، ولكن يبدو أنَّ هذهِ المرّة، خصمك ليسَ فارسًا من لحم ودم، بل شبحًا يسكن قلبك.

ابتسم (الإسكندر)، ووضع يدهُ على كتفهِ قائلًا.

- وأيّ فارسٍ أعظم من ذاك الذي يسكن القلب؟

- إنّني لم أخض حربًا أبهى من هذه.

لم تمضِ الليلة إلّا وقد جلس (بطليموس) يخطّ بعض الرموز على الرقوق، يشرح معانيها، بينما (الإسكندر) ينصت بكُلِّ جوارحه، يردّد الكلمات الغريبة كأنّها تراتيل مُقدّسة!

أمّا (هيفايستيون)، فقد التزمَ الصمت، ينظر إليهما بعينين يملؤهما الخوف، وهو يدرك أنَّ قلب (الإسكندر) قد دخل معركة لا تملك السيوف أنْ تحسمها.

ولكنَّهُ كانَ مُدركًا أنّها معركة خاسرة.. لا رابحَ فيها.

الفصل السابع

قبلَ أنْ يُبدد الفجر ظلام الليل بلحظات، كانَ المعبد غارقًا في صمتٍ رهيب، لا يقطعهُ سوى صوت رفرفة النيران، المتأججة في مشاعل الزيت، الموزعة على الأعمدة والجدران، فتنساب ألسنة الضوء المرتجف لترسم ظلالًا تتماوج مع دخان يتصاعد من البخور المحترق، في ذلك الجو العامر بالرهبة، تقدمت (ميريت-نيت)، كاهنة المعبد وكبيرة الفتيات، بخطواتٍ رشيقة واثقة ولكن يجللها الوقار، ترتدي ثوبها الأحمر القاني الذي يخالف بياض أثواب الأخريات، كأنَّهُ علامة تختص بها وحدها، يزيد من فتنتها ويكشف عن فرادة حضورها وتميّزها.

وقد امتزجَ لون الثوب مع بشرتها الخمرية المائلة للإحمرار، فمنحها نورًا داخليًا، ومع عينيها الفيروزيتين اللتين تلمعان تحت المشاعل، بدت وكأنّها تمثال حيّ صنعتهُ الآلهة بيدها!

وقفت الفتيات من حولها في صفوف منتظمة، رؤوسهن منحنية، وأياديهنَّ تحمل أوانٍ صغيرة من البخور، فرفعت (ميريت-نيت) ذراعيها في الهواء، وأطلقت صوتها الرخيم بتلاوة الترانيم، فانطلقت أصواتهنَّ تتبعها كأنَّها أمواج تُلبي صوت الموجة الأولى.

تعالت التراتيل، وتمايلت ألسنة النار مع الصدى، بينما كانَ الدخان الأبيض يصعد ببطء، ويلتف حول الأعمدة الحجرية ليملاء سماء المعبد الحجرية، فيرقص فوق رؤوسهنّ كما لو كانَ يستجيب لدعائهن.

تقدمت (ميريت-نيت) خطوة إلى الأمام، رفعت مبخرة ذهبية صغيرة، وبحركاتٍ رشيقة مملوءة بالإتقان، أخذت تنثر البخور في أرجاء القاعة، فينطلق عبيره في الأجواء، يخالطه خشوع، وتستشعر القلوب أنَّ المكان قد امتلأ بحضور غير مرئي لإلهٍ عظيم، حضور يجعل كُلّ نفس أقرب إلى الصمت المرهف والرهبة العميقة.

كانتْ الفتيات يتبعن حركتها بدقة، يقلّدن انحناءاتها، يرددْن خلفها الكلمات، حتّى بدا المشهد وكأنَّهُ لوحة حيّة رُسمت بيدِ فنانٍ قدير!

اقتربت لحظة النهاية قبل مجيء كبير الكهنة لتقديم القرابين، فازدادت رهبة المشهد، واشتدت حرارة التراتيل، ثُمَّ أُخمدت شيئًا فشيئًا.

أومأت (ميريت-نيت) للفتيات علامة الانصراف، فانحنت كُلٌّ منهنَّ أمامَ تمثال (آمون)، ثُمَّ انسحبن بانتظام إلى الممرات الجانبية، تاركات القاعة تغرق في بعض الظلام والكثير من الصمت، ولم يبق سوى صوت السكون ووميض المشاعل، والتمثال الضخم جاثمًا في عظمته.

اقتربت (ميريت-نيت) وحدها إلى قدمي التمثال، وركعت، ثُمَّ ألقت بجسدها كُلّه ساجدة على الأرض، جبينها على الحجر البارد، ذراعاها ممدودتان إلى الأمام في خضوعٍ كامل، كتحية وداع وانصراف من حضرة الإله.

وبقيت لحظات في خشوع كامل، قلبها يخفق بخشية وإيمان، حتّى إذا همّت أنْ تنهض لتغادر، أحسّت فجأة بيدٍ قوية تمسك بذراعها من الخلف.

انتفضت في مكانها، والفزع يوشك يجعل قلبها يتوقف كادت أنْ تفلت صرخة من حنجرتها، لكنْ قبل أنْ ينبعث الصوت منها، وجدت يدًا أخرى قد وُضعت برفق وحزم على فمها، تخنق صرختها قبل أن تولد، رفعت عينها في ذهول، وإذا بهما تقعان على وجه (الإسكندر)، ذلك الوجه الذي اجتمع فيه نور الشباب، وسطوة الملك وهيبة الفاتحين، ولكن في عينيه تلك اللحظة لم يكن بريق الحرب ولا نار الطموح، ولا قوة محارب، بل لهب آخر، لهب مشدود إليها وحدها، لهيب الحُبّ.

كان يقف قريبًا، أقرب ممّا تتصور، حتّى تلامس صدره بصدرها، جسده القوي يضغط على جسدها الرقيق، ذراعه اليُمنى تحكم قبضتها على يدها اليُسرى، وكفه الأخرى لا

تزال على فمها تمنعها من الصراخ، وأنفاسه الساخنه تختلط بأنفاسها في مساحةٍ ضيقة، لا تتسع سوى لهما.

عيناهُ مثبتتان على عينيها، نظرة طويلة، مملوءة بالاضطراب والعاطفة، كأنّها اعتراف لا يحتاج إلى كلمات!، اقترب من أُذنها، وهمسَ بصوتٍ خافت يحمل بين نغماته حرارة لم تشعر بها من قبل، وقال .

- "مر إي تو".

ارتجف قلبها بينَ ضلوعها، مع وقع الكلمة على أُذنها، مشاعر مختلطة يتصارع فيها الرعب والدهشة، بينهما خيط خفي من سحر وانجذاب لم تفقه معناه، وهي أسيرة قبضته وقيوده اللحظية، شعرت أنّها لا تواجه رجلًا عاديًا، بل قدرًا اقتحم حياتها، وأنَّ هذهِ اللحظة المفعمة بالصمت، أبلغ من كل الترانيم التي صدحت بها قبل قليل، ومع كلماتهِ التى اخترقت قلبها قبل أُذنها، لم يعد يسعها أنْ تصمد أكثر.

ومادت بها الأرض، وكأنَّهُ ألقى بتعويذة سحرية أفقدتها وعيها، حملها بينَ ذراعيه القويتين، وكأنَّهُ يحمل طفلة صغيرة، لم تقاوم أو تحاول الهرب، تركت نفسها له!

حملها وانسلَّ بها خارجًا في هدوء، كَلصٍ يحمل غنيمته، ويهرب بها في جنح الظلام قبل أنْ يُدركهُ أحد، كانتْ واعية ولكن فقدت القدرة على التحكم في جسدها.

أيُّ سحرٍ هذا الذي ألقاهُ على مسامعها؟!

شعور لم يُراودها من قبل، تعالت دقات قلبها أكثر وأكثر، وأُذنها لا تسمع إلَّا صدى العبارة التي ألقاها على مسامعها، مرارًا وتكرارًا، وكأنَّ عقلها فقد كُلّ ما يعرفهُ من كلماتٍ إلَّا هذهِ فقط..

- مر إي تو
- مر إي تو

- مر إي تو!

ومع كُلّ مرّة يتردد صداها، تذهب إلى عالم آخر، عالم لم تعهدهُ من قبل، وتتردد الكلمات مرّة تلو المرّة..

- مر إي تو
- مر إي تو
- أنا أُحبّك.

الفصل الثامن

تقف متقدمة الصفوف، ومن خلفها باقي فتيات المعبد، بزيّها الأحمر القاني المُميّز، كُنَّ في استقبال ملك عظيم، سيرته تسبقه دائمًا في كُلّ مكان، أتى خصيصًا ليُطهر أرض مصر من هؤلاءِ المتوحشين (الهكسوس)، أخبارهُ وقصص بطولاته أصبحت تروى للأطفال قبلَ النوم، تُداعب أحلامهم وتُثير خيالاتهم، حول سيرة ذلكَ البطل الذي لا يُقهر، كيف يُقهر وهو ابن آمون؟!

إنَّهُ (اليكسندروس).

وصل البطل في موكبِهِ العظيم، مشهد مهيب لم تراهُ من قبل، ولا تتوقع أنْ ترى مثله في أي وقتٍ لاحق، جالسًا على حصانهِ القوي، يضرب الأرض بسنابكهِ بقوة، وكأنَّهُ يختال بنفسه وبمَن يمتطيه!

رفعت أنظارها لتقع عيناها على أجمل وأعجب مشهد يُمكن أنْ تراه، شابٌ قوي مفتول العضلات، رشيق القوام مُعتدله، يُشبهُ تلكَ التماثيل التي رأتها، وقد أحضرها الرحالة من رحلاتهم في عالم البحار، يرتدي حرملة حمراء على قميصٍ أبيض، ودرع معدني يُغطي صدره بالكامل، مُتخذًا شكل وتفاصيل جسده، صنعتهُ يد فنان ماهر يملك مهارة في تشكيل المعادن، وكأنّها صُنعت من طينٍ صلصال!، لتتخذ تفاصيل جسد ذلكَ البطل بهذا الشكل الباهر.

تعالت دقات قلبها حينما وقعت عيناها عليه، شعرت وكأنّها ضُربت بصاعقةٍ في ليلةٍ مَطيرة!

- ما هذا بحقٍّ آمون؟!

ترددت هذهِ العبارة بعقلها، استعادت إدراكها لما حولها، حاولت أنْ تُهدئ من روعها؛ حتّى لا يسمع أحد صوت دقات قلبها في وسط الجموع.

أخذتْ تُتابعهُ بنظراتها، تراجعت حتّى توارت خلف بقيّة الفتيات، خشيتْ أنْ تفضحها عيناها المُعلقتانِ بهِ، ولا تستطيع أنْ تبعدهما عنه.

انتهتْ مراسم الاستقبال، دونَ أنْ تنتبه لها؛ فجُلّ تفكيرها كانَ مشغولًا بهِ هو، انصرفَ الجميع حتّى هي لم تجد ما يحتويها، عدا فراشها بغرفتها المُلحقة بالمعبد.

ألقت بجسدها على الفراش، وسبحت في خيالها حتّى وصلت لشاطئ الأحلامِ منها، كانَ هو هُناكَ يقف على حافّة النيل، عاري الجذع يُشير لها بالإقتراب، هرولت إليهِ دونَ تفكير، ضمّها إلى صدرهِ حتّى شعرت بحرارة جسده تكاد تلهب جسدها.

فتحت عينيها، وجدت عيناه، ينظر إليها في هيام، جالس على الرمال، واضعًا جسدها على قدميه، حاولت أنْ تُغلق عيناها مرّةً أُخرى وتفتحهما؛ كي تتأكد أنْ كُلّ هذا حقيقي، أدركت بالفعل أنّها حقيقة، أفاقت من حلمٍ جميل على واقع أجمل، همست بصوتٍ دافئ واهن.

- "م مَعَات إن آمون، إنّكَ إم خاعت دجت عنخ حُتب".

ابتسمَ (الإسكندر) فقد أدرك بعض كلمات ممّا نطقت، فاستطاع بذكائهِ أنْ يفهم أنّها تظنّ أنّهُ حلم، أو أنّها قد ماتت وهي الآن في الحياة الآخرة!

وضعَ يدهُ يربت بها على قمّة رأسها ويُهذب شعرها، ويعدل من خصلات شعرها الفاحم، ثُمّ همس.

- "إيو، إنتَك حر بو أم برِت حق".

كانَ يُخبرها أنّها في عالم الواقع، لا الخيال والأموات.

تطلعت إليهِ في دهشةٍ بالغة، فقد نطق بلسان آبائها وأجدادها، وكانَ هذا مستحيلًا على كُلّ غريب، وبصوتٍ مليء بالدهشة قالت.

- "إر إنتَك مَعَات؟"

- "إن دِدَك حر إيوك! "

ومرّة أُخرى استطاعَ أنْ يفهم ما تقول، كانتْ مندهشة تتساءل مَن أنت؟ ولماذا أتيت؟ اقترب من وجهها حتّى كادَ أنْ يُلامس فمه شفاهها، وقال.

- "زَنِك إنتَك" (من أجلكِ أنتِ).

هُنا استسلمت تمامًا كمَن أدركَ أنَّهُ في خضم حربٍ خاسرة، وتلاقت شفاههما في قُبلةٍ طويلة.، تتنفس بأنفاسٍ مُتقطعة بعد أنْ باغتها (الإسكندر) بقبلتهِ، التي سكنت قلبها قبل شفتيها، وبينَ ذراعيهِ شعرت أنّها خرجت من حدود العالم، إلى عالمٍ آخر لا يراهُ سواهما.

أخذَ يضمّها بقوةٍ رقيقة، كأنّما يخشى أنْ تفلت منهُ أو أنْ تذوب بينَ يديه، وقد لمعَ بعينيهِ بريق اختلط فيهِ الانتصار بالرجاء، وفي ابتسامتها ارتجاف صغير لم يُخفَ عليه، كأنّها تخشى لذّة غامرة لم تعهدها من قبل!

رفع كفه مرّة أُخرى برفقٍ، ليمسح خصلات شعرها المتساقطة على وجهها، فأحست بحرارة أصابعهِ كأنّها ترسم لوحة حانية على جبينها، وأغمضت عينيها لحظة، تاركة نفسها في انسيابٍ صامت نحو طمأنينة لم تجربها قط.

اقترب أكثر حتّى كاد يسمع خفق قلبها، فصار قلبه يُجيب خفقها بخفقان قلبه، وأحاطها بصدرهِ كمَن يضم كنزاً يخشى عليهِ الضياع!

همس باسمها كأنَّهُ يتلو صلاة، فارتعشت، ثُمَّ رفعت وجهها نحوه في خضوع محبوبة، لا تعرف كيف تُخفي شوقها. ابتسم، وترك أنفاسه تختلط بأنفاسها، وعندها أحست أنَّ كُلّ شيءٍ حولهما تلاشى، ولم يبقَ سوى دفء عناقهِ وارتجافها بينَ يديه، كأنَّ العالم كُلّه انكمش ليصير جسرًا واحدًا بينَ قلبين التقيا، وعرف كُلٌّ منهما أنَّ الآخر صار موطنهُ الوحيد.

طالت المعركة بينهما، بينَ انتصارٍ وانحسار، وبزغت الشَّمس في كبد السماء؛ لتُعلنَ مولد كائن غريب عن هذهِ المنطقة، كائن يُدعى الحُبّ، وفى النهاية خارت قواهما، كمَن خرجا من المعركة بلا فائز، انتصر الحُبّ فقط، ولكنْ في عقليهما وفي توقيت واحد تقريبًا، ترددت أسئلة بلا أجوبة.

هل يُمكن أنْ يولد حُبّ بلا رابط مشترك؟

أوطان مُختلفة

عقائد مُختلفة

أجناس مُختلفة

حتّى اللُغة مُختلفة

وبرغم كُلّ هذا الاختلاف تآلفت القلوب،

فهل يُمكن أنْ يفعلها الحُبّ؟

ظلّ السؤال حائرًا بلا جواب.

الفصل التاسع

- ألم يحن الوقتُ بعد؟

نطقَ بها (هيفايستيون) وهو يقف خلف (الإسكندر)، الذي يُوليهِ ظهره ولم يشعر حتّى باقترابه؛ إذ كان شاردًا ينظر إلى الرمال والصحراء الشاسعة بلا هدف، وكأنَّهُ يتمنّى أنْ ينقضي اليوم سريعًا، ليعودَ لنفس الزمن، لتعود لهُ حياته، هُناكَ بينَ ذراعيها، أخرجهُ من شرودهِ صوت صديقه، فالتفت إليهِ وابتسم، وسألهُ.

- أيُّ وقتٍ بالضبط؟

تنّهد (هيفايستيون)، وأجابَ بنفاذ صبر.

- وقت كُلّ شيء، انتهاء هذهِ المغامرة المحفوفة بالمخاطر، وكذا وقت العودة، فهُناكَ أعمال كبيرة في انتظارك هناك.

- هل نسيت المدينة المزمع بناؤها هُنا على شاطئ البحر الأوسط، هل تخليت عن حلمك القديم؟

اقتربَ من (الإسكندر) ووضع يدهُ اليُسرى على كتفهِ الأيسر، وهو يواجهه وتابع.

- أفِق يا صديقي، أفِق من هذهِ السكرة، لقد تخليت تمامًا عن أحلامكَ فور رؤيتكَ لتلكَ الفتاة، قد سلبتكَ حياتك وقلبك، وكذا، وهُنا صمت قليلًا، واستدركَ وهو ينظر للأرض.

- وأخشى أنْ تسلبكَ عقلك!

أخذَ (الإسكندر) ينصت لهُ دونَ أنْ تظهر على ملامحهِ أيّة انفعالات، وأخيرًا مدّ يدهُ وأمسك ذقن صديقه ورفع رأسه، وهو يرسم ابتسامة حانية على وجهه، وقالَ بهدوء.

- وهل تعلم عن (الإسكندر) هذا الذي ذكرت؟

- وهل أنا من الشخصيات التي تتخلّى عن أحلامها لأيّ سببٍ كان؟

- لا يا صديقي، سوف نرحل غدًا إلى البقعة، التي قمت باختيارها مع المهندس (دينوقراطيس).

وصمت قليلًا وهو يتقدم من فتحة خيمته، وأمسك بحافتها وقال.

- ولكنْ وهي معي؛ إذ هي زوجتي التي لن أتخلّى عنها أبدًا.

اتسعتْ عينا (هيفايستيون) في ذُعرٍ ودهشة، وردد الكلمة دونَ وعي.

- زوجتك!!!

- كيفَ ومتى؟

استدارَ لهُ (الإسكندر) ليُواجهه، وتابعَ بحزم.

- مُنذُ هذهِ اللحظة يا صديقي.

وتابعَ والحزم يُغلّف كلماته.

- هيّا، ليسَ لدينا وقت الآن لأيّ كلامٍ آخر، أعطي الأوامر للقوات بالاستعداد للتحرّك معَ أوّل خيوط الفجر.

كانَ (هيفايستيون) يستمع لكلمات (الإسكندر) ولا يجد ما يقوله، فالدهشة كانتْ تُسيطر عليهِ تمامًا، وغمغمَ بخفوتٍ.

- ولكنْ....

قاطعهُ (الإسكندر).

- ليسَ هُناكَ لكنْ، هيّا اذهب لتنفيذ الأوامر.

أمسكَ (هيفايستيون) بطرف ردائه، وانصرفَ مسرعًا لتنفيذ الأوامر كاظمًا غيظه، تاركًا الأخير خلفه، صامتًا يسرح بخيالهِ شارد الذهن مرّة أُخرى، ينظر للصحراء برمالها الذهبية، يقف بجسدهِ هُنا، لكنَّ عقلهُ وقلبه هُناك.. في المعبد.

****

كانتْ الشّمس تميل نحو الغروب، فتلوّن الأفق بأصباغ وكأنّها مصنوعة من ذهبٍ ونار، والبحر الممتد أمامهما بلونهِ الفضي يلمع، كأنَّهُ مرآة عظيمة تعكس ملامح السماء، والأمواج تتلاحق وكأنها فى سباقٍ محموم للوصولِ إلى البر، تترك آثارها ثُمَّ تُمحى للأبد!

وقفَ (الإسكندر) متأملًا المشهد بعينين متقدة بالحماسة والنشاط، كانَ فكرهُ دائمًا ما يسبق أقرانه، قلما يتوقف عقله عن التفكير والابتكار، يُعمل عقلهُ دائمًا فإمَّا بفكرة جديدة أو مجد لم يُبنَ بعد، وقفَ المهندس (دينوقراطيس) إلى جواره، هذا الذي عُرف ببراعتهِ وجُرأتهِ في البناء، وقد وضعَ بينَ يدي الملك الشاب أحلامًا على هيئة رسومات، وخطوط لم تولد بعد إلى الواقع، رفعَ (الإسكندر) ذراعه مُشيرًا إلى البحر أمامه، وقالَ بصوتٍ يمزج بينَ العزم والحلم.

- هُنا ستكون المدينة التي سيتحدّث العالم عنها بعد ألف عام، كما يتحدّث اليوم عن طيبة وأثينا، مدينة تليق بأنْ تكونَ همزة الوصل بينَ الشرق والغرب، وأنْ تجمع تحت سمائها علوم مصر القديمة، وفنون الإغريق وفلسفة آبائنا وأجدادنا.

أومأ (دينوقراطيس) برأسه، ثُمَّ خطى إلى الأمام حتّى كادت قدماهُ تلامس حافة الماء، وقال.

- المهمة عسيرة يا مولاي، لكنَّها ليست مستحيلة، جزيرة (فاروس) هناك، قريبة من هذا الساحل، تبدو كقلعةٍ رابضة في عرض البحر، إنْ نجحنا

واستطعنا ردم البحر وصنعنا جسرًا من اليابسة يربطها بقرية (راقودة)، صار لدينا ميناء مزدوج، شرقي وغربي، يحميهِ البر من جانب والجُزر من جانب آخر.

وصمت قليلًا ليلتقط أنفاسه التي تهدجت من فرط الحماس، وتابع.

- سيكون أعظم ميناء على شاطئ البحر كُلّه.

ابتسمَ (الإسكندر) وعيناهُ لا تفارقانِ الأُفق.

- كأنّي أراهُ يا (دينوقراطيس)، أرى الشوارع مرسومة على هيئة رقعة شطرنج، مستقيمة ومتقاطعة، يسهل فيها السير وتنتشر فيها الحركة.

أرى المساكن منتظمة على جانبي الطرق، وأرى المعابد والميادين والقصور، وأرى هناك مكتبة عظيمة تضم علوم البشر مُنذُ بدء الخليقة.

أرى ميناءً مزدوجًا كما قلت، تدخل إليهِ السُفن من كل مكان، فتخرج محمّلة بخيرات مصر إلى العالم، وتعود ممتلئة بالعلوم والمعرفة التى تُنير عقل الإنسان ،نظرَ (دينوقراطيس) إلى (الإسكندر) بدهشةٍ وإعجاب، وقال.

- تخيلك يا مولاي يتجاوز قدرة المهندسين على الرسم، عادةً ما نرسم ثُمَّ يحلم الملوك بما نرسمه، أمَّا أنتَ فترسم في الخيال وتدعنا نركض وراءه لنلحق به.

- لكنْ ليكن لكَ ما تُريد، سأقيم الردم بالحجارة الضخمة التي ستُجلب من المحاجر القريبة، وسأستخدم الخشب والطين لتثبيت البنية حتّى يقوم الممر من الشاطئ إلى الجزيرة، حينها تُصبح فاروس جزءًا من المدينة، كأنَّ البحر لم يكن يومًا حاجزًا بل كانَ طريقًا للوصل.

تنّهد (الإسكندر) بعُمق، وهو سارح بخيالهِ ينظر إلى البحر، وكأنَّهُ يمدّهُ بزاد الرؤيا، ثُمَّ قال.

- أُريد لهذهِ المدينة أنْ تكون وجه الإمبراطورية، مرآتها ومجدها، أُريدها أنْ تجمع بينَ حضارتين عظيمتين، مصر العريقة التي صمدت آلاف السنين، واليونان التي علّمت العالم معنى الفكر والفن، هُنا في (الإسكندريّة)، كما سأدعها تُدعى، سيولد عصر جديد.

خيّم الصمت بعد العبارة الأخيرة، لا يعلو إلّا صوت الموج الذي يتكسّر عند أقدامهما، والنسيم يحمل رائحة البحر الممزوجة برائحة اليود، كأنَّ الطبيعة نفسها تتهيأ للميلاد الجديد! ،رفع (دينوقراطيس) يديهِ بحماسٍ بالغ، مشيرًا إلى خطوط غير حقيقية في الهواء يرسمها بخياله.

- سنبدأ من هُنا، من قرية (راقودة)، نوسعها ونمدّها، ونشق الطريق نحو (فاروس)، وحينَ يكتمل الردم، نُقيم على رأس الجزيرة منارة عظيمة، نارها لا تنطفئ، تهدي السُفن في ليل البحر وظُلمته. ستكون منارة فاروس، معجزة تبقى ما بقيت هذهِ المدينة.

أشرقَ وجه (الإسكندر)، وقالَ بصوتٍ متهدج من أثر الانفعال.

- منارة فاروس، لتكن رمزًا لا ينطفئ، نارًا تَهدي لا تَحرق، شاهدة على أنَّ الإنسان قادر أنْ يقهر البحر والظلام معًا، لتكن عين (الإسكندريّة) التي لا تنام.

هُنا أطرق (دينوقراطيس) رأسه احترامًا، وقال.

- سيُقال يومًا إنَّكَ لم تفتح البلاد بسيفك فقط، بل فتحت قلوب الناس بعمرانك، وإنَّكَ لم تكن فاتحًا وحسب، بل بانيًا يزرع الخلود في الحجر، وكما

فعل المصريون قديمًا، سوفَ تُقيم أنتَ أيضًا حضارة، لا يَقوى الزمان على مَحوها.

ابتسمَ (الإسكندر) ابتسامة هادئة، ثُمَّ مدّ يدهُ وأمسك بكتفي المهندس، وقال.

- لنكتب على هذا الشاطئ بداية قصة يعرفها العالم بأسره، وليكن البحر شاهدًا أنّنا غيّرنا مجرى التاريخ.

وأشارَ لهُ بضربة خفيفة من راحته على كتفهِ الأيسر علامة أنْ ينصرف، وبالفعلِ أسرعَ (دينوقراطيس) بالابتعاد منحنيًا في وقار، ووقفَ (الإسكندر) وحيدًا ينظر للبحر ويبتسم.

ولكنْ سرعان ما عادَ إلى خيمته، التي أصرَ على أنْ توضع قُرب البحر مباشرة، وأزاحَ خصاصها؛ ليسمحَ بنور الشّمس أنْ يدخل، ويُلقي أشّعته على الفراش الوثير، والجسد البضّ المُستلقي شبه عاريًا عليهِ، جسد (ميريت-نيت).. حبيبته وزوجته، والتي تحركت في نفس اللحظة تقريبًا، لينحصر الغطاء عن بطنها المُنتفخ.

الفصل العاشر

خيّمَ صمتٌ ثقيل على أرجاء الخيمة، هدوء ثقيل لا يقطعهُ سوى أنفاس متقطعة تخرج من صدر (ميريت-نيت)، وهي مُستلقية على وسائد مَحشوة بريشِ أحد الطيور، بشرتها الخمريّة المائلة للحُمرة، قد أشرقت بحُمرةٍ أكبر دليل يشي بقرب ولادتها، بينما القلق يكسو عيناها الفيروزيتين، ولم تستطع إخفاءه، حاولت الاعتدال قليلًا حينَ دخل (الإسكندر) بخطواتٍ ثابتة، كانتْ صورته في الزيّ العسكري تبعث على الرهبة، عباءته الأرجوانية تنسدل وراءه، ودرعه يعكس بريق المشاعل الموزعة في أركان الخيمة، لكنَّهُ حينَ وقع بصره عليها تلطف وجهه، وتبدلت صلابته إلى حنانٍ جارف، اقتربَ منها وجلسَ إلى جوارها، ممسكًا يدها التي ارتجفت بينَ كفيه، قالت بصوتٍ خافت متقطع، وقد غلبَ الحُزن على نبرته، وبدا عليهِ الضعف الشديد.

- أشعر بخوفٍ لا أعلم سببه يا مولاي، قلبي يضطرب كطائرٍ حبيس.
- كأنَّ ظلًا يُطاردني في كُلّ مكانٍ ولا أراه، أشعر أنَّ شيئًا غامضًا يقترب، وأني سأفقدك إلى الأبد.
- كيفَ أطيق ذلكَ وأنا على وشك أنْ أضع ثمرة حُبنا؟

أطرق الإسكندر رأسه لحظة ثُمَّ رفع عينيه إلى عينيها، كانتا كبحرٍ هائج من كثرة مياهه يبحث عن ميناء! ،شدّ على يدها قائلًا.

- (ميريت-نيت)، يا زهرة (آمون) وضياء معابده، لست أخفيكِ سرًّا أنَّ طريقي إلى الشرق محفوف بالخطر، فالفُرس لن يقبلوا بالهزيمة ولن يستسلموا إلَّا بعد أنْ أضع قدمي فوق رؤوسهم، وأُحكم قبضتي على ممالكهم، لكنَّكِ ستبقينَ هُنا في مأمن، لن يمسسكِ سوء، لقد اخترتُ لكِ مَن هو عندي أعزّ

الرجال، وأشدّهم إخلاصًا(بريتوس)، صديقي وركيزة جيشي، سيكون ظلك ودرعك، وأوصيه أنْ يحميكِ بروحهِ، كما لو كانَ يحمي مُلكه.

هزّت رأسها والدمع يلمع في مقلتيها، وقالت بحدّةٍ لم يعهدها منها.

- وهل يطمئن قلبي أنْ أعيش في ظل غيرك؟

- أنت قوتي وسندي، أخشى أنْ يطول الغياب، أخشى أنْ يثقلني الخوف، فلا أقوى على حمل جنينك حتّى يولد، أُريدكَ بجانبي ساعة وضعه، أُريدهُ أنْ يرى نور الحياة على يديك لا على غيابك.

اقتربَ منها أكثر حتّى كادت أنفاسه تختلط بأنفاسها، مسح دمعتها بأصابعه، وقال بصوتٍ يفيض بالحنان.

- يا حبيبتي، إنْ كان لي أنْ أختار بينَ العرش وبينكِ لاخترتكِ أنتِ، لكنَّ القدر ساقني لأحمل هذين معًا، عرشي وقلبي.

قالها وهو يُشير بيدهِ إليها دلالة أنَّها تُمثّل قلبه، وتابعَ بهدوء.

- وكُلّ ما أرجوهُ أنْ تتحلّي بالصبر حتّى أعود، فأحملكِ بينَ ذراعي وأحمل طفلنا معكِ، صدقيني يا (ميريت-نيت) يا مُنية القلب وفؤاده، سأعود، سأعود كما يعود النسر إلى عُشّه مهما ابتعد.

أطرقت عينيها ووضعت يدها المرتعشة على صدره، وهمست.

- لا تخدعني بالوعود، قلبي يُحدّثني أنَّ الرحيل يختلف هذهِ المرّة، أنَّ خطواتك إلى الشرق لن تُعيدكَ إلى الغرب، إنّني أراكَ كالنجمِ الذي يلمع بقوة قبلَ أنْ يخبو في الأُفق!

قالتها وانهمرَ دمعها كشلالِ نهرٍ وجدَ المفيض، قبّل جبينها طويلًا، ثُمَّ نهض واقفًا في جلالٍ وبهاء، التفت فإذا (بريتوس) يقف أمام باب الخيمة في وقارٍ منكس الرأس؛ كي لا ينتهك حُرمة الخيمة بنظراتهِ دونَ قصد، جسده الممشوق يكسوه الدرع البراق، وعيناه تتقدان بولاءٍ صامت لا يحتاج إلى برهان، مدَّ (الإسكندر) يدهُ ووضعها بثباتٍ على كتفهِ، وقالَ بصوتٍ يختلط فيهِ الأمر بالرجاء.

- أوصيك بها يا (بريتوس)، هي وطفلي الذي لم يُولد بعد، اجعل حياتك فداءً لهما، كما لو أنَّكَ تحرس تاجي ودمائي معًا.

انحنى (بريتوس) حتّى لامست رُكبتيهِ الأرض، وضرب صدره بقبضتهِ قائلًا.

- أُقسم بروحي أنْ لا يمسها سوء ما حييت، دّمائي قبلَ دماها، روحي قبلَ روحها، هي بنفسي وما أملك.

ربتَ (الإسكندر) على كتفهِ ضاغطًا عليه، علامةً على الثقة، وخرج خارج الخيمة مُسرعًا، حينَ خرج (الإسكندر).

كانَ الليل قد بدأ يذوب في خيوط الفجر الأولى، والهواء يحمل رائحة البحر، ورنين النواقيس البعيدة التي تدعو الجنود للاستعداد، امتطى جواده الأبيض (بوسيفالوس)، فاشتعلت الهتافات في كُلّ مكانٍ من حناجر جُنده، وضعَ خوذتهُ المدنية على رأسه، ارتفع الريش الأحمر فوقها تُحرّكهُ الرياح، وعباءته الأرجوانية رفرفت خلفه، كرايةِ قدرٍ محتوم للأرض التي يطأها بقدميه، تقدم جيشه المهيب، فاهتزت الأرض تحت وقع الحوافر، كأنّها تعلن رحيل الأسطورة نحو الشرق.

وهُناكَ من خلف خصاص الخيمة، كانت (ميريت-نيت) تُتابعهُ بعينينِ دامعتين، وضعت يدها على بطنها المنتفخ تستشعر نبض الجنين، وانحدرت دمعة ساخنة على وجنتها، وهي تهمس لنفسها.

- لن أراهُ مرّةً أُخرى، لقد أخذتهُ الآلهة إلى قدرٍ بعيدٍ عنّي.

ظلت واقفة هناك، بينَ مشاعرٍ مُختلطة من خوفها وحنينها، تُراقب الفجر يبتلع آخر ما تبّقى لها من ظِلّه.

حتّى اختفت السحابة، التي خلّفتها قواته بسنابك خيولها في الأُفق، لتعلن أنَّهُ قد ذهب.. وإلى الأبد.

الفصل الحادي عشر

في قلب الهند وبينَ غاباتها وسهولها تقبع الخيمة الملكيّة؛ إذ تشتدّ الحرارة بطريقةٍ لا تُحتمل، والهواء مُشبع برطوبة الغابة الثقيلة، كانَ جسد (الإسكندر) ينهشهُ المرض كما ينهش الذئب اللحم الطري، يغمر عرقهُ وجهه الشاحب، ويمتزج بالدمع الذي لم يراهُ أحدٌ من رجالهِ من قبل، عيناهُ نصف مغمضتين، ولكنهما تبرقان بلمعةٍ غريبة، لمعة الحنين والاحتضار معًا، كانتْ الحُمّى تشتعل في جسدهِ كَنارٍ مُستعرة لا تنطفئ، فيئن تارة ويهذي تارةً أُخرى، وصوت أنفاسه يعلو ويهبط كصوتِ بحرٍ غاضب، وفجأة انطلقت من بين شفتيهِ الجافتين كلمة واحدة، تكررت كأنّها صلاة مُقدسة.

- ميريت-نيت.

يُناديها كأنَّهُ يُريد أنْ يطوي الزمان والمكان ليكونَ إلى جوارها، يمدّ يدهُ المرتجفة في الفراغ كأنَّهُ يلمس ملامحها، أو يبحث عن دفء بشرتها، التي طالما سكنت قلبه وعقله وروحه.

وفي ذات اللحظة هُناكَ في مصر البعيدة، داخل خيمة ملكيّة أُخرى كبيرة، مُضاءة بالمشاعل في الصحراء الغربية، بينَ واحة سيوة وساحل البحر المتوسط، كانتْ (ميريت-نيت) تصرخ من ألم المخاض، جسدها يعتصر من الألم كما لو أنَّ الأرض كلّها تتزلزل تحتها، وعرقها يتصبب على جبينها الخمري، والدمع ينحدر من عينيها الفيروزيتين، تقبض بيديها على أطراف الفراش، وتضغط بأصابعها كأنّها تتشبث بالحياة!

وكلما زادت آلامها، كانَ اسم (الإسكندر) يخرج من بين شهقاتها، وكأنَّهُ كلمة سحرية تخفف بها آلامها وتقاوم بها الموت، وتستحضر بها روح الحبيب!

كانتْ تسمع صوتًا غامضًا، همسًا يهمس لها أنَّ هذهِ اللحظة مُرتبطة بلحظةٍ أُخرى بعيدة، أنَّ قلبها يخفق مع قلبهِ حتّى وإنْ فصل بينهما البحر والجبال.

(الإسكندر) على فراشهِ يُصارع الحُمّى، ينهض فجأة رغم ضعفه، جسده يترنح ولكنَّهُ يستجمع ما تبّقى لهُ من قوة، يُحاول النهوض وكأنَّ شيئًا ما يُناديهِ في أعماق روحه، يهتف وهو يرفع صوته الذي صارَ مسموعًا بالكاد.

- ميريت-نيت، أنا آتٍ إليكِ، اصبري.

يسحب جسده من الفراش، قدماه تخونانه، خطواته تتعثر كأنَّ الأرض ترفض أنْ تحمله، يسقط على ركبتيه، ويداه ترتجفان كجناحين مكسورين، لكنَّهُ يُحاول من جديد، يُصر على الذهاب إليها ولو حبوًا، أسرعَ (هيفايستيون)، صديقه الأقرب، يندفع نحوه، يلتقطهُ قبلَ أنْ يهوي أرضًا بلا وعي، يُمسك بهِ بينَ ذراعيهِ كما لو كانَ طفلاً ضائعًا، وصوته يرتجف وهو يهمس.

- اهدأ يا مولاي، لا تُجهد نفسك، لن تصل، دعني أحملك.

لكنَّ (الإسكندر) يصرخ صرخة أشبه بصرخة عاشق، لا بصرخة ملك.

- لاااااا، يجب أنْ أكونَ معها..(ميريت-نيت) إنّها وحدها، إنّها تصرخ باسمي الآن.

على الجانب الآخر في مصر، في اللحظة نفسها، (ميريت-نيت) ترفع نصفها العُلوي ويتقوس ظهرها من الألم، تصرخ باسمه.

- (اليكسندروس)، أينَ أنت؟

- لا تغب عنّي.

وكأنَّ بينَ صرخاتهما خيطًا أزليًا يربط بينَ قلبين عبر الزمن والمكان، فيرتجف (الإسكندر) وهو يسمع النداء، الذي لم يسمعهُ أحدٌ غيره، يفتح عَينيهِ لحظة قصيرة، يرى خيالات غامضة، كأنّها صورة وجهها، وابتسامتها، ودمعتها!

(هيفايستيون) يُحاول إعادتهِ إلى الفراش، لكنَّهُ يُقاوم حتّى النهاية، يضع يدهُ المرتجفة على صدر صديقه، كأنَّهُ يودعهُ هو الآخر، ثُمَّ يلفظ اسمها بصوتٍ خافت، يختلط بصوت الرياح الحارّة التي تزأر خارج الخيمة.

- ميريت-نيت.

وتهدأ أنفاسه فجأة، ويعمّ الصمت الخيمة إلَّا من شهقة الرجال، الذين أدركوا أنَّ ملكهم العظيم قد أسلم روحه.

في ذاتِ اللحظة بصحراء مصر تحديدًا، يتعالى صراخ طفل من رحم (ميريت-نيت)، صراخ شق سكون الليل، قاطع للصمت المحيق، يهز الخيمة كأنَّهُ إعلان ميلاد ووداع في آنٍ واحد.

سقطت (ميريت-نيت) مغشيًا عليها، دمعها الممزوج بالعرق والدّم ينحدر على وجنتيها، ولسانها ينطق الكلمة الأخيرة قبلَ أنْ يغيبَ وعيها.

- (اليكسندروس).

كأنّها تشعر أنَّ روح الحبيب عبرت إليها في صرخة الطفل، وأنَّ الميلاد ارتبط بالموت كما يلي الفجر الليل، تعالت أصوات النساء من حولها بينَ بكاء وصراخ فرح، أمَّا الطفل فقد بكى بقوة، وكأنَّهُ يُعلن للعالم أنَّ دّم (الإسكندر) ما زالَ حيًا، وأنَّ الحُبّ الذي جمع بينَ مُحاربٍ عظيم، وفتاةٍ من معبد(أمون) سيظل خالدًا، يتردد صداهُ بينَ معابد الآلهة وأصداء التاريخ.

تقدم (بريتوس) وحمل الطفل، ودثرهُ في قمطةٍ حمراء ملكيّة، مصنوعة من حرير الهند غالي الثمن، وخرج بهِ خارج الخيمة، ورفعهُ عاليًا فسجدَ كُلّ الموجودين من خدمٍ وقوات الحماية، أمَّا هو فقد رفعَ عقيرتهُ وصرخَ قائلًا.

- إنَّهُ ابن (الإسكندر)، إنَّهُ ملك الأرض الجديد، مَن سيرثها بمَن عليها.

وتعالت الهتافات من الجموع، أنزل (بريتوس) الطفل، وأخذَ ينظر لهُ، وقالَ لهُ وكأنَّهُ يُحدّثه.

- مولاي وسيدي وابن سيدي، المجدُ لكَ ولأبيكَ (الإسكندر).

ورفعهُ مرّةً أُخرى لأعلى، وهتف.

- اسجدوا لملككم الجديد،
- اسجدو(لفلوباتير الكسندروس)، وتعالت الهتافات مرّةً أُخرى.

الفصل الثاني عشر

كانَ البحر يموج بغضبٍ في الأُفق، والريح تزأر، وتدفع السُفن الضخمة المُحمّلة بالغنائم والجنود العائدين من الشرق، لكنْ على مقدمة السفينة الملكيّة، الصمت يلف المشهد، هُناكَ حيثُ يستقر التابوت المصنوع من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، ويحمل مجسد من الرخام صُنعَ بدقة، يُمثل جسد الراقد بداخلهِ بكُلِّ تفاصيله، حتّى سقوط يده اليُمنى خارج غطاء التابوت، فيُخيّل إليكَ أنَّ التمثال قد يرفع يدهُ في أيّة لحظة؛ دلالة على شدّة الإتقان.

ولِمَ لا وهو يضم بينَ جنباتهِ جسد (الإسكندر)، الرجل الذي غزا نصف العالم وسجدت لهُ الشعوب، لكنَّهُ الآن راقد كالنائم، تحرسهُ دموع رفاقه وصمت جنوده.

(بطليموس)، القائد الذي كانَ شاهدًا على انتصاراته وأحلامه، يقف كتمثالٍ من الرخام بلا حراك، يُحدّق في الأُفق الذي هو باتجاه مصر؛ حيثُ المثوى الأخير للإسكندر، الذي عشقهُ بقدر ما عشق الشرق والغرب، وبداية اِمبراطوريته التي لم يشهدها للأسف، والذي أرادَ أنْ يجعلَ منهُ تاجًا خالدًا على رأس العالم.

حملَ (بطليموس) بصدرهِ عاصفة، تجمع بينَ الوفاءِ للملك الذي صار أسطورة، والطموح الذي بدأ ينهش قلبه، طموح أنْ يضع هو التاج على رأسه، وأنْ يُصبحَ سيّد مصر الجديدة، التي صاغ (الإسكندر) خطوطها الأولى.

كُلّ موجة تدفع السفينة أقرب إلى شواطئ الإسكندرية، كانتْ تقرّب (بطليموس) أكثر من لحظة المصير، لحظة إعلان نفسه وريثًا، حاميًا للجسد الذي سيصبح رمزًا أبديًا للحُكم والشرعية.

وعندما رست السفن على شاطئ المدينة الوليدة، كانتْ الإسكندرية قد بدأت تظهر ملامحها، مدينة من الأحلام، رسم (الإسكندر) خطوطها على الرمال بيده، فصارت حقيقة تنبض بالحياة.

من الشرق، ارتفعت الأسوار الجديدة، تُحيط بالمدينة كذراعين يحتضنانها، ومن الغرب، بدت المرافئ مُمتدة تستقبل السفن التجارية والعسكرية.

وفي قلب البحر، امتدت الرمال والصخور العظيمة، التى ربطت بينَ جزيرة (فاروس) وقرية (راقودة) كطريقٍ شبه مُمهد، هُناكَ حيثُ تخيّل (الإسكندر) جسرًا يُعانق الموج؛ ليكونَ قلب الميناء الأعظم في العالم.

على تلكَ الأرض الصخرية، بدأت الأعمدة ترتفع، والطرقات تنظم في خطوطٍ مستقيمة، كأنّها مرسومة بيدِ الآلهة أنفسهم لا بيد بشر.

وفي قلب المدينة، ارتفع البناء الضخم الشامخ، الذي أعدّهُ (الإسكندر) ليكون قصره الملكي، قصرًا من الرخام الأبيض المزخرف بالنقوش الذهبية، تطل شرفاته على البحر من جهة، وعلى شوارع المدينة من جهةٍ أُخرى.

لكنَّ هذا القصر لم يسكنهُ الملك الحيّ، بل صارَ قصر الأرملة المصريّة التي عشقها (الإسكندر)، (ميريت-نيت) وابنه الرضيع الذي أنجبها إيَّاه، ابن الدّم الملكي الذي كانَ من المُمكن أنْ يكونَ ملكًا لمستقبل مصر والإمبراطورية، تلكَ المرأة وابنها هما العقبة الوحيدة في طريق حلمه.

ما إنْ وطئت قدما (بطليموس) أرض الإسكندرية، حتّى أسرعَ إلى القصر وقام باستدعاء (بريتوس)، القائد الذي تركهُ الإسكندر حاميًا لميريت-نيت ورضيعها، وبمُجرّد أنْ وقفَ أمامهُ تقدم منه، وهو ينظر لهُ في عينيهِ، وقال.

- لقد رحلَ القائد العظيم (الإسكندر).

اتسعت عينا (بريتوس) في ذُعرٍ ممزوجٍ بحزن، ولكنَّهُ لم يُمهلهُ الفرصة ليفرغ عواطفه وانفعالاته، فربتَ على كتفهِ الأيسر بيدهِ اليُمنى، وتابع.

- أينَ المصريّة وابنها؟

- أُريدكَ أنْ تُحضرها إلى هُنا، لأشبع عيني منها ومن ابن صديق عمري.

- أُريدُ أنْ أراها بعيني، أنْ ألمس سرّ (الإسكندر) الذي هامَ بها، حتّى جعلهُ يترك وصاياهُ كلّها لها.

لكنَّ (بريتوس) الذي أقسمَ على حماية الأرملة والطفل، ارتابَ في نوايا (بطليموس)، رأى في عَينيهِ شيئًا مُظلمًا لم يعرفهُ من قبل، شيئًا يتجاوز الوفاء للملك إلى طموح شخصي ينهش قلبه.

وهُناكَ في القصر، كانتْ (ميريت-نيت) تجلس على أريكة مرمريّة، تحمل طفلها الملفوف بوشاحٍ أبيض، وعيناها الفيروزية تحملُ خوفًا لا تهدأ جذوته، تشعر أنَّ الخطر يقترب، تشعر أنَّ هُناكَ مكروه قد طال (الإسكندر)، وأنَّ شيئًا رهيبًا يوشك أنْ يحدُث.

قطعَ شرودها (بريتوس)، الذي دخل مُسرعًا يلهث من المجهود، تتلاحق أنفاسه، وركع أمامها قائلًا بصوتٍ متقطع.

- مولاتي، لا وقتَ لدينا، لقد ماتَ سيدي (الإسكندر).

ارتمت على الأريكة بعدما انتهى من عبارته، شعرت وكأنَّ خنجرًا مشحوذًا قد غُرس بصدرها، واخترق قلبها!، وبرغم أنَّ حدسها أخبرها بهذا الأمر مُنذُ فترة، إلَّا أنْ وقع الكلمات على أُذنها كانَ لهُ أثرٌ قاتل، اقتربَ منها (بريتوس)، ركعَ أمامها وأمسكَ بيدها، وقالَ والدمع يُغرّق عينيه.

- (بطليموس) يُريدكِ، لكنَّ نواياهُ ليستْ نوايا مُخلص (للإسكندر).. يجب أنْ نُغادر الآن.

ارتجفت (ميريت-نيت)، وضمّت طفلها إلى صدرها، قلبها يخفق بشدّة من بين ضلوعها، سألتهُ بارتباك.

- إلى أينَ؟

- كيفَ نخرج من هذا القصر الذي بناهُ الإسكندر لنا؟

أجابها (بريتوس) والحُزن يرتسم على ملامحهِ أكثر.

- إلى الصحراء، إلى أيّ مكانٍ بعيدًا عن عينيه، سيدي (الإسكندر) أوصاني بحمايتكِ وابنه، وسأفعل ولو كانَ الثمن حياتي.

وبسرعه غطّت (ميريت-نيت) طفلها بوشاحٍ قُرمزي، وأخفت ملامحه، ثُمَّ تبعتهُ مسرعة، حافية القدمين، تاركةً خلفها كُلّ شيء، القصر، الذهب، الحرس، وقد تركت العنان لعيناها فأخذتا تذرفان وهي تضمّ رضيعها بكُلِّ قوتها، وكأنّها تضمّ (الإسكندر) ذاته لتحميهُ وتحتمي بهِ من الغدر!، هرولت عبر الممرات المظلمة للقصر، ثُمَّ عبر الأزقة الضيقة للمدينة الوليدة، والنار تتقد في صدرها خوفًا ورجاءً، بينما (بريتوس) يقودها، يصد الحراس، يفتح لها الطريق، وصوت خطوات الجنود يتعالى خلفهما، لكنَّ القدر كانَ أسرع، فما إنْ وصلا إلى مشارف المدينة، حتّى أحاط بهما جنود (بطليموس).

وقفَ (بطليموس) بنفسه، شاهرًا سيفهُ الذي يتلألأ تحت ضوء المشاعل، وعينيه جمرتان تشتعلان غضبًا، قالَ بصوتٍ كهزيم الرعد.

- أينَ هي؟

- أينَ ابن الإسكندر؟

وقفَ (بريتوس) أمامهُ شامخًا، جسده حائط يحجب (ميريت-نيت) ورضيعها، التي ساعدهُ الظلام على إخفائها عن أعيُن (بطليموس)، وقالَ بصوتٍ ثابت وبدون خوف.

- لن تنالها وأنا حيّ.

لم يتردد (بطليموس)، اندفع بسيفهِ فضرب (بريتوس) ضربة قاضية اخترقت صدره، فتدفق الدّم كالشلال، وسقط القائد الوفي على الأرض، عيناهُ تلمعانِ بنورِ الوفاء الأخير، وشفتيهِ تُتمتمان.

- مولاتي، اهربي.

وخفت بريق عينيه إلى الأبد، صرخت (ميريت-نيت) صرخة فزعٍ هزّت الليل، وأسرعت حافية القدمين تحمل رضيعها، وشعرها الأسود الفاحم يتطاير خلفها، وكأنَّهُ أشباح تُحاول اللحاق بها!، بينما الجنود يُطاردونها، لكنَّ ظلام الصحراء احتضنها، وكأنَّ أرض مصر تُدرك أنّها ليستْ بغريبةٍ عنها، فقامت بحمايتها، اختفت كطيفٍ بينَ الممرات المظلمة للمدينة الوليدة، ولم يجرؤ أحد أنْ يلمسها في تلك اللحظة، كأنَّ يد الآلهة قد أخفتها عن عيون الجنود.

وقفَ (بطليموس) فوق جسد (بريتوس)، سيفه يقطر دمًا، عيناهُ مشتعلة بنيران الحقد، وصوته يتفجر غضبًا، يصرخ.

- مهما حاولتِ الهرب سوف أجدكِ، أنا ملك هذهِ الأرض الآن.

ورفع رأسهُ نحو السماء، كأنَّهُ يُخاطب الآلهة، ثُمَّ التفت إلى قادته، وأمرَّ بصوتٍ صارخ كبركانٍ يُلقي بحُممه.

- أصدر أوامر في ربوع مصر، اقتلوا كُلّ رضيعٍ دونَ العامين، لا أُريدُ لهذا الدّم أنْ يظلّ حيًا، لا أُريدُ لظلّ (الإسكندر) أنْ يُطاردني.

تعالت صيحات الجنود، وانتشرت الأوامر في كُلّ أرجاء مصر.

أمَّا (بطليموس)، فوقف وحدهُ فوق جثة (بريتوس)، يتقافز الشرر من عينيه، كأنَّهُ نار تشتعل ولا تنطفئ، كلهيبِ جحيمٍ يلتهم روحه، يصرخ مرّة بعد أُخرى، والليل يُردد صداه.

- لن ينجو، لن ينجو أحد.

قالها وقد أعطى الإذن أنْ تسيل الدّماء على أرض مصر؛ لتُغرّق شوارعها وطُرقاتها، ويعلو النواح والنحيب في كُلّ بيتٍ من بيوتات أهلها، للمرّة الثانية في تاريخها، ولكنّها ليستْ الأخيرة في التاريخ.

الفصل الثالث عشر

كانتْ الرمال تلفح وجهها كالسياط، والريح تعصف بشعرها الأسود المتناثر، وتجعلهُ يتطاير في كُلّ اتجاه، بينما قدميها الحافيتين قد غطتهما الدّماء، والرمال الملتهبة دونَ رحمة، فكُلّ خطوة كانتْ تنغرز فيهما الأشواك والحصى، فتسيل منهما الدّماء وتختلط بتراب الصحراء القاحلة.

(ميريت-نيت)، الكاهنة التي كانتْ يومًا ما رمزًا للطُهر والقداسة، صارت الآن طريدة الليل والصحراء القاحلة، تحمل على ذراعها رضيعًا يصرخ من شدّة الجوع والعطش، بينما صدرها قد جفَّ تمامًا، لا لبن ولا قوة، لا سوى دمعها الذي انحدرَ على وجنتيها، كجدولٍ مالحٍ يحرق جرح الروح قبلَ أنْ يُبلل التراب.

رفعت رأسها إلى السماء، والنجوم ترمش بذبولٍ كأنّها لا ترى، ومدّت يدها المرتجفة إلى السماء، وهي تُناجي.

- يا (آمون) العظيم، يا سيد كُلّ شيء، لقد كنتُ كاهنتك، خادمة مذبحك، صوتكَ في الترانيم، لماذا تركتني الآن؟
- أأذنبتُ حينَ خفقَ قلبي بالحُبِّ لرجل؟
- أنَجسَ جسدى بحملي دّم (الإسكندر)؟
- سامحني، اغفر لي، لا تتركني وحدي في هذا التيه.

كانتْ كلماتها تخرج همهمات من حلقٍ جاف، وصوتها ينكسر مع كُلّ شهقةٍ لرضيعها، الذي يزداد بكاؤه حِدّة، كأنَّهُ يُطالبها بالحياة، بينما هي لا تملك سوى الموت لتُقدّمهُ لهُ!

تعثرت في الرمال أكثر من مرّة، جثتْ على رُكبتيها، والطفل انزلق قليلًا بينَ ذراعيها، فأمسكتهُ بقوةٍ حتّى كادت تخنقه، ثُمَّ ضمّتهُ إلى صدرها الخالي من اللبن، وهمست في أُذنهِ بصوتٍ يختلط بالدمع.

- لا تبكِ يا صغيري، لو كانَ لي من أمري شيئًا لأرضعتُكَ من دمي، لكنّني فارغة قد جفت كُلّ ينابيعي.

ثُمَّ رفعت رأسها إلى السماء مرّة أُخرى، وكأنّها تستجدي العطف من إلاهها.

- يا (آمون) الرحيم، إنْ كانَ ذنبي عظيمًا، فلا تُعاقب رضيعي، لا تأخذهُ بذنبي.

لكنَّ الصمت كانَ هو سيّد الصحراء، لا مُجيبَ لها سوى صدى أنينها، ولا ماء إلّا السراب الذي يلمع بعيدًا، كبحيرةٍ زجاجيّة تختفي كلما اقتربت!، زحفت قليلًا فوقَ الرمال، وذراعها ترتجفان، والرضيع يصرخ بضعف، ثُمَّ سقطت وفقدت الوعى فجأة، سقط رأسها على الرمال، وجسدها يرتجف كطائرٍ يُطلق أنفاسهُ الأخيرة.

لم يطل الأمر حتّى فتحت عيناها، وقد بدأت الشَّمس تميل نحو الغروب، والسماء تُلونها حُمرة وكأنّها دماء مسفوكة!

رفعت عينيها المرهقتين، وإذ أمامها على مرمى البصر، بدأ لها مبنى ضخم يلمع تحت أشّعة الشَّمس الذابلة، أعمدة عالية شامخة، وأعلام ترفرف، إنّها تعرف هذا المكان جيّدًا، إنَّهُ معبد آمون ذاته، تعالت دقات قلبها وكاد أنْ يقفزَ فرحًا في صدرها، وكأنّها وجدت الخلاص!

جمعت ما تبّقى من قوتها، حملت رضيعها بقوةٍ جديدة غريبة، وبدأت تركض، حافية، مجروحة، دماؤها تتناثر على الرمال خلفها، وهي تصرخ.

- نجّني يا (آمون)، لقد عُدتُ إليك، أعادتني يدُك، أرجوكَ ألّا تتركني الآن.

وصلت إلى أبواب المعبد الضخمة، حيثُ المشاعل المُضيئة، اشتمّت رائحة البخور في الهواء، انتشت، شعرت بالحنين ورأت فتيات المعبد بملابسهنَّ البيضاء خرجنَ مُسرعاتٍ نحوها، صرخنَ وقد رأينَ حالها.

- إنّها (ميريت-نيت).

حاولت إحداهُنَّ أنْ تحمل عنها الرضيع أو تُساعدها على النهوض، لكنَّها توقفت فجأة؛ لظهورِ ذلكَ الظِلّ الأسود الضخم، إنَّهُ كبير الكهنة بنفسه، طويل القامة، يلبس رداءً مزخرفًا بريش الطاووس والذهب، وعيناهُ تقدحان شررًا، وجهه غاضب كأنّما نزل عليهِ سخط الآلهة!

رفعَ يدهُ ليوقف الفتيات، وقالَ بصوتٍ جهوري ارتجت لهُ الجدران.

- تراجعنَ، ابتعدنَ عنها.

توقفت الفتيات مذهولات، همست لهُ إحداهُنَّ تستجديه.

- سيدى، إنّها تحتضر وتحملُ رضيعًا على وشك الموت.

لكنَّهُ تقدم بخطواتٍ ثابتة، ووقفَ أمامَ (ميريت-نيت)، التي جثتْ على رُكبتيها عندَ قدميه، ترفع الرضيع كقربان، وصوتها يتوسل.

- أنقذ رضيعي يا سيدي، أنقذهُ هو على الأقل، هو ابن (الإسكندر)، ابن مَن باركتهُ النُبوءات.

لكنَّ الكاهن الكبير أطلق ضحكة ساخرة ممزوجة بالغضب، ثُمَّ دفعها بقدمهِ فسقطت على الرمال، وانزلقَ الرضيع من ذراعها، وكادَ يسقط لولا أنّها أمسكت بهِ في اللحظة الأخيرة.

صرخَ في وجهها.

- نجسة، دنستِ قُدسية المعبد، خُنتِ عهدكِ معَ الآلهة.

- كيفَ تأتينا بابنٍ من الحرام وتطلبينَ مِنّا البركة؟

قد غمرت دموعها وجهها وهي تزحف نحو قدميه،وقد تلطخت رُكبتيها بالدّماء والرمال، وتقول بصوتٍ مُتحشرج.

- لم أخن، لم أخن إلهي (آمون)، لم يكن رجلًا عاديًا، كانَ اختيار الآلهة، كان الملك الذي باركتهُ النبوءات.

ضربَ الأرض بعصاهُ الغليظة، ثُمَّ صاح.

- التزمي الصمت، لا أسمع حديث نجسة، لقد صرتِ لعنة، ولعنتكِ لن تدخل أبواب هذا المعبد ما حييتِ، اخرجي من هُنا، ثُمَّ رفعَ قدمهُ مرّة أُخرى، وركلها بقوةٍ حتّى سقطت خارج العتبة المُقدسة، جسدها ارتطم بالرمال والحجر، بينما سقطَ رضيعها وانزلق من بينِ ذراعيها لتغمرهُ الرمال.

التف الفتيات حولها وهُنَّ يبكين، لكنَّهُ صرخَ بهنَّ.

- إنْ لم تنصرفنَ الآن لأُخرجكنَّ من المعبد كما أخرجتها!

فتراجعنَ بقلوبٍ دامية، وعيونٍ غارقة في الدموع، وبقيت (ميريت-نيت) مطروحة على الرمال، جسدها متهالك، روحها مُحطمة، ورضيعها يصرخ جوعًا وبكاءً ،مدّت يديها بآخر ما تملك من قوة، والتقطتهُ بينَ ذراعيها، رفعت وجهها المُغطى بالغبار إلى السماء، ودموعها تنهمر أنهارًا، وهمست بصوتٍ مبحوح.

- حتّى أنتَ يا (آمون)؟

- حتّى أنتَ لفظتني؟

ثُمَّ أخذتْ تجرّ جسدها الواهن بعيدًا عن المعبد، تهيم على وجهها في الصحراء مرّة أُخرى، والليل بدأ يسدل ستائره، ونجوم السماء تلمع في سماءٍ صافية، والدموع تُبلل وجهها المُرهق، كأنّها آخر ما تبّقى لها من إنسانيتها، دموع لا تنتهى، لا تجف، كأنَّ قدرها أنْ تبكي حتّى يذوب جسدها مع دموعها في رمال التيه!

تحرّكت كشبحٍ يَهيمُ في الصحراء، تُداعبُ الرياح ما بقيَ من أسمال لا تستر شيءٍ منها، ولكنَّها غطّت وجه رضيعها، الذي صمت من كثرة البكاء الناجم عن الجوع.

الفصل الرابع عشر

أثناء ذلكَ تحولت الصحراء إلى وحشٍ كاسرٍ يتلذّذ بابتلاع الضعفاء، بدأت الرياح تصرخ في كُلّ اتجاه، تحمل معها رمالًا حارقة كالإبر تنغرس في الوجه واليدين والعينين ،السماء اختفت خلف حجابٍ داكنٍ من الغبار الكثيف، لا يُرى منها شّمس ولا قمر، بل غشاوة صفراء تضرب الأُفق وتبتلع كُلّ أثرٍ للاتجاهات.

إنّها عاصفة رمليّة، ضربت هذهِ البقعة بالتحديد، كانتْ هي ما تبّقى لتُحوّل حياة (ميريت-نيت) إلى جحيمٍ حقيقي، تسيرُ وسط هذا الجحيم الرملي، حافية القدمين، تتعثر في كُلّ خطوة، وذراعها تلتفانِ حولَ رضيعها الصغير، الذي لا يملك سوى أنْ يتكئ بجسدهِ الهزيل على صدرها.

كانَ جسدها منهكًا، وقدماها تنزفان من شقوق الرمال الحادّة، وشفتيها قد تشققتا من الجفاف، ورغم ذلكَ لم يكن الألم الأكبر في جسدها، بل في صدرها الجاف؛ حيثُ جفّ اللبن من ثدييها، ولم يعد لديها ما تمنحهُ لرضيعها الباكي سوى الدموع والرجاء.

لفّت الطفل بوشاحها المُهترئ، تُحاول أنْ تحميه من ضربات الرمل العمياء، لكنَّ الصغير صمت فجأة، ذلك الصمت كان أفظع من ألفِ بُكاء، ارتعدت أوصالها، تعالت دقات قلبها حتّى كادَ أنْ يتوقف، رفعتهُ إلى أُذنها المرتجفة، ألصقت صدرهُ الصغير على وجهها، وأرهفت السمع، دقات قلبٍ ضعيفة، بطيئة، بالكاد تُعلن أنَّها لا زالت موجودة، شهقت برعب، وصرخت وسط العاصفة كالمجنونة.

- لاااااا، استيقظ يا صغيري، لا تتركني وحيدة، أرجوك، لا تَمُت!
- لم يَعُد لي رجاءً سواك .

لكنَّ الريح وحدها ردّت عليها، تدور حولها وكأنّها تضحك بسخرية شياطين الصحراء، سقطت (ميريت-نيت) على ركبتيها، يديها تغرز في الرمال التي كادت أنْ تبتلعها، ودموعها تختلط بالغبار، فتصير على وجهها كخطوط طينٍ سوداء.

عيناها اتسعتا في يأسٍ مرير، وصوتها انطلق من أعماقها، ليسَ نداءً لإلهٍ بعيد، بل لروحٍ كانتْ قدوة لها مُنذُ عهود، وبكُلِّ يأسٍ صرخت بآخر ما تملك من قوة.

- (إمووووونت)

- يا كبيرة كهنة (أمون)، يا من أشرق عليها نور (أتون)، يا مَن كانتْ مثالًا للنقاء والقوة، يا مَن طالما حلمتُ أنْ أكونَ مثلها، أنقذيني، أنقذي صغيري، إنْ لم يستجب (آمون)، فلتستجيبي أنتِ بحق القداسة التي كنتِ عليها، بحقِّ دموع أمٍّ لم يعد لها سندٌ في هذهِ الدُّنيا سوى هذا الرضيع!

كانت تصرخ وتبكي، حتى تقطّع صوتها وتحوّل إلى أنينٍ متحشرج، يكاد ينطفئ مع أنفاسها، ظنّت أنْ لا مُجيب، وأنَّ الريح ستدفنها وابنها هُنا، كعظامٍ منسية تحت الرمال.

لكنَّ شيئًا غريبًا بدأ يحدث!

وسط العاصفة، بينَ الغبار الكثيف، أخذ يتشكّل خيالٌ غامض، جسد امرأةٍ ممشوقة القوام، ينساب من حبيبات الرمل نفسها، كأنَّ الصحراء قررت أنْ تمنحها روحًا، ارتسمت الملامح تدريجيًا، ثوب كهنوتي أحمر يرفرف كاللهب، تاجٌ عظيم مرصّع يضيء رغم الظلمة، وعينان تلمعان بضوء ازرق هادئ كنجمتينِ وسط الغبار.

وفجأة رفعت المرأة يدها العظيمة، فأطاعت الرياح الأمر صاغرة، وانحنت الرمال، هدأت العاصفة فجأة، وكأنّها لم تكن! وبقيَ السكون يخيّم على المكان، ارتجفت (ميريت-نيت)، بينَ الفزع والانبهار، لم تُصدق عيناها، اقتربت منها سيّدة الخيال والرمال، وبصوتٍ يُشبه نسمة دافئة وسط الخراب قالت لها.

- لا تخافي ولا تجزعي يا (ميريت-نيت).

شهقت الفتاة، وقد تجمّدت دموعها من هولِ المُفاجأة، همست بصوتٍ متقطع.

- إ.. إيمونت؟!

ابتسمت سيّدة الرمال وهزّت رأسها بهدوء، وتابعت بهمسٍ مُحبّبٍ للنفسِ سماعهِ.

- لقد سمعتُ نداءكِ، كنتِ صادقة في دعائكِ، وفي يأسكِ أيضًا.

- وأنا هُنا.

لم تحتمل (ميريت-نيت) أكثر من كتمانها لمشاعرها، فانفجرت في بُكاءٍ مرير، واندفعت نحوها.

- أنقذيني، صغيري يموت بينَ يداي، أنقذيهِ أرجوكِ، إنْ ن مِتُّ أنا فلا بأس، لكنْ هو.. هو لا ذنبَ له.

اقتربت (إيمونت) بخطواتٍ واثقة، وجثت على إحدى ركبتيها بجانبها، مدّت يدها، وأشارت بإصبعها أسفل جسد الرضيع، فإذا بالرمال تنشق من بين اقدامه، ويخرج منها خيط ماءٍ صافٍ، يتدفق كنبعٍ صغير، ارتفع صوت خرير الماء في قلب الصحراء الجرداء كالمعجزة، وجرت المياه بينَ ثنايا الرمال تصنع أخدودًا.

شهقت (ميريت-نيت)، وانقضّت على الماء بجنون، تجمعهُ بكفيها المرتعشتين، ترفعهُ إلى شفتيها المتشققتين، تشرب بنهمٍ كالعطشى مُنذُ ألف عام!

سالت الدموع مع الماء على وجهها، فلم تعرف إنْ كانَ ما يُبلل شفتيها ملوحةً أم عذوبة، ثُمَّ أخذت قطرات الماء بيدها، وبللت شفتي صغيرها، في البداية لم يتحرك، ثُمَّ ارتجف جسده الصغير بضعف، وأصدر صوتًا خافتًا، وحرك شفتيه وأخذَ يلعق قطرات الماء المنسابة بينهما من يد أُمّه، وكأنّ روحه تعود من حافّة الموت!

ضحكت (ميريت-نيت) وسط بكائها، ضحكة طفولية صافية، بدأت ترش الماء على وجهها وشعرها، ثُمَّ تلهو بهِ كما لو كانتْ فتاةً صغيرة تجري على ضفاف النيل، فتسكب الماء في الهواء، تضحك، تبكي، تصرخ، وكأنّها وُلدت من جديد.

أمَّا (إيمونت)، فكانت تقف من بعيد، تُتابع المشهد بعينيها المضيئتين، لم تنطق بكلمة، لكنَّها رأت في الفتاة صورة براءتها الأولى، قبلَ أنْ تُلوثها الخطيئة وقسوة البشر.

عادت (ميريت-نيت) إليها، جثتْ أمامها على ركبتيها، وأسندت رأسها إلى الأرض، ساجدة بكُلِّ خضوع، قالت بصوتٍ مرتجفٍ من الامتنان.

- شكرًا، شكرًا لكِ، لولاكِ لهلكنا، لقد أنقذتِ حياتي وحياة صغيري، إنَّني مدينةٌ لكِ بروحي، لا كلمات تستطيع أنْ تصف امتناني.

يا (إيمونت) العظيمة، يا مَن كنتِ يومًا قدوةً لي، أسألكِ أنْ تحميني وتحمي صغيري من الأعداء، أنْ تكوني لنا ظلًا من رحمتكِ في هذهِ الدُّنيا القاسية.

اقتربت منها (إيمونت) بحنوِ أُمٍّ، مدّت يدها البيضاء، ورفعت ذقن (ميريت-نيت) براحة كفها الناعمة، نظرت في عينيها مباشرة، وقالت بصوتٍ عميق، وكأنها تخبرها أسرار الكون.

- لكِ ما طلبتِ، سأحميكِ وأحمي صغيركِ، لكنْ عليكِ أنْ تعلمي يا (ميريت-نيت)، أنَّ هذا الرضيع ليسَ كغيره، إنَّهُ مُختلف، مختلف تمامًا عن سائر بني جِنسه.

ارتجفت الفتاة، واتسعت عيناها من الذهول والخوف معًا، لكنْ وقبلَ أنْ تسأل، كانتْ الرمال قد بدأت تبتلع سيّدة الرمال ببطء، حتّى اختفت (إيمونت) وكأنها لم تكن، تاركةً خلفها خرير الماء يتدفق بينَ حبات الصحراء!

ظلّتْ (ميريت-نيت) جاثية على رُكبتيها، تضمّ صغيرها، والدهشة والرهبة والفرح، كُلّها تجتمع في صدرها.

ضمّت رضيعها الذي فتح عيناهُ إلى صدرها في حُبٍّ حنان، وصدى كلمات (إيمونت) يتردد في أُذنها.. إنَّهُ مُختلف تمامًا،

وهُنا أدركت أنَّ حياتها قد تغيّرت للأبد.

الفصل الخامس عشر

كانتْ الشَّمس تتوسط كبد السماء، وحرارتها تنصب فوق جسد (ميريت-نيت) كالسياط، حينَ رفعت بصرها المُنهك تبحث عن ما يُمكن أنْ يكونَ مأوى لها من هذا الجحيم، رأت على البُعد شيئًا بدا لها أشبه بالمعجزة، وسط امتداد الرمال الصفراء الموحشة، وفي قلب الجفاف اللامتناهي، ارتسمت نخلة باسقة، وحولها خضرة ضئيلة لا تكاد تُرى.

في البداية حسبت أنَّ عيناها تخدعانها، وأنَّهُ مُجرّد سراب آخر تسخر بهِ الصحراء منها، لكنَّ لمعة الخضرة وارتعاش ظلّ النخلة في الهواء الحار، جعلا قلبها يقفز في صدرها.

شهقت، وسالَ دمعها بلا وعي، وانطلقت قدماها نحوها مسرعةً، لكنّها تذكرت فجأة صغيرها الراقد بجوار النبع الذي أخرجتهُ لها (إيمونت)، ترددت لحظة، ثُمَّ وضعت الرضيع برفقٍ على الرمال الناعمة بجوار الماء، غطّتهُ بوشاحها المتهالك، وقبّلت جبينه هامسة.

- انتظرني يا صغيري، لن أتأخر.

وانطلقت تركض كمَن وجدَ الخلاص! اقتربت من النخلة، فرأت ثمار التمر متناثرة على الأرض حولها، بعضها جافٌ، وبعضها طازج يلمع بلونهِ الذهبي و البُني.

لم تتمالك نفسها، فانكبت تجمع الثمار بكفيها، تلتقطها بلهفة، وتُلقيها في فمها بلا هوادة، حلاوة التمر سالت في حلقها الجاف كالرحيق، وانسكبت دموعها مع كُلّ تمرة، تأكل بشراهة الجائعة مُنذُ أسابيع، حتّى شعرت بطنها كأنّها لم تعرف الشبع من قبل!

ثُمَّ جمعت قدرًا ممّا استطاعت حمله في ثوبها، وعادت مسرعةً إلى صغيرها ،جلست بجواره، وأسندتهُ إلى صدرها، وقطّعت بعض الثمار الصغيرة وبللت شفتيه بها، حتّى بدأ يتحرك ويفتح فمه.

أدركت أنَّ حلاوة التمر، قادرة على بث الطاقة مرّة أُخرى في جسدهِ الصغير، ابتسمت في فرحٍ غامر، ثُمَّ ضمّتهُ إلى صدرها، أخرجت ثديها وألقمتهُ إيَّاهُ فإذ باللبن يتدفق منهُ، أخذَ الصغير يرضع بضعفٍ وهدوء، وهي تُراقبهُ بعينينِ دامعتينِ من السعادة والامتنان.

كانتْ الدموع لا تفارق وجهها، لكنّها دموع الفرح هذهِ المرّة، راحت تُمرر يدها على شعرهِ الصغير، وتهمس بحنوٍّ.

- أنتَ نجاتي، أنتَ روحي، لن أتركك، لن أتركَكَ ما حييت.

في دفء اللحظة، غلبها الإرهاق، وأغمضت عينيها، ونامت بينما صغيرها يلتقم ثديها، كانَ نومها عميقًا كأنّها لم تذق طعم النوم مُنذُ دهر!

حينَ أفاقت، كانَ الليل قد سَجَى، الهواء صار باردًا، والظلام يُحيطُ بها من كُلّ اتجاه، السماء صافية كلوحةٍ سوداء مُرصعة بالنجوم، لكنَّ سكون الليل لم يكن مُطمئنًا؛ فقد عصفت الرياح من حولها، تصدر أصواتًا غريبة، كأنّها همسات أشباح تُحيطُ بها و تدور حولها وتتهامس.

وفجأة، شق الصمت أصوات أُخرى، عواء بعيد، ثُمَّ آخر يقترب، أصوات ذئاب تتجاوب من كُلّ جانب، في البداية لم تستطع أنْ تتبينَ حقيقتهم خصوصًا في هذا الظلام الدامس، ارتجف جسدها، وانكمشت على نفسها.

ضمّت صغيرها بكُلِّ قوتها إلى صدرها، حتّى كادت تخنقهُ بينَ ذراعيها، حاولت أنْ تتمالك نفسها، لكنَّ صوت الريح وأصوات العواء المختلطة بصيحات طيور جارحة كانت تزيدها فزعًا.

ثُمَّ جاء ما هو أسوأ، وقع أقدام كثيرة تقترب في الرمال بصوتٍ مسموع وواضح، وخيالات سوداء كثيرة تُحيط بها، خطوات خفيفة، سريعة، متتابعة، قلبها كاد أنْ يتوقف من سرعة دقاته، رفعت رأسها المرتجف، فرأت من بعيد ظلالًا تتحرك بينَ

الرمال، خيالات ذئاب عديدة، تلمع عيونها في الظلام بلونٍ أصفرٍ يبعث الرعب في أوصالها، أحاطت بها من كُلّ صوب، كقطيعٍ يوشك أنْ ينقضّ.

صرخت بلا وعي، لكنْ لا أحد يسمع في الصحراء، لم تجد سوى اسمٍ واحد يخرج من شفتيها، يتكرر بتوسلٍ وذُعر.

- إيمونت، إيمونت، إيموووونت، أنقذيني! أنقذيني يا سيّدة الطُهر، لا تتركيني وحدي.

الأقدام تقترب، العيون تزداد لمعانًا، وصوت الذئاب صار أقرب ممّا يُمكن احتماله، وفجأة، وسط كُلّ هذا الرعب، رأت شيئًا جعلها تكتم أنفاسها؛ خيالٌ ضخم خرج من الظلام، لم يكن ذئبًا عاديًا، ولا أسدًا، ولا أي حيوان مألوف، كانَ يُشبه الكلب في هيئته، لكنَّ حجمهُ يوازي حجم الذئاب العملاقة، وجسده يكسوهُ فراء رمادي فضي برّاق، يلمع تحت ضوء النجوم.

أكثر ما أثار رعبها عيناهُ المتوهجتان بلونٍ أزرق هادئ، غريب، يحمل رهبة وسكينة في آنٍ واحد.

تجمّدت (ميريت-نيت) في مكانها، بينَ الرعب والذهول، اقترب الكائن خطوات قليلة، ثُمَّ توقف على مسافةٍ منها، رفعَ رأسهُ عاليًا، وأطلق عواءً عظيمًا كسر سكون الصحراء، لم يكن عواء ذئب عادي، بل كانَ أقوى، أعمق، كأنَّهُ خرجَ من باطن الأرض، فأصاب كُلّ شيءٍ بالارتجاف.

وما هي إلّا لحظاتٍ حتّى رأت الذئاب المحيطة بها، تلك الخيالات الموحشة، بدأت تتراجع واحدًا تلو الآخر، العيون الصفراء انطفأت تدريجيًا، والأقدام التي كانتْ تقترب تفرّ هاربة في الظلام، لم يمضِ وقت طويل حتىخ اختفت الأصوات تمامًا، وكأنّها لم تكن!، وبقيَ الكائن الضخم وحده، واقفًا في مواجهة (ميريت-نيت) وصغيرها.

لم يتحرّك ليُهاجم، ولم يُصدر أيّ صوتٍ آخر، بل جلسَ على مبعدةٍ منها، يُراقب بصمت، كمَن نُصِّب حارسًا لا يُقهر، ظلّت عيناه الزرقاوان تلمعان، تُراقبانهما بهدوء غامض، حتّى شعرت لأوّل مرّة بالطمأنينة بعد الفزع، عندها، أدركت الحقيقة، همست بصوتٍ مبحوح.

- (إيمونت)، شُكرًا لكِ.

ابتسمت رغم الدموع التي لم تفارق خديها، وشدّت صغيرها أكثر إلى صدرها، ثُمَّ أغمضت عيناها، بعدما عَلِمَتْ أنَّ هذا الكائن لن يسمح لأيّ خطرٍ أنْ يقتربَ منها، ومع يقينها هذا أرخَت رأسها على الرمال الباردة، واستسلمت للنوم، مُطمئنة النفس والسريرة لأوّل مرّة مُنذُ زمنٍ بعيد، نامت وهي تحتضن صغيرها، وفي ذهنها صورة العينين الزرقاوين، تُذكرها بعيون حبيبها (الإسكندر) تُحيطها بالأمان، كرمزٍ للحماية التي وهبتها لها (إيمونت) من عالمٍ آخر.

الفصل السادس عشر

كانَ النداء هامسًا، كأنَّهُ نسمة باردة تتسلل من أعماق الليل لتلامس أُذنها، فتجعلها ترتجف في نومها الخفيف، فتحت جفنيها المثقلين على ظلمة الليل المتأخرة، لم يكن حولها سوى بريق النجوم البعيدة، وصمت الرمال الذي لا يكسره إلا حفيف الريح، لكنَّ الهمس عادَ ثانيةً، أوضح من ذي قبل، يلفظ اسمها.

- (ميريت-نيت)!

اعتدلت جالسة، ثُمَّ شهقت مرّة أُخرى حينَ رأتها أمامها، واقفة عندَ حافة الضوء المنبعث من القمر، هيئة امرأة ممشوقة القوام، يكسوها الرداء الأحمر الكهنوتي، ويتوج رأسها تاج مهيب، عيناها تلمعان بزرقة وصفاءٍ رهيب يبعث على الطمأنينة برغم غرابته.

كانتْ (إيمونت)، الكاهنة العظمى الأسطورية التي عرفتها (ميريت-نيت) في يقين قلبها فقط، اقتربت بخطواتٍ هادئة منها، حتّى بدا أنَّ الأرض نفسها تميد تحت وقع خطواتها، وقالت بصوتٍ عميقٍ رقيق، كصوت نايٍ بعيد.

- انهضي يا (ميريت-نيت)، لم ينته الطريق بعد، اتبعي الحارس الذي أرسلتهُ لكِ، سيسير بكِ إلى حيثُ قدركِ المكتوب.

التفتت (ميريت-نيت) إلى الجهةِ الأُخرى، فرأت الذئب الضخم جالسًا هناك، عيناه الزرقاوان تشعان في الظلام مثل شعلتين مقدستين لا تنطفان!، رفعت (إيمونت) يدها، وأشارت إليهِ قائلةً.

- اتّبعيه، سيقودكِ جنوبًا، مسيرة نهار كامل، عندَ نهاية المسير ستصلينَ إلى مغارة قديمة، هُناكَ تُقيم روح الآلهة (ورت حكاو)، سيّدة الكلمات العظيمة،

حافظة الأسرار. هي مَن ستحمي صغيرك، وهناكَ ستكشف لكِ ما يُريحُ صدركِ من أثقال.

أحنت (ميريت-نيت) رأسها خاشعة، ودقات قلبها تتعالى بينَ الرجاء والخوف، وحينَ رفعت عيناها ثانية، لم تجد سوى الصحراء الفارغة والذئب الجالس، كانتْ (إيمونت) قد اختفت كما ظهرت، تاركةً وراءها أثرًا من السكينة والهدوء في آنٍ واحد.

مع خيوط الفجر الأولى، شدّت (ميريت-نيت) وشاحها حولَ جسدها، وضمّت طفلها النائم على صدرها، جمعت بعض التمر من تحت النخلة، وربطتهُ في ذنارٍ حولَ وسطها، ثُمَّ غمست طرف وشاحها في مياه العين الصغيرة حتّى تشبّع، لتستخدمهُ زادًا يروي عطشها ويُبلل شفتي رضيعها.

وقفت تنظر إلى الأُفق؛ حيثُ يسير الذئب العملاق أمامها بمسافةٍ قصيرة، خطواتهُ ثابتة، كأنَّهُ يعرف الطريق تمامًا، كما لو كانَ مُعتادًا عليهِ!

سارت خلفهُ وأشّعة الشَّمس الصاعدة تنثر نورها الذهبي على الرمال، كانت الرمال تمتد بلا نهاية، والصورة تتراقص أمامها بسبب لهيب الرمال، لكنّها وجدت عزاءً في ظلّ ذلك الكائن الرهيب، الذي لم يلتفت إليها قط، بل مضى بخطواتهِ المهيبة كمَن يقودها إلى قدرها المحتوم.

كلما جف حلقها، أخرجت الوشاح المبلل وعصرته بينَ شفتيها، تسقي نفسها وطفلها قطرات قليلة تقيه من القيظ، وحينَ يشتد الجوع، تناولت بعض التمر، ووزعتهُ بينَ فمها الصغير وفم الرضيع، الذي بدأ يفتح عينيه بينَ حينٍ وآخر، كانت قد بدأت تكلّ من المسير، لكنْ كلما نظرت إلى الأمام، ورأت عيني الذئب الزرقاوين تشعان ببريقٍ هادئ مُحبب، شعرت بطاقةٍ خفية تدفعها على الصمود.

مرّت ساعات النهار ثقيلة، وحرارة الشَّمس تضرب بلا رحمة، حتّى بدا لها أنّها لن تستطيع مواصلة المسير، وهذهِ نهاية قصتها، ولكن نظرة واحدة لصغيرها بين يديها تجعلها تكمل السير، تحنو عليهِ كُلّ بضع خطوات، تقبّله وتهمس باسمه، الذي اختارهُ لهُ أباهُ الراحل، تاركًا لهُ اسمهُ وفقط، حينَ مالت الشَّمس نحو المغيب، ارتسمت في الأُفق سلسلة جبالٍ شاهقة، تكسوها صخور حادة تعلو وتتشابك، مثل جدارٍ أُقيم ليمنع البشر من الوصول لما هو خلفها، وكأنّها سدٌ منيع!

شّعت بقلبها بارقة أمل، فأسرعت خطواتها رغم وهنها، حتّى تصببت عرقًا، وأنفاسها تتلاحق، وصلت إلى السفوح الصخرية، وقد بدأ الليل يرخي سدوله من جديد، كان الذئب قد صعد قبلها بخطواتٍ لا تسمع، كأنَّهُ ظلّ يتسلل بينَ الصخور، تبعتهُ متثاقلة، حاملة رضيعها، متشبثة بكُلّ نتوء صخري بيديها المرتجفتين، كلما تعثرت تذكرت كلمات (إيمونت)، وكلما أوشكت أنْ تسقط، رفعت بصرها فرأت العينين الزرقاوان تُراقبانها في الأعلى، وأخيرًا، بعد جهدٍ مرير، بلغت فجوة مظلمة بينَ الصخور، كأنّها فم الجبل يبتلع المتسللين هناك، وقفت تلتقط أنفاسها، تُحدّق في السواد المُطبق داخل المغارة، رفعت بصرها تبحث عن الذئب، لكنَّهُ اختفى فجأة، كأنَّ الأرض قد ابتلعته!

شعرت برعشةٍ تسري في جسدها؛ إذ أدركت أنّها وصلت إلى وجهتها، وأنْ لا رجوع بعد اليوم، ضمّت صغيرها إلى صدرها أكثر، وتعالت دقات قلبها مرّةً أُخرى لوقوفها على أعتاب المجهول، بينما الصمت العميق للجبال يُحيط بها من كُلّ حدبٍ وصوب، كأنَّ الكون كُلّهُ يُمهد لمشهدٍ عظيم لم تعرف ماهيته بعد!

****

كانتْ الفتحة ضيقة، أشبه بشقٍ في بطن الجبل، بالكاد تسمح لجسدٍ واحد أنْ يمر وهو مُنحني، توقفت (ميريت-نيت) لبُرهة أمامها، وأحسّت بنبض قلبها يعلو من التوتر والخوف، ثُمَّ شدّت طفلها إلى صدرها، وغطّتهُ بطرف وشاحها المبتلّ ببقايا ماء العين؛ كي يحتمي من خشونة الصخور.

وضعت ركبتيها على الأرض، وأخذت تزحف ببطء، كأنّها تسجد للأرض نفسها، تتلمّس بأصابعها جُدرانًا باردة تنضح بالرطوبة ،هواء الكهف ثقيلاً خانقًا، مُحمّلًا برائحة ترابٍ قديم، لا تقربهُ شّمسٌ ولا ريح مُنذُ آلاف السنين، وكلما تقدمت شبرًا أحسّت أنَّ الظلام يزداد كثافة، وأنَّ الصمت يغمرها حتّى لم تعد تسمع سوى دقات قلبها وأنَفَاس صغيرها الهادئة.

وبينما هي كذلك، اصطدمت يدها بجسمٍ صلب، خشبيّ الملمس، مدّت يدها تتحسسه، فإذا هو مشعل خشبي قديم، مُلقى عند الحائط كما لو أنَّ أحدهم تركهُ هناك مُنذُ زمنٍ بعيد، ينتظر مَن يُشعلهُ!، ابتسمت حينها وشعرت أنَّ الأمر مُعدّ لها من قِبلِ الآلهة مُنذُ زمنٍ بعيد.

تناولت من أرضية الممر حجرانِ صغيرا الحجم أملسان، وضربتهما مرارًا حتّى تناثر الشرر منهما، وهى تُقرّبهما من المشعل الخشبي المُغطى بدهن حيوانٍ أو زيوت، تطايرت الشرارة، وارتعش خيط بسيط من الدخان، ثُمَّ اشتعلت شعلة صغيرة، سرعان ما انتشرت في أطراف المشعل بالكامل، فأضاء بلونٍ برتقالي متراقص، يطرد رهبة الظلام ويمنحها شيئًا من الطمأنينة.

شدّت طفلها بذراعها اليُسرى، وباليد الأُخرى رفعت المشعل أمامها، ضوءه المرتجف انعكس على الجدران راسمًا بعض الظلال وكأنّها أرواح تسير معها!، تقدمت، وكُلّ خطوة تحملها أعمق في بطن الجبل، لم تمضِ خطواتٍ حتّى لمحت صفًا من المشاعل

المثبتة على الجدران، تنتظر بدورها مَن يوقِظها من سُباتها، اقتربت منها وأخذت تشعلها، واحدًا تلو الآخر من نار مشعلها الذي تحمله.

كلما اشتعل مشعل تراجع الظلام خطوة، وارتفع سقف الكهف أمامها كأنَّ المكان يتنفس من جديد، حتّى إذا اكتملت السلسلة، بدأ الكهف وقد انغمر في نورٍ غريب، هادئ لكنَّهُ عميق، يبعث عن الراحة والدفء.

تقدمت بخطواتٍ مترددة، وفي قلب الكهف برز التمثال العظيم للآلهة (ورت حكاو)، منحوتًا من حجرٍ أسود لامع، وقد ارتفع شامخًا وسط الدائرة، وكأنَّهُ يحرس المكان مُنذُ الأزل!، عيناهُ المرصعتانِ بأحجارٍ خضراء، بدتا وكأنهما تُتابعانها في سكون، وفي هيبتهما رهبة لا تخطئها الروح.

أمام التمثال انتصب نصب حجري عريض، مخصص للكهنة في طقوسهم القديمة، وعلى أطرافهِ عشراتٍ من الشموع الصغيرة، بعضها بدا وكأنَّهُ لا زالَ محتفظًا برائحة الشمع المحترق، ارتعشت أنفاس (ميريت-نيت) من رهبة المشهد أمامها، شعرت ببرودة تجتاح أطرافها، لكنّها استجمعت شجاعتها وتقدمت بخطواتٍ ثابتة.

رفعت صغيرها برفقٍ ووضعتهُ على سطح النصب الحجري، وغطّتهُ بردائها كي تبث الدفء في أوصاله؛ بسبب برودة الكهف الرطب عكس الصحراء القاحلة المُحيطة به، ثُمَّ تراجعت خطوة إلى الخلف، وانحنت بجسدها حتّى سجدت أرضًا، جبهتها تلامس صخور الكهف، وقلبها يخفق بخشوعٍ لم تختبرهُ من قبل في أيّة صلاة.

وبصوتٍ خافت لكنَّهُ مفعم بالرهبة، بدأت تتلو صلاتها، كلمات تخرج من قلبها لا من لسانها، تمجيدًا لربّة السِّحر والمعجزات (ورت حكاو)، التي يُقال إنّها تسمع أنين القلوب، وتستجيب لمَن يلتمس منها الحماية.

ارتجف الكهف بأصداء صوتها، بينما تتراقص نيران المشاعل وكأنّها تُبارك تلاوتها!، وكلما أمعنت في الدعاء، أحسّت أنَّ جدران المكان تنبض بالحياة، وأنَّ التمثال يزداد هيبة وسط النور، وفي أعماق نفسها، شعرت أنَّ ما سيأتي لن يكون مُجرّد استجابة لصلاة، بل بداية لعهدٍ جديد، كتبهُ القدر عليها وعلى ابنها الذي بينَ يديها.. ابن (الإسكندر).

الفصل السابع عشر

وبينَ صمت الجدران الذي يتخللهُ صوت الرياح الآتية من فوهة الكهف، مع قرقعة النيران المشتعلة في المشاعل، سجدت (ميريت-نيت) على رُكبتيها أمامَ النصب الحجري، والتمثال الأسود العظيم لورت حكاو يعلوها، صامدًا صامتًا بهيبتهِ وسط ضوء المشاعل المرتعش.

كانتْ الشموع الصغيرة التي أمام التمثال تذوب في صمت، بعدَ أنْ أشعلتها (ميريت-نيت) استعدادًا لصلواتها، وتُطلق رائحة شمعها المُختلط بالغبار القديم، فيما تهاوت قطرات الماء من سقف الكهف على الصخور، والتي هي عبارة عن أبخرة لمياهٍ حبيسة بينَ الشقوق لآلاف السنين، وكأنَّها تضفي رهبة وعُمق للمكان!

مدّت ذراعيها نحو التمثال، وضمّت طفلها الصغير إلى صدرها، ثُمَّ رفعتهُ قليلًا كأنّها تُقدمهُ قربانًا للآلهة، أغمضت عيناها، وبدأت صلاتها العميقة، بصوتٍ خاشع يهتز في بعض خلجاتهِ ونبراته؛ نتيجةً لورعها وصدقها.

- يا (ورت حكاو)، يا سيدة الأسرار، يا ربّة السحر والمُعجزات، يا مَن تنفخين الحياة في الصمت، وتغزلينَ من النور مصائر البشر، ها أنا أمامك.
- أنا (ميريت-نيت)، بنت هذهِ الأرض، ومن رحم نسلها، أتيتُ إليكِ بصغيري هذا، بدّم وريث أبيه، آخر ما تبّقى من مجدهِ وسلالته.
- يا سيدة القوة، يا مَن تملكينَ مفاتيح الزمن، أسألكِ أنْ تحميهِ من كُلّ عينٍ تترصده، ومن كُلّ يدٍ تمتد لتغتاله قبلَ أنْ ينهض.
- أنْ تزرعي في قلبهِ الشجاعة، وفي ذراعيهِ القوة، وبروحهِ الحكمة، ليكمل ما بدأهُ أبوه، وليُعيد المجد المفقود.

- يا سيدة الأبديّة، أنعمي عليهِ بعزيمةٍ لا تلين، وأنفاس لا تنقطع، ويدين تقهران الزمان، ليكون نصير الضعفاء وملجأ المستضعفين، ودرع الحقّ في وجه الظلم، اجعليهِ ملكًا متوجًا في قصره، سيدًا في ميدان الحقّ، قاهرًا للدهر لا أسيرًا له.
- يا ربة السحر، يا أمّ القوة الخفيّة، اجعليهِ واحدًا لا مثيلَ له، لكنْ لا تتركيهِ وحيدًا بلا عزيمة؛ ارزقيهِ الصبر على قدر ما ترزقينه القوة، والرحمة على قدر ما تمنحينهُ البطش، والنور على قدر ما تجودينَ عليه بالحياة الطويلة.
- هذا ابني، وهذا دعائي، وهذا تضرعي إليك؛ فارحميهِ يا (ورت حكاو)، واسمعي لدعائي، فأنتِ الحافظة والقادرة.

تهدج صوتها وهي تكرر كلماتها، وتغرق أكثر في التضرع، حتّى بدا الكهف كأنّهُ قد خشع من دعائها، وسادَ الصمت احترامًا واجلالًا لكلامها المهيب، والشموع تهتز نيران زبالتها الصغيرة كأنّها تهتز بخشوع!

وفجأة، اهتز الجبل بأسره، وارتجّت الصخور من حولها ارتجافًا عميقًا، كأنَّ الأرض قررت الاستجابة، سقط الغبار من سقف الكهف حتّى أنّها قد خشت يكون هذا غضب الإله، وقد شاءت أنْ تدفنها هُنا، وتجعل هذا الكهف هو مثواها الأخير، واهتز النصب الحجري تحت يديها، وارتفع صوت نبضات يحمل صدى عميق يُشبهُ دقات قلبٍ عظيم.

ثُمَّ انشقَّ الجدار خلف التمثال فجأة، وانبثقت فجوة من نورٍ ساطع، نور أبيض يكاد يغشي البصر ويملأ الكهف دفئًا رهيبًا، وضعت (ميريت-نيت) يدها على عينيها لشدّة الضوء، لكنَّ شعاعه تسلل رغم ذلك إلى قلبها، حتّى شعرت بدفءٍ لم تعرفهُ من قبل.

ومن بين النور، ظهرت الآلهة (ورت حكاو)، جسدها يتلألأ كالذهب المصقول اللامع، وعيناها تتقد بلهيب الحكمة، وشعرها الأسود يتماوج كأمواج الليل، ومن حولها تدور

أطياف في دوائر من نورٍ حيّ، صوتها جاء لا كصوتٍ واحد، بل كأصواتٍ عدّة تتحدّ في نغمةٍ واحدة، عميقة وهادرة.

- يا (ميريت-نيت)، تضرعكِ وصل إلى صميمي، قد أُجيبت دعوتكِ.
- هذا الطفل لن يكونَ لهُ مثيل بينَ البشر؛ سيُعطى قوة ألف إنسان، وحياة ألف إنسان، سيعبر الأزمنة، ويمضي بينَ القرون كما تمضي الرياح بينَ الجبال، لكنَّهُ لن يعرف الراحة كما تعرفونها؛ سيُكتب عليهِ أنْ يُشاهد كُلّ أحبته يموتون أمامه، ويبقى هو، لن يكونَ مخلدًا، لكنَّهُ سيحيا حياةً طويلة، يُصاحبها الألم كما تُصاحبها القوة.
- لن يكونَ ملكًا، لكنَّهُ سيملك كُلّ السُبل في حياته، ستُعطى لهُ الحكمة وقوة الزمن، وسيكون نصيرًا قويًا لكُلّ ضعيف، سيفًا للعدالة، ودرعًا للمقهورين.
- سيكون وريث الآلهة وذراعها وقوتها في الأرض.
- ولأجلِ ذلك، سأُقلدهُ قلادة الخلود، التي تحفظ قوته وسرّه، فليحرص عليها حرصه على حياته؛ إذ يفقد مَيزته بفقدها، ويعود بشرًا عاديًا بلا قوة ولا سند.

صمتت لبرهة، وتابعت بنفس الصوت العميق.

- أمَّا أنتِ يا (ميريت-نيت)، فإنَّ قوتي ستحملكِ الآن إلى حيثُ مدينة زوجكِ، ستعيشينَ بينَ عامّة الشعب، ولن يعرفكِ أحد حتّى لو رأوكِ رأى العين، ستظلّكِ قوتي وتخفيكِ عن أعيُن أعدائك، ليبقى الصغير في مأمنٍ لحين أوانه.

وما إن انتهت (ورت حكاو) من كلامها، حتّى أُغلقت الفجوة النورانيّة فجأة، وعاد الكهف إلى ما كانَ عليهِ من ظلامٍ ونور المشاعل المرتعش.

لكنَّ الهواء كان لا يزال مشبعًا برائحة عطرة وكأنّها عبق النور، والشموع كلها اشتعلت كأنّها تُسبّح بحمد الآلهة (ورت حكاو)!

لم تكد (ميريت-نيت) تستعيد أنفاسها المتهدجة حتّى سطع نور آخر، لكنَّهُ أقوى هذهِ المرّة، أغشى بصرها وأجبرها على أن تضع يديها على عينيها لتحميهما، وحين رفعت يديها بعد لحظات، كان المشهد قد تغيّرَ بالكامل.

لم تعد في الكهف! كانت تقف وسط شارع واسع، أرضه عبارة عن أحجار متراصة، والهواء محمّل برائحة البحر المالحة، وأصوات الخيول والمارّة تدوي من حولها.

في الأفق ارتفعت أسوار وأعمدة شامخة تلمع تحت الشَّمس، لقد كانت في مدينة الإسكندرية، وصغيرها إلى جوارها، حيٌّ ويخلد في النوم بسلام.

وقفت مذهولة، قلبها يخفق وقد اغرورقت عيناها بالدمع، أدركت صدق النبوءة، وأيقنت أنَّ بداية قدر ابنها قد كُتبت الآن، وأنَّ ما جرى في ذلكَ الكهف لم يكن سوى بداية لعهدٍ جديد، سيكتب في التاريخ وتتذكرهُ العقول، عهد سيكتبهُ ابنها.. ابن (الإسكندر).

الفصل الثامن عشر

مُنذُ اللحظة التي لامست فيها قدما (ميريت-نيت) الحافيتين، أرض الإسكندرية المُبللة بندى البحر، شعرت كأنَّ الأرض نفسها تحتها تنبض بالحياة، كأنّها مدينة خُلقت لتكونَ مصدرًا للحياة!

الهواء مُشبع برائحة الملح والأسماك، والضجيج يملأ الأرجاء، أصوات النجارين والحدادين وباعة القمح والسمك، والنساء يصرخن فوق عرباتهنَّ الصغيرة، أخذتْ (ميريت-نيت) تمشي بخُطىً متعثرة وسط الزحام، تحمل رضيعها بينَ ذراعيها، و تُخفيهِ بعنايةٍ تحت وشاحها الممزق، تخشى أنْ يراهُ أحد، تخشى أنْ تفضحها نظرة أو كلمة عابرة.

السماء صافية، لكنَّ شمس الظهيرة لافحة، والعرق يختلط بالغبار على جبينها، وقدماها المشققتين تنزفان دمًا جافًا، امتزج بالتراب حتّى صارتا بلون الطين الداكن، تمشي بلا هدف سوى النجاة، لا تعرف إلى أينَ تأخذها قدميها في تلك المدينة الغريبة، التي لم ترَ مثلها من قبل؛ شوارعها واسعة مرصوفة بالحجر، وأعمدتها عالية كأنّها تتحدّى الزمن!، كان مُقدرًا لها أنْ تكون ملكتها، لكنَّها قد أصبحت طريدة شوارعها، بينما القدر يُرتب لها أمرًا آخر.

في أحد الأزقة الجانبية القريبة من الميناء، حيثُ تتعالى أصوات الطرق على المسامير وصرير الجلود المشدودة، جلس رجل طاعن في السن أمام حانوته الصغير المتهالك.

كان يدعى (استفانوس) الإسكافي العجوز، أصلع الرأس، بلحيةٍ بيضاء كثيفة، وعينانِ تلمعان دليل على ذكاء فطري، كان منهمكًا في إصلاح خُفٍ قديم حينَ لمحها من بعيد، تمشي كظلٍ تائه، بثوبٍ مغبرٍ ووجهٍ يعلوه الإرهاق وآثار الدموع.

توقّف عن عمله، رفع رأسه ببطء، و تابعها بعينيهِ حتّى اقتربت منه، يدُه تمسك الخف والدهشة تسكن ملامحه، نهض ببطءٍ وهو يستند إلى عصاه، وصاح بصوتٍ مبحوحٍ ضعيفٍ من أثر الزمن.

- يا فتاة، تمهّلي، ما بالكِ تسيرينَ كمَن يحمل العالم على كتفيه؟

توقفت (ميريت-نيت) للحظة، نظرت إليهِ بخوفٍ وتوجّس، ثُمَّ حاولت أنْ تُتابع سيرها، لكنَّ جسدها المُرهق لم يُطاوعها، فتعثّرت وسقطت على الأرض، هرع إليها (استفانوس) ومدَّ لها يده.

- تعالي يا ابنتي، اجلسي هنا في ظل هذا الحانوت، دعي قدميكِ تستريحان، فلقد أدمتِهما الطرقات.

نظرت إليهِ بعينين متعبتين، ترددت، ثُمَّ رضخت أخيرًا وجلست على حجرٍ أمام الحانوت، أزاح العجوز ببطءٍ قطعة جلدٍ من على مقعدهِ الصغير، وناولها قطعة قماش مُبللة لتمسح بها وجهها، لمح الوشاح الذي تخفي تحتهُ الرضيع، فمالَ برأسهِ قليلًا وقالَ بهدوء، وصوت خافت.

- أهو ابنكِ؟

أومأت برأسها، والدموع تملأ عينيها دونَ أنْ تتكلم، لم يسأل أكثر، بل دخل إلى الحانوت، وجاء بعد لحظاتٍ بخفّين صغيرين من الجلد البُنيّ، وضعهما أمامها.

- ارتديهما، فالأرض لا ترحم، وأخشى أنْ تنزف قدميكِ أكثر.

مدّت يدها المرتعشة، أمسكت الخفّين بحذرٍ كمَن يلمس شيئًا مقدسًا، ولبستهما ببطء، كانت قدماها ترتجفان من الألم، لكنّها شعرت براحةٍ خفيفة حين لامس الجلد الناعم بشرتها، جلس (استفانوس) أمامها على صندوقٍ خشبي، وأسند ذقنه على عصاه، ثُمَّ قال بهدوءٍ، وهو ينظر إلى وجهها الشاحب.

- ما قصتكِ يا ابنتي؟

- لم أرَاكِ في شوارع الإسكندرية من قبل.

تنفّست بعمقٍ، كأنّها تستجمع ما تبقى من قواها، ثُمَّ م قالت بصوتٍ واهن.

- اسمي (نانيس)، وأنا من مدينة أتريب،

ونظرت إلى صغيرها بخوفٍ وحنانٍ في آنٍ واحدٍ.

- وهذا صغيري (فلوباتير)، كانَ أباهُ جنديًا مصريًا قاتل الفرس في الجنوب، قُتل في الحرب، وتركني وحدي بلا أهل ولا مال، فجئت إلى هذهِ المدينة أبحث عن حياةٍ جديدة لي وله.

صمت العجوز للحظةٍ طويلة، وكأنَّهُ يستعيد ذكرى بعيدة، ثُمَّ هزّ رأسه، وقال بحزنٍ واشف.

- أتيتِ إلى مدينةٍ جميلة، لكنّها قاسية يا (نانيس)، هذهِ الأيّام صدر أمر من الملك (بطليموس) نفسه، بقتل كُلّ الأطفال دونَ العامين.

شهقت (ميريت-نيت)، وانكمش جسدها كُلّ كُلّه من الخوف، ضمّت صغيرها إلى صدرها كطائرٍ صغير هاجم الصقر فراخه!

- ماذا تقول؟!

- أجل، يخشونَ نبوءة قيلت في المعابد عن طفلٍ مصري، سيولد ليقلب موازين الحكم،

فأصدر (بطليموس) أمرهُ بذبح كُلّ الصغار دونَ العامين.

ارتجف صوتها وهي تهمس.

- يا (آمون)، لقد وجدتُ الموت قبل الحياة في هذهِ المدينة.

حاولت النهوض، أرادت أنْ تركض، أنْ تختفي، لكنَّ (استفانوس) أمسك بذراعها بلطفٍ، وقال بصوتٍ مطمئنٍ.

- لا تخافي يا ابنتي، لن أدع أحدًا يؤذيكِ أو صغيركِ، اتبِعيني.

قادها إلى ممرٍ ضيّقٍ خلف الحانوت، كان منزله مُرتبط بالحانوت، تقدمها إلى غرفةٍ صغيرةٍ تنبعث منها رائحة القش وفضلات الحيوانات، كان هناك مذودٌ للأبقار، تتناثر حولهُ حزم التبن وأدوات السقاء، وضع العجوز يدهُ على كتفها وقال.

- أخفيهِ هُنا بينَ القش، إذ لا يخطر لأحدٍ البحث عنهُ في هذا المكان.

نظرت إليهِ (ميريت-نيت) بعينين دامعتين، ثُمَّ وضعت صغيرها داخل المذود، وغطّته بوشاحها، وقامت بوضع طبقةٍ من القش بلُطف، حتّى لم يعد يُرى منهُ سوى خصلات شعرهِ الصغير، ثُمَّ جلست قُربه ترتجف من الخوف، وما هي إلَّا دقائق حتّى سُمِع وقع أقدامٍ ثقيلة، وصيحاتٍ حادةٍ تتردد في الأزقة، أقتحم الجنود المكان، دروعهم تلمع تحت أشّعة الشّمس، وسيوفهم تطرق الأرض طرقًا عنيفًا؛ لبث الرعب فى القلوب، صرخ القائد.

- فتشوا البيوت ولا تتركوا طفلًا واحدًا.

دلف ثلاثة جنود إلى حانوت (استفانوس)، فتشوا الأركان، رفعوا الجلود، قلبوا الصناديق، أحدهم اقترب من المذود، نظر إليهِ ثُمَّ ضرب القش بعصاهُ فتناثر بعضه، تعالت دقات قلب (ميريت- نيت) من الخوف، لكنَّ الصغير لم يُكشف، تنهد (استفانوس) في سره، بينما سيطر الذعر على (ميريت-نيت)، بعد دقائق غادر الجنود المكان دونَ أن يلاحظوا شيئًا، أُغلق الباب، وساد الصمت، عندها هرعت (ميريت-نيت) إلى المذود، كشفت القش بسرعةٍ واحتضنت طفلها بقوة، حتّى سالت دموعها على وجهه، وقالت بصوتٍ مرتعشٍ.

- لقد أنقذتَنا يا رجل الخير، أنقذتَ حياتي وحياة ابني.

ابتسمَ (استفانوس) بهدوءٍ، وأشار إليها أنْ تجلس لتريح قدميها.

- لا تشكريني يا ابنتي، لكنّكِ لا يمكنكِ التجول في المدينة الآن، سيستمر التفتيش أيّامًا، لذا ستظلّينَ هُنا حتّى تهدأ هذهِ العاصفة.

ظهر التردد على ملامحها، صمتت لفترة ثُمَّ أجابتهُ.

- لا أُريدُ أنْ أسبب لكَ المتاعب.

ابتسمَ في حنوٍّ وقال.

- لا تقلقي، أنا شيخٌ عجوز، لا أهلَ لي ولا جليس، وإنْ شئتِ فابقي هُنا كابنتي وأكون أبًا لكِ، لن يُظَنَّ بكِ سوءًا، وسأُخبرُ الجيران أنّكِ زوجتي، وهذا ابننا حينما تمر هذهِ المحنة.

نظرت إليهِ (ميريت-نيت)بامتنانٍ، واغرورقت عيناها بالدمع، كانت قد فقدت الثقة بالبشر مُنذُ زمنٍ بعيد، لكنَّ هذا الشيخ العجوز أشعل في قلبها شعلة صغيرة من الأمل ،قالت بصوتٍ خافت.

- إنّكَ رجلٌ طيّب يا (استفانوس)، سأبقى كما قلت، وسأرعاكَ كما ترعاني.. رعاية الابنة لأبيها.

وهكذا بدأت حياتها الجديدة في منزل الإسكافي، دارٌ بسيطةٌ مكوّنة من غرفتين صغيرتين، وسقيفةٍ مفتوحةٍ تطل على الأزقة.

تُساعدهُ (ميريت-نيت) كُلّ صباحٍ في عمله، وتجهز لهُ الأدوات والأحذية، وتنظف المنزل بالكامل، بينما يلهو الطفل في المذود تحت نظرها، شيئًا فشيئًا بدأ الناس يعرفونها باسم (نانيس) زوجة الإسكافي، وبرغم جمالها وشبابها وجسدها البضّ، وهو شيخٌ طاعن في السِنّ، لم يشك أحدٌ في قصتها.

ذات مساءٍ، بعدَ أنْ غابت الشمس وراء البحر، وهدأ الضجيج، وخلدت المدينة الى النوم، جلست (ميريت-نيت)على طرف مخدعها، ألقى ضوء المصباح الزيتي بظلالٍ ذهبيةٍ على وجهها، نظرت إلى طفلها النائم بجوارها، كانَ وجهه ملائكيًا وكأنّهُ قطعة من نور!، مدّت يدها برفقٍ إلى صدرها، وأخرجت قلادةً صغيرةً كانت تخفيها مُنذُ زمن، تتدلى منها علامة مفتاح الحياة المصري، لكن يتوسطها حجر عقيق أخضر يلمع بصفاءٍ غريب، نظرت إلى القلادة طويلًا، وعادت بها الذكريات إلى كهف الربة (ورت حكاو)، ونورها المُقدس، اقتربت من طفلها، وضعت القلادة على صدرهِ الصغير، وقالت بصوتٍ متهدج.

- لتحفظكَ الآلهة يا ولدي، فالعالم قاسٍ، وأنت آخر ما تبّقى لى في هذهِ الحياة.

وما إنْ لامست القلادة جسده، حتّى انبثقَ منها ضوء فيروزي قوي، غمر الغرفة دفعةً واحدة، كأنّها شَمس صغيرة فيروزيّة قد سطعت على صدرِ الطفل!، تراجع (استفانوس)، الذي كان يَهمّ بالدخول في ذات اللحظة بهدوء حاملًا مصباحه، وقف مذهولًا، وقد اتسعتْ عيناهُ من الدهشة والرعب في آنٍ واحد، قد غمرَ الضوء المكان، الطفل الصغير تنفّس بعمقٍ غريب، وابتسمَ وهو نائم، كأنَّ الملائكة تُلاطفهُ ولامست روحه.

- تقدّم العجوز بخطواتٍ بطيئة، وصوته متهدج من أثر الصدمة.

- ما هذا الذي أراهُ يا (نانيس)؟!

- ما هذا النور؟!

نظرت إليهِ (ميريت-نيت) بعينينِ دامعتين، وضمّت القلادة إلى صدر الطفل، وقالت بصوتٍ خافتٍ لكنَّهُ واثق.

- هذا قدرهُ يا أبي.

ظلّ الضوء يزداد قوةً للحظاتٍ، ثُمَّ بدأ يخفت ويعلو وكأنّهُ ينبض، أو يتبع دقات قلب الطفل، ثُمَّ بدأ يخبو تدريجيًا حتّى عادَ كُلّ شيءٍ إلى طبيعته، الهواء مشبع برائحةٍ عطرةٍ غريبة تشبه عبق الزهور القديمة، جلس (استفانوس) مذهولًا، وأمسكَ رأسه بينَ كفيه، أمَّا (ميريت-نيت) فجلست قُرب طفلها تقبّل جبينه، وتهمس لهُ.

- الآن بدأت رحلتك يا صغيري، رحلة لا تنتهي.

وخارج الجدران الحجرية الصغيرة، حيثُ المدينة الغافية لا يسمع فيها إلّا صوت الأمواج، لم يكن احد يدري أنَّ بينَ بيوتها المتواضعة، ووسط حانوت الإسكافي البسيط، بدأ عهد جديد، عهد طفلٍ سيحمل بينَ يديهِ سرّ الخلود وقوة الأزمنة، ودّماء الملوك، ونور الآلهة، وهكذا، في تلك الليلة المقمرة، كان التاريخ يكتب سطره الأوّل في صمت، لا يسمعهُ سوى مَن يعرف صوت القدر حينَ يهمس.

الفصل التاسع عشر

قد أرخى الليل سدوله على قصر (الإسكندر) في الإسكندرية، والرياح القادمة من البحر تضرب نوافذ القصر العظيم، فتحدث نغمة مرعبة كأنّها أنين مدينة بأكملها، تئن تحت وطأة القهر والخوف، في القاعة الكبرى، حيثُ الجدران الموشاة بالذهب والرخام، وقف (بطليموس)، تشتعل عيناهُ ببريقٍ من الجنون والغضب، يزرع الأرض جيئةً وذهابًا، وصدى خطواته يرتطم بالأرضية المصنوعة من الرخام، كوقع الطبول في معركةٍ حربية.

يُمسكُ بكأسٍ من النبيذ، يهتز مع ارتجاف أصابعه الغاضبة، وفي عينيه نار لا تنطفئ، وقفَ أمامهُ (تسيس) وزيره المخلص، رجل نحيل الجسد حاد الملامح، يرتدي عباءة بنفسجية تلمع خيوطها تحت وهج المشاعل، وقفَ يتصبب عرقًا، يعلم أنَّ الملك في هذهِ الحالة لا يعرف سوى الغضب والدم، صرخ بطليموس بصوتٍ هادر.

- كُلّ شيءٍ يتآمر ضدي يا (تسيس)، كُلّ شيء، الجنود يعودون بالخيبة كالأغبياء، يقولون إنّهم لم يجدوا تلكَ المرأة ولا طفلها، هل يُعقل هذا؟

- امرأة تحمل طفلًا، تختفي في مدينة لا يتجاوز عرضها مرمى سهم؟

خفض (تسيس) رأسه بخضوعٍ وخوف، وقالَ بصوتٍ مرتجف.

- مولاي، لقد فتشنا كُلّ بيت، كُلّ كوخ، كُلّ زقاق، ولم نجد لها أثرًا، وكأنَّ الأرضَ قد ابتلعتهما!

رمى (بطليموس) الكأس أرضًا فى غضب، فتناثر النبيذ كدمٍ مسفوكٍ على الرخام، وصاح.

- ابتلعتهما الأرض؟

- لا يا (تسيس)، السماء هي مَن أخفتهما، السماء التي تكرهني، والآلهة التي لم تمنحني يومًا نصيبًا من حبها، حتّى بعد موت (الإسكندر)، ما زال ظله يطاردني، يسرق مني المجد والولاء.

اقتربَ منهُ (تسيس) بخطواتٍ حذرة.

- مولاي، الناس في الشوارع يقولون إنّكَ أمرت بقتل كُلّ الأطفال دونَ العامين، وقد أغرقت الدّماء طُرق (الإسكندرية)، لكنّهم لا يفهمون، إنّهم لا يعرفونَ حتّى الآن أنَّ ذلكَ الطفل، رُبّما يحمل إرث (الإسكندر)، وهذا ما قد يتسبب في غضبهم أكثر.

رفع (بطليموس) رأسه ببطء، وملامحه تتبدل من الغضب إلى ابتسامة قاسية.

- إرث (الإسكندر) ؟

- لا أحد يحمل إرثه سواي، لقد كنت أقربهم إليه، كنت ذراعه ورايته في المعارك، لو لم أكن أنا، لما قامت إمبراطوريتهِ من الأساس، هو اختارني، اختارني لأحكم مصر، وأنا سأجعل من هذا الاختيار افضل اختياراته.

جلسَ على العرش الملكي المصنوع من الرخام، والمُزيّن بالعاج والذهب، وأخذ نفسًا عميقًا قبلَ أنْ يهمس كمَن يُخاطب نفسه.

- ولكن، لا يكفي أنْ أكونَ وريثه في الحكم، يجب أنْ أكونَ وريثه في الموت أيضًا.

حدّق فيهِ تسيس بدهشة.

- ماذا تقصد يا مولاي؟

نهضَ (بطليموس) فجأة واندفع نحو خريطةٍ ضخمة مُعلّقة على الجدار، تظهر عليها خطوط السيطرة، وتقسيم الإمبراطورية بينَ القادة بعد موت الإسكندر، وقال.

- انظر، هُنا في بابل، حيثُ جسد (الإسكندر)، وهُنا في مقدونيا حيثُ يريدون أنْ يستقر جسده، يتنازع قادته على جثمانه ككلابٍ تنهش جيفة.
- كلٌّ منهم يُريد دفنه ليكتسب شرعية المُلك، ولكنْ أنا مَن سيخطف جسده يا (تسيس)، سأجيء بهِ إلى مصر، إلى هُنا، إلى الإسكندرية، المدينة التي بناها بيديه، وسأدفنهُ في قلبها، وعندها لن يكونَ ملكًا في موتهِ كما كان في حياته، بل سأكون أنا الملك الذي يحتضن الإله الميت.

ساد الصمت لحظة، ثُمَّ همس (تسيس).

- لكنْ يا مولاي، هذا خطرٌ عظيم، جثمان (الإسكندر) تحت حراسة مشددة، والمقدنيون لن يسمحوا بهذا أبدًا.

قاطعهُ (بطليموس) بعنفٍ صارخًا.

- سأفعلها ولو احترقت بابل عن بكرة أبيها، سأرسل فرسان الليل، وأنا على رأسهم،
- سيجلبونهُ لي سرًّا، ولن يعلم أحد أين اختفى؟
- حينها سيؤمن المصريون أنَّ (الإسكندر) قد اختارني، لأكونَ وريثه المقدس، حارس قبره ووارث مجده.

ثُمَّ ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة وهو يضيف.

- وحينها، لن يجرؤ أحد على الوقوف في وجهي، لا قادة مقدونيا ولا الكهنة ولا الآلهة ذاتها.

بينما كان (بطليموس) غارقًا في خيالاته، انفتح باب القاعة فجأة، ودخلت (أرسينوى المقدونية) أُمّه، بخطواتٍ بطيئة متثاقلة، كانت عجوزًا تكسو التجاعيد وجهها، ترتدي عباءة سوداء كأنّها خرجت من جنازةٍ للتوا، تجمّد (بطليموس) في مكانه، وانقلب وجهه إلى كتلةٍ من الحقد المكظوم، ونظر إلى (تسيس) وأشارَ إليهِ بيده.

- انصرف الآن.

انحنى (تسيس) في صمتٍ وغادر القاعة بخطواتٍ سريعة، تاركًا خلفه معركة على وشك الوقوع، وبعدما أغلق الباب، التفت (بطليموس) إلى أُمّه، وقال ببرودٍ قاتل.

- ما الذي جاء بكِ إلى هنا يا امراة؟

- ألم أقل لكِ ألّا تدخلي عليَّ دونَ إذن؟

اقتربت منهُ بخطواتٍ واهنة، وبصوتها ثباتٌ غريب.

- جئتُ أنصحكَ يا ولدي، الدماء التي تسيل في شوارع المدينة ستغرقك أنت أوّلًا، لا أحد يبقى ملكًا بعد أن تلعنهُ دماء الأطفال الذين قتلهم.

ضحك (بطليموس) ضحكةً قصيرة مجنونة حادة، وقال.

- نصيحة من امرأةٍ فشلت أنْ تكونَ أُمًّا، لقد تأخرتِ كثيرًا يا أُمّي، لقد علمتني الحياة أنَّ الرحمة ضعف، وأنَّ المُلك لا يُبنى إلّا على الدّم، لقد مات (الإسكندر) ليعلّمني هذا الدرس.

رفعت (أرسينوى) رأسها، وقالت بحزمٍ.

- (الإسكندر) ماتَ شابًا لأنَّهُ تحدّى الآلهة، وأنتَ تسير على خُطاه، توقف يا (بطليموس) قبل أنْ تصيبك اللعنة ذاتها، ارحم أولئك الأطفال، فدمهم سيلاحقك، وسيأتي يومٌ ترى فيهِ وجهك في الماء فلا تعرفه.

التفت اليها في لحظةٍ خاطفة، انقض عليها كوحشٍ هائج، قبض على عنقها بكلتا يديهِ وهو يصرخ.

- لعنتي بدأت مُنذُ ولادتي بسببكِ، أنتِ التي جعلتِ حياتي نكتة، ابن مَن أنا؟

- أخبريني؟

حاولت أنْ تتنفس بصعوبة، لا تقوى على التقاط انفاسها ودموعها تسيل، لكنّها تمتمت بصوتٍ متحشرج.

- أنتَ ابن ملكٍ عظيم، سواء كان (فيلب) أو(لاجوس)، دّم الملوك في عروقك يا ولدي.

صرخ بها.

- كذبتِ، لم أكن يومًا ابن ملك، لقد كنتُ نذيرًا للسخرية، طفلًا لا يعرف أباه، يضحك عليَّ الجميع في البلاط، حتّى (الإسكندر) كانَ يُناديني بابن اللاشيء!

ارتخت يدهُ قليلًا، فتنفست بنهمٍ الغريق للهواء، لكنَّهُ ألقى بها أرضًا بقوةٍ حتى اصطدم رأسها بالرخام، وسقطت وهي تتنفس بصعوبة، وقف فوقها يلهث، والعرق يتصبب من جبينه، ثُمَّ انحنى قليلًا، وقال بصوتٍ حاقدٍ وبارد.

- لقد كنتِ عارًا يُلاحقني طوال حياتي، والآن سأدفنكِ تحت عرشي إنْ لزم الأمر، لن تعودي سببًا لضعفي.

تراجعت (أرسينوى) وهي تزحف على الأرض محاولة النهوض، وقالت والدّماء تسيل من فمها.

- أنت تهدم نفسك يا (بطليموس)، لقد بدأ الظلام يسكن قلبك، وسينتهي بكَ الأمر وحيدًا، مثل مَن سبقوك ممَن تحدّوا الآلهة، وسفكوا الدّماء البريئة.

أشار بيدهِ نحو الباب وصاح.

- اغربي عن وجهي، اخرجي قبلَ أنْ أقتلكِ.

زحفت خارجة من القاعة، تلهث وتبكي، وصوتها يرتجف بالدعاء.

- لتشهد الآلهة على ما فعلت، لتشهد على الدّم الذي سفكته، وعلى الحقد الذي غلّف قلبك.

وقفَ (بطليموس) وحده في القاعة، أنفاسه تتلاحق، ويداه ترتجفان، ثُمَّ التفت نحو تمثالٍ ضخم (للإسكندر) قائمٍ في صدر القاعة، ونظر إليهِ بعينٍ تمتلئ بالمرارة وقال.

- حتّى بعد موتك، تظلّ تسرق الضوء مني، لكن انتظر، يا مُعلّمي، يا مَن جعلتني خادمًا في ظلّك، سأجلب جسدك، وسأجعلك راقدًا عند قدمي، وسيركع العالم أمام (بطليموس) لا أمامك.

أدار ظهره ببطء، وسار نحو النافذة المطلة على البحر، وقد أظلمت السماء تمامًا، وارتفع صوت الأمواج كأنّهُ صدىً لغضبه الداخلي!

أخذَ ينظر للبحر في الظلام، لكنْ داخل عَينيهِ تشتعل نيران الغضب، وكأنّها الجحيم المستعر!

الفصل العشرون

ليلة ثقيلة، كأنَّ السماء قد قررت أنْ تُفرغ كُلّ ما بها من غضبٍ فوق أرض الإسكندرية، المدينة التي لا تنام، يصرخ فيها البحر مع الريح، وتتماوج أمواجه كوحشٍ غاضب، خَلتْ الشوارع من المارّة إلّا من صوت المطر، وهو يرتطم بالأحجار العتيقة، ورائحة البحر الممزوجة بالملح والبرد القارس.

في زاويةٍ صغيرة من الحي القديم، كان الضوء الخافت لمصباح زيتي يتراقص داخل محل صغير لصانع الأحذية، يجلس داخله شاب فى منتصف العشرينات، عريض المنكبين، طويل القامة، ملامحه تجمع بينَ القوة والهدوء والوسامة، بشرته تميل إلى اللون القمحي، وشعره خليط من البني الفاتح والكستنائي، تتسلل خصلاته إلى جبهته في سحرٍ عفوي، أزرق العينين وكأنَّ البحرَ قد سكنهما!، يلمع فيهما بريق خفيف من الخضرة، لتبدو وكأنهما انعكاس لموج البحر في ليلةٍ مُقمرة!

جلسَ صامتًا أمام منضدتهِ الخشبية، يداه منهمكتان في إصلاح حذاءٍ قديم، لكنَّ عقلهُ شاردًا بعيدًا، المطر بالخارج بدا كأنغامٍ حزينة تطرق قلبه، ونسيم البحر البارد يتسلل من شقوق الباب ليلمس وجهه.

لم يكن سوى (فلوباتير)، الشاب الذي لم يعرف يومًا من أين جاء، ولا مَن يكونُ أباهُ الحقيقي، فقد تربى على يد الشيخ المسن الراحل (استفانوس) مُنذ كان رضيعًا، أخبرهُ دائمًا أنَّ أباهُ كانَ جنديًا شجاعًا مات في الحرب، وكانَ ملفوف في وشاحٍ تحملهُ أُمّه بينَ ذراعيها، فرعاهما مُنذُ أكثر من عشرين عامًا.

وفجأة، وسط سكون الليل وانهمار المطر، وبينما هو غارقٍ في أفكارهِ وذكرياته، سمع (فلوباتير) وقع أقدامٍ مسرعة خفيفة فوق الحجارة المُبللة، ثُمَّ تلتها صرخة أنثوية حادّة، شقت صمت المدينة كالسيف الذي يشق ثوبًا من الحرير!

رفع رأسهُ فجأة، وقد اتسعت عيناه، وقف بكُلِّ جسده ممشوق القوام، ألقى بالمغراز من يده، ودفع الباب الخشبي بقوة حتّى ارتطم بالجدار، وتدفق المطر والريح إلى الداخل، وخرج مهرولًا نحو مصدر الصرخة، ظلامٌ دامس لكنَّ البرق يشق السماء بينَ لحظةٍ وأُخرى، فينير الأزقة كنهارٍ مؤقت لثوانٍ معدودة، وهناك بينَ الومضات وسط الطريق، لمح جسد فتاة صغيرة لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، شعرها الأسود الطويل يلتصق بوجهها المُبلل بالمطر والدموع، تركض بخوفٍ رهيب وكأنَّ شياطين الجحيم تُطاردها!

وثوبها المُمزق يتشبث بجسدها النحيل، ملتصقًا بهِ مُظهِرًا فتنته.

يُطاردها خمسة رجال من جنود البلاط الملكي، سُكارى يترنحون وهم يضحكون بصوتٍ مرتفع، تتدلى السيوف على خواصرهم، ولكنّهم الآن لم يكونوا جنودًا، بل ذئاب بشرية تطارد فريستها.

تعثرت الفتاة بحجرٍ وسقطت أرضًا بفعل الأمطار والوحل، وقبلَ أنْ تنهض أمسك أحدهم بشعرها بعنفٍ فصرخت، وجرّها نحو الظل، وتوالت الأيادي تمزق عنها ثيابها، بينما البقية يضحكون، ارتفع صراخها من جديد، ممزوجًا بصوت المطر والرعد، لم يكن في المكان مَن يسمع سوى (فلوباتير).

اندفعَ كالإعصار نحوهم، جسده الممشوق يظهر جليًا برغم الظلام، صرخ فيهم بصوتٍ مدوٍ أنْ يتركوها، لكنّهم التفتوا نحوه وضحكوا، رفع أحدهم سيفه وتهكم.

- وما شأنكَ أنتَ أيُّها الإسكافي؟

- هل ترغب في الموت الليلة من أجلِ عاهرة؟

ظهر الغضب جليًا على ملامح (فلوباتير)، وبالأخص حينما نعتهُ بالإسكافي، كانَ يرتدي ثيابًا مُلطخة بالأوساخِ والأصباغ، ممّا جعل من السهل اكتشاف مهنته، وبسرعة تحرك وهبط على وجههِ بقبضتهِ كالصاعقة، فأطاح بالرجل أرضًا بضربة واحدة، لكنَّ الأربعة الآخرين انقضّوا عليهِ ككلابٍ مسعورة.

سيوفهم وهراواتهم انهالت على جسده من كُلّ صوب، شعر بالحديد يخترق جلده، بالدّماء تختلط بالمطر، بالركلات تمزق ضلوعه، بالأنفاس تضيق، ألم رهيب في كُلّ موضع تقريبًا، ولكنَّهُ لم يصرخ، فقط يئن وهو يسقط على رُكبتيه ثُمَّ وجهه وسط الماء والطين، بينما الفتاة تبكي بصوتٍ خافت، والجنود يضحكون، أحدهم بصق عليه، وقال بسخرية.

- انتهى أمر هذا المسكين، لنكمل ما بدأناه.

سقط (فلوباتير) على وجهه، جسده ممدد فوق الأرض الموحلة، المطر يغسل دّمه، والبرق يسطع ليُضيء وجهه الشاحب، لم يتخيل أبدًا أنْ تكونَ هذهِ نهايته، جسده المثخن بالجراح، شعر بحرارة الدّماء التي تغطي جروحة ووجهه، بدأ يشعر أنَّ قواه تُسلب منه، بل حياته نفسها.

بينَ وعيٍ غائبٍ وحاضر، شعر بجسد غريب يقترب، جسد أُنثوي متشح بالسواد، اقترب منهُ ومالَ إلى أُذنهِ فرأى عيناهُ تشع ببريق أزرق غريب، وكأنَّ الدفء عاد إلى عروقهِ التي بدأت تفقد الحياة، لم يعد يسمع سوى صوتٍ أنثوي، رقيق وعميق في آنٍ واحد، همس في أُذنه بصوتٍ وكأنَّهُ أحد الملائكة التي كانت تصفهم لهُ أُمّه.

- قُم يا (فلوباتير)، الإله لا يسقط أرضًا، أنت سليل الآلهة.

- أنت ابن (الإسكندر) وحفيد (آمون)، واقتربت منهُ أكثر وارتفع صوتها بحدة صارخة.

- أنتَ (السكندري).

ترددت الكلمات داخله كالرعد وسرت في عروقة، ومعها سطع البرق في السماء وكأنّها تصدّق على كلماتها!، ارتعش جسده، وفتح عيناه فجأة، كانت تشع بضوءٍ أزرقٍ متوهج، وكأنَّهُ عدوى قد انتقلت إليهِ منها، ضوء أزرق غريب، أخذ نفسًا عميقًا وشعر بطاقةٍ هائلة تسري في عروقه، حرارة كالنار، وقوة لم يعرفها من قبل.

وبينما الجنود منهمكون في جرّ الفتاة نحو الجدار، وهي تُقاتل بكُلِّ ما اوتيت من قوة، سمعوا خلفهم صوت زمجرة غريبة، استداروا، فرأوهُ ينهض ببطء، جسده مُغطى بالدمًا والماءً، وعيناه تشعان بضوءٍ أزرق غريب، قال أحدهم ضاحكًا.

- هل ما زال حيًا؟
- أم أنَّ هذا شبحه عاد لينتقم؟

لكنَّ الضحكة تحولت إلى صرخة في لحظة، تحرك (فلوباتير) بسرعة لم تكن لبشري أبدًا، كأنَّ الريح تحمل جسده بسرعتها الجنونية، انقضّ على أقربهم فانتزع سيفه من يدهِ، وغرسهُ في صدره بحركةٍ واحدة، قبلَ أنْ يدرك الباقون ما حدث، بينما الثاني يتهاوى بعد أن وجه لهُ ضربة قاضية، أسقطتهُ على الأرض والدماء تتفجر من عنقه.

الثالث حاول أنْ يهاجم من الخلف، فاستدار (فلوباتير) بخفة الفهد، وأمسك بمعصمهِ وكسره، ثُمَّ رماهُ أرضًا حيثُ ارتطم رأسه بالحائط وسكن للأبد، أمَّا الاثنان الباقيان، فقد تبادلا نظرات الرعب، إذ شاهدا شيئًا خارقًا لا مُجرّد إنسانٍ وحسب، يُمسكُ السيف كأنَّهُ امتداد لذراعه.

ركضا هاربين وسط المطر، لكن (فلوباتير) لم يتركهما، انقضّ عليهما كالصاعقة، وفي لحظاتٍ قليلة كانت الأجساد الخمسة ممددة أرضًا حوله، والدّماء تمتزج بالماء والطين، والبرق يرسم المشهد في كُلّ مرّة كلوحةٍ أسطورية بيدِ فنانٍ بارع!

وقف (فلوباتير) يلهث، جسده يقطرعرقًا ومطرًا ودمًا، عيناهُ ما زالتا تشعان بذلك الضوء الغريب، نظر إلى يديهِ فرأى أنهما ترتجفان بقوة، شعر بطاقتهِ تتصاعد داخله، كأنَّ شيئًا في كيانهِ قد استيقظ بعد سُباتٍ طويل، رفع ذراعيهِ نحو السماء، وصرخ صرخةً عظيمة خرجت من أعماقه، صرخة رجّت الأرض تحته وأيقظت مخلوقات البحر نفسه من ثباتها.

وفي اللحظة ذاتها، سطع البرق فوقه وسقط المطر أكثر غزارة، كأنَّ السماء تجاوبه، بل والإسكندرية كلها استيقظت على ميلادٍ جديد، الفتاة التي كانت ترتجف وهي ساقطة

أرضًا، تُحاول أنْ تستر سوءاتها بأشلاء ثوبها المُمزق، نظرت إليهِ بعيونٍ واسعة، وقد تجمّدت دموعها من الهلع والذعر.

رأتهُ يقف شامخًا وسط جُثث الجنود الخمسة، الضوء ينعكس على وجهه، والبرق يرسم ظلّه الطويل على الجدار، بدا كتمثالٍ من الرخام لبطلٍ أسطوري، لا أثر للضعف في ملامحه، اقترب منها ببطء، وجلس على ركبتيه أمامها، وبصوتٍ هادئ قال.

- لا تخافي، لن يؤذيكِ أحد بعدَ الآن.

كانتْ لا تزال تبكي، فمدَّ يدهُ بلمسةٍ حانية ومسح دموعها، همست بصوتٍ مرتجف.

- مَن أنت؟

تردد قليلًا، وكأنَّهُ لا يعرف الجواب، لكنَّهُ تذكر الصوت الأنثوي، وتردد صدى عباراته الأخيرة في أُذنه، فنظر للفتاة وأجاب.

- (السكندري)

- أُدعى (السكندري) .

نظرت إليهِ بدهشة، وكأنَّ الاسم غريب عليها لم تعهده، ثُمَّ نظرت إلى الجثث حولها، وقالت بخوفٍ.

- ماذا فعلت؟

- كيف، كيفَ فعلت هذا؟

لم يجبها، بل نظر إلى السماء وكأنّها تُجيبه، فالمطر يغسل الدماء عن وجههِ ويديه، والبرق ما زال يتوهج، ولكنَّهُ شعر بشيءٍ أعمق من كُلّ ذلك، إحساس غريب يجتاحه بأنَّ شيئًا أعظم يتحرك داخله، كأنَّ الكلمات التي سمعها لم تكن حلمًا بل حقيقة، وكأنَّ اسمه الآن صار يرتبط بقوةٍ لا يعلم كنهها، لم ينطق بكلمةٍ أُخرى، حملها برفقٍ بينَ ذراعيهِ وعادَ بها إلى أوّل الطريق خلع قميصه المتسخ، وضعهُ على جسدها لستر عورتها، وفي نفس اللحظة سطع البرق مرّة أُخرى، وكأنَّهُ تعمد هذا ليكشف عن جسد

مفتول العضلات، يُشبه تلك التماثيل الاغريقية التي تمثل أبطال الأوليمب، أنزلها أرضًا وأشار لها بالتحرك تجاه بعض منازل الصيادين، كانت لا تزال ترتجف من البرد والخوف، وهو يقف بجوارها يتأمل وجهها، قالت بعد صمتٍ طويل.

- لقد أنقذتَ حياتي، مَن أنت حقًا؟

صمت لفترة طويلة، ولكنَّهُ في النهاية قال بهدوء.

- لا أعلم.

قالها واستدار منصرفًا مسرعًا، هربا من أيّ سؤالٍ آخر، واختفى في الظلمات، توقف حينما شعر أنَّهُ ابتعد مسافة كافية، كانت عيناه ما زالتا تحملان بقايا الضوء الأزرق، كأنَّ الشرارة لم تنطفئ تمامًا، داخل صدره تكمن قوة تغلي كحمم بركانٍ يوشك على الانفجار، وقف تحت المطر ينظر إلى السماء، شعر أنَّ شيئًا ما في الأُفق يناديه، شيءٌ غامض وكأنَّهُ عائد ليتجدد فيه!

لم يكن يعرف أنَّ تلك الليلة ستكون بداية الأسطورة، وأنَّ الإسكندرية التي شهدت قدوم (الإسكندر) ذات يوم، تشهد الآن ميلاد وريثه (فلوباتير السكندري)، ابن (ميريت-نيت) ودم الإله (آمون)، الذي يجري في عروقه.

الآن أدرك حقيقة أصله ونسبه، عرف مَن هو.

البرق أضاء وجهه مرّةً أُخرى، وانعكس في عينيه بريق غريب، وكأنَّ القدر أشار للتاريخ أنْ يبدأ كتابة صفحة جديدة!

الفصل الحادي والعشرون

كانت الليلة تئنُّ من وطأة المطر الغزير، والريح تصفع نوافذ المدينة بأكملها وتعصف بالأشجار، لم تستطع (ميريت-نيت) أنْ تنام في هذهِ الليلة، لا تعلم السبب، لكنَّ قلبها قد أخبرها بحدوثِ أمرٍ ما، وفي نفس الوقت تقريبًا حينَ عاد (فلوباتير) إلى منزله، جسده العاري من الأعلى يقطر ماءً ودمًا، يخطو بخطواتٍ ثقيلة، تُصدرُ صدىً مكتومًا فوق الأرض الحجرية المُبللة، وكلما اقترب من باب البيت الخشبي القديم، كانت أنفاسه تشتعل بغضبٍ هادر.

دفع الباب ببطء، فصرّ بأزيزٍ مزعجٍ يُشبه الأنين، وتسللت إلى الداخل رائحة المطر ممزوجة بهبات الرياح، قد نهضت أُمّهُ من فراشها على صوته، فشعرت بشيءٍ ثقيلٍ في صدرها، قلب الأم لا يُخطئ، كانتْ تشعر أنَّ شيئًا رهيبًا قد حدث، نهضت من فراشها مسرعة، وسارت حافية القدمين نحو الردهة، والظلام يُغلّف المكان، إلّا من ضوءٍ شاحبٍ يتسلل من قنديل زيتي قديم مُعلّق بأحدِ الجُدران.

وحين وصلت، رأته يقف أمام باب غرفتها، عاري الجذع، مُلّوثٌ جسده بالماء والدم، شعره المُبلل يلتصق بوجهه، وقطرات المطر تسيل على صدرهِ الموشوم بخدوشٍ عميقة.

شهقت بصوتٍ مبحوحٍ، ثُمَّ ارتمت على صدرهِ كما لو كانَ غريقًا عاد من الموت، وضمّتهُ بكُلِّ قوتها، ودموعها تختلط بماء المطر فوق جسده، وقالت بجزع.

- (فلوباتير)، ماذا حدث؟

- تكلّم يا ولدي، لماذا كُلّ هذه الدّماء؟

ظلّ صامتًا، مُعلّقةٌ عيناهُ في الفراغ، أنفاسه متقطعة، وصدره يعلو ويهبط بعنف، وكأنَّ إعصارًا قد سكنَ داخله، مدّت يدها ترفع وجهه، تنظر إلى عينيه، فوجدت فيهما بريقًا

غريبًا، لا هو انعكاس ضوء القمر ولا وهج النار، بل نور أزرق باهت يُشبهُ وميضًا قد رأتهُ قديمًا، أعادَ النظر إليها، وصوته خرج متحشرجًا من أعماقِ الألم.

- مَن أنا؟

تجمّدت للحظة لم تفهم، ظنّتهُ يهذي، فمسحت على وجههِ وقالت.

- أنتَ ابني، فلذة كبدي، دّمي وروحي يا بُنيّ، لحم من لحمى ودم من دمى .

لكنَّ وجهه تغير، عضلات فكه تشدّت، وارتجف جسده بغضب، و فجأة دوى صوته في المكان كالرعدِ الهادر.

- مَن أبي؟!

- أخبريني مَن أبي؟

ارتجفت (ميريت-نيت)، وشعرت أنَّ الأرض تميد تحتها، عادت تلك الليلة القديمة إلى ذهنها، الليلة التي ولدت فيها هذا الطفل الغامض، وسط النيران والخوف والهرب، الليلة التي رأت فيها وجه (الإسكندر) في حلمٍ كأنَّهُ نبوءة، لم تستطع أنْ تُخبرهُ بكُلِّ هذا، خفضت رأسها إلى الأرض، والدموع تتساقط من عينيها بصمت.

اقتربَ منها ببطء، ويدهُ ترتعش من الغضب، ثُمَّ أمسكَ بذقنها، ورفع رأسها ليجبرها على النظر إلى عينيهِ المتوهجتان بالضوء الأزرق، وقالَ بصوتٍ مخنوقٍ بالغضب.

- أهو ذاك الجندي الذي قلتِ أنَّهُ مات في حرب الفرس؟

- أم أنّني ابن (الإسكندر)، سليل الآلهة؟

ارتجفت شفتاها، وسقطت دمعة على يده، ثُمَّ هزّت رأسها بخضوعٍ وألم، وقالت بصوتٍ متهدج.

- نعم، أنتَ ابن (الإسكندر)، ابن ابن (آمون)، لقد كانَ هذا قدرك يا بُنيّ من قبل أنْ تُولد.

ولم تُكمل جُملتها، فجأة دوى طرقٌ عنيف على الباب، تلاهُ صوتٌ أجشّ يصيح من الخارج.

- افتحوا الباب بأمرِ الملك، نعلم أنَّ قاتل الجنود الخمسة يختبئُ هُنا.

تجمّدا في مكانهما، ولم تمهلهما اللحظة للتفكير، انفتح الباب بعنف، واقتحم الجنود المكان، مدججين بالسيوف والرماح، أشارَ قائدهم بيدهِ وهو يصيح.

- هو ذاك الإسكافي، لقد رآهُ الصيادونَ يقتل (باسيليوس) ورفاقه.

اندفع الجنود إلى الداخل، أحاطوا (بفلوباتير) من كُلّ جانب، فيما اندفع آخرون نحو (ميريت-نيت)، ومنعوا أي طريقٍ للهروب، كان كل شيءٍ حدث سريعاً ،صرخت (ميريت-نيت) وهي تندفع نحوه.

- لا تؤذوه، إنَّهُ ابني، لا شأنَ لهُ بما حدث.

لكنَّ أحد الجنود، وقد ارتجف وأجفل من صوتها واندفاعها، رفع سيفه دونَ وعي، وغرس نصله في بطنها حتّى غمده، وهُنا توقفَ الزمن للحظات، اتسعت عيناها في دهشة، سقطت على رُكبتيها، ومدّت يدها المُرتعشة نحو ابنها كأنّها تستنجد به، بينما تسيل الدّماء وتغمر الأرض.

اتسعت عينا (فلوباتير) وأطلقَ صرخة عظيمة، خرجت من أعماقِ قلبه، كصوتِ الأرض حينَ تنشقّ أو تتصدع، أثناء ذلكَ أضاءت عيناهُ بضوءٍ أزرق أشدُّ من المرّة السابقة، حتّى أنَّ الجنود تراجعوا، وهم يغمضونَ أعينهم من شدّته.

ثُمَّ حدث ما لا يُمكن وصفه؛ إذ تحرّكَ جسده بسرعةٍ تفوق سرعة البرق نفسه، كأنَّهُ ظلٌّ من نورٍ حيّ يتحرك في المكان!، انطلقت قبضتاهُ كالصاعقة، ضرب الأوّل فطار

مترينِ في الهواء وتحطمت عظام صدره، والثاني حاولَ غرز رمحه لكنَّ (فلوباتير) أمسكَ به، وأدار جسده حول نفسهِ بسرعة، فاخترق الرمح عُنق صاحبه، أمَّا الثالث فلم يجد وقتًا ليصرخ حينَ هوى عليهِ بقبضته، فتحطم فكه وسقط يتخبط في دمه.

بينما الرابع رفع سيفه في جنون، فضربهُ (فلوباتير) بيدهِ الخاوية، فانكسرَ السيف إلى نصفين كما تنكسر العصا الجافّة، ثُمَّ ألقاهُ بعيدًا، وركلهُ ركلةً أطاحت جسده كخرقةٍ بالية نحو الجدار، فتهشّم رأسه.

بقيَ اثنان فقط عند الباب، نظر أحدهما للآخر، ثُمَّ حاولا الهرب، لكنَّ (فلوباتير) رفعَ يدهُ نحو السماء، فانبعث من كفّهِ وميضٌ أزرق صاعق، كبرقٍ أزرق رهيب خرجَ من داخله، أصابهما في لحظةٍ واحدة، فسقطا محترقين والدخان يتصاعد من جسديهما.

هدأت العاصفة في الخارج كأنّها توقفت لترقب ما حدث!

كانَ المشهد أشبه بحلمٍ غريب في عقل معاقر للخمر، يرى أسوأ كوابيسه، الأرض مُغطاة بالدّماء، بينما الجدران يرتسم عليها آثار المعركة الرهيبة، و(فلوباتير) يقف وسطهم كتمثالٍ من لهبٍ أزرق، وصدره يعلو ويهبط، والدموع تختلط بالمطر على وجهه.

ركض مسرعًا نحو أُمّه، كانت لا تزال تتنفس بصعوبة، وجهها شاحب، ودمها يُغرّق الأرض تحتها، حملها بذراعيهِ المُرتجفتين، وهرعَ بها إلى الفراش، أراحَ جسدها عليهِ بصعوبة، ومدّت يدها المرتعشة تربت على رأسه، عيناها تلمعان بحنانٍ لا يُطفئهُ حتّى الموت.

- لا تبكِ يا ولدي، لقد حانَ وقتي.

وضعَ يدهُ على فمها ليسكتها، والدمع يُغرّق وجهه، وقالَ هامسًا.

- لا تتحدّثي يا أُمّي، سيتوقف الدّم، وتُصبحينَ على ما يُرام.

لكنّها هزّت رأسها بضعفٍ، وقالت بصوتٍ خافت.

- اسمعني يا (فلوباتير)، لم يَعُد هُناكَ وقت، افتح الصندوق، ذاكَ الصندوق بجوار الفراش.

كانتْ تُشير لصندوقٍ كبير مُعدّ لحفظ الثياب والمقتنيات، أسرعَ وهو يكاد لا يرى من الدموع، فتح الصندوق القديم، فوجدهُ ملئ بالأغراض والذكريات.

وجدَ بداخلهِ وشاحًا قديمًا مهترئًا من الكتان، لونه باهت قضت السنوات المنصرمة على نسيجه.

- الوشاح، أحضرهُ إليَّ.

تناولهُ بيدينِ مُرتعشتين وعاد إليها، فتحت الوشاح ببطء، وكشفت عن قلادة مفتاح الحياة، في وسطها حجر عقيقٍ أخضر لامع، يسطع بضوءٍ خافتٍ كما لو كانَ قلبًا نابضًا، وضعتها بينَ يديه، والابتسامة ترتسم على وجهها رغم الألم، وقالت.

- هذهِ سرّ قوة الآلهة فيك، لا تتركها أبدًا، لا تبتعد عنها يا بُنيّ، فالقوة التي تملكها تنبع من هذا الحجر، ومن الدّم الذي ورثته.

حاولَ أنْ يتكلم، لكنَّ صوتهُ قد اختنقَ بالبكاء، فوضعت إصبعها على شفتيه، وقالت وهي تلهث.

- لقد صدقت النبوءة، مكتوب عليك يا ولدي أنْ تفقد كُلّ مَن تُحِبُّ بينَ يديك، لكنَّكَ لن تسقط؛ لأنَّ دّم الإله يجري في عروقك.

ابتسمت ابتسامة خافتة، ثُمَّ أغمضت عينيها بسلامٍ غريب، ولفظت آخر أنفاسها، توقفَ الزمن مرّة أُخرى، جلسَ (فلوباتير) على رُكبتيه، نهضَ وهو يحمل جسدها بينَ ذراعيه، وصدره يرتجف، رفع وجهه إلى السماء، وأطلق صرخة هائلة هزت جدران المنزل، صرخةً وصل صداها إلى جميع أنحاء المدينة، صرخة ألمٍ لا توصف.

أثناء ذلكَ انفتحت السماء برعدٍ مدوٍّ، وسقط المطر كالسيل يحاول أنْ يغسل الدّماء المتناثرة، وخارج الجدران، كانت أصوات الجنود تعلو من جديد، وقع أقدامٍ، أوامر، صراخ.

كانوا قادمين، جلبة عظيمة تُحيط بالمنزل من كُلّ جانب، نظر(فلوباتير) إلى جسد أُمّهِ ووجهها الملائكي، وهي بينَ ذراعيه، قبّلَ جبينها، ثُمَّ التقط الوشاح والقلادة، ولفها حول عنقه، شدّها بقوة، وقف وقلبه ينبض كطبول الحرب.

اتجه نحو النافذة، فتحها بعنف، والريح تضرب وجهه، المطر يغرق جسده العاري، والمدينة تلمع تحت وميض البرق، وضوء القمر يغمرها بالكامل، وينعكس على مياه الأمطار التي أغرقت شوارعها، نظر إلى الظلام والصحراء البعيدة، وقال بصوتٍ خافتٍ يقطر وجعًا.

- لن أتركِكِ هنا يا أُمّي.

قفز من النافذة، وهبط على الطريق الحجري، والماء يتطاير حوله بعنف وقوة، ركض، ركض بسرعةٍ لا تُشبه بشرًا، كان كوميضٍ يختفي ويظهر بينَ الأزقة، كأنَّهُ البرق قد قرر أنْ يهبط للأرض، ويسير بينَ أزقة المدينة، يحمل جسد أُمّه بينَ ذراعيهِ كمَن يحمل دُنياهُ كلّها.

وفي الأُفق البعيد، كانتْ الإسكندرية تئنُّ تحت وطأة وقسوة النوّة الضاربة، تتأرجح بينَ مجدٍ قديمٍ ودمٍ جديدٍ يسيل على طرقاتها.

وهكذا أغلقت تلك الليلة صفحةً من الألم، لتفتح أُخرى من قدر محتوم، قدر ابن (الإسكندر)ابن (آمون).. (السكندري)، الذي ستحملهُ الأساطير كآخر شعلةٍ للآلهة بينَ البشر.

الفصل الثاني والعشرون

حاملًا جثمانها بينَ ذراعيه، ومن فوقهِ كانتْ السماء تموج بسحبٍ ثقيلة، كأنّها تحاول أنْ تحجب وجه الأرض عن مأساةٍ جديدة تُكتب، والريح تهبّ من الغرب باردةً كصقيع الجبال تلفح وجه (فلوباتير)، وتصفع جسده العاري من الأعلى.

أخذَ يسير بخطواتٍ بطيئة فوق الرمال المبللة بالمطر، يحتضن جسدها كما يحتضن قلبه نفسه بينَ أضلعه، كانت أطراف الإسكندرية تلوح خلفه، بعيدةً كمدينةٍ من زمنٍ آخر، تغمرها أضواء البرق من حينٍ إلى آخر، بينما امتدّ الفراغ الصحراوي اللامتناهي أمامه، لا صوت فيهِ إلّا صفير الريح وأنين قلبه الذي كادَ يسمعهُ الجميع!، كُلّ خطوةٍ كان يشعر بها كطعنةٍ في صدره، وكلما تعثّر في الرمال ضمّها إليهِ أكثر، يهمس باسمها في صمتٍ كأنّها لا تزال تسمعه!

وصل إلى بقعةٍ مرتفعةٍ قليلًا، مستوية، رمالها ملساء إلّا من بعض الحصى الصغيرة، فوضعَ الجُثمان برفقٍ شديد على الأرض، كما لو كانتْ نائمة يخشى إيقاظها!

جلسَ بجانبها، عينيه لا يتوقف عن البُكاء، وشفتيه ترتعشان كطفلٍ فقدَ أُمّهُ وسط الزحام، نظر حوله، لا شيء سوى العراء والصمت، مدّ يديهِ نحو الرمال، وبدأ يحفر بيدينِ خاويتين ترتجفان، والبرد يُمزق جسده، لكنّهُ لم يشعر بأيّ شيء سوى الألم في صدره، يحفر بيديهِ العاريتين دونَ أنْ يكلّ أو يتوقف، وكأنّ قوةً خفية تدفعه.

قد التصقت الرمال بدّمائهِ وجفّت على جلده، لكنّهُ واصل الحفر بصمتٍ وإصرارٍ غريبين، مرّت الدقائق كالأعوام، والريح تشتدّ، والمطر يزداد غزارةً، وهو لا يعبأ بشيء، لم يكن يسمع إلّا صوت أنفاسه، بالإضافةِ إلى صوت الرياح من حوله، ويكأنّ الزمان قد توقف عندَ تلكَ اللحظة وحدها.

وأخيرًا، بعدما اتسعت الحفرة بما يكفي لتضمّ جسدها، جلسَ على رُكبتيه، ونظر إليها، رفع الوشاح عن وجهها ببطء، وظهرت ملامحها المضيئة تحت ضوء القمر، المُنسلّ من بين السُحب القاتمة، جميلة كما كانتْ دائمًا، وجهها هادئ كمَن غفا بعد صلاةٍ طويلة، لم يتغيّر شيء غير أنَّها لن تستيقظ مرّةً أُخرى.

انحنى عليها، وقبّل جبينها المُبلل بالدمع والمطر، وقال بصوتٍ مبحوحٍ يختلط فيه الحزن بالوعيد.

- ارقدي بسلامٍ يا أُمّي، أُقسمُ لكِ أنّني لن أترك دّمك يضيع، لن أترك (بطليموس) يعيش طويلًا بعدكِ، لن ينام في قصرهِ مُطمئنًا ما حييت، سأجعلهُ يرى الموت بعينيهِ كُلّ، وسأجعل حياتهُ جحيمًا.

مدّ يدهُ وأخذ يهيل عليها التراب شيئًا فشيئًا، ولا يَكف عن الحديث كما لو كانتْ تسمعه، أو أنَّهُ يفعل ذلكَ ليؤنسَ وحشتها قبلَ دخولها القبر.

- أتعلمينَ يا أُمّي، كنتِ تقولينَ إنَّ الإله لا يترك أبناءه، وإنَّ (آمون) يحمينا، لكنْ أينَ هو الآن؟

- أينَ هو حينَ غُرِزَ السيف في صدركِ؟!

- أينَ هو حينَ تركني أصرخ وحدي؟!

- لا بأس، لن أطلب منهُ شيئًا بعدَ اليوم، سأكون أنا يدهُ في الأرض، سأجعلهم يعرفونَ غضبه بي أنا!

- من هذهِ اللحظة سأكون أنا غضب الآلهة المُسلط على الأرض.

ازدادت حركتهُ سرعةً، وبدأ التراب يتساقط بغزارةٍ على جسدها، ومع كُلّ حُفنةٍ من الرمال، يتصاعد الغضب بداخلهِ كبركانٍ يستعد للانفجار، وقد تحولت كلماته من همسٍ إلى صراخ، من رجاءٍ إلى وعدٍ بالدّم، أخذَ يُردد وعيدهُ مرارًا وتكرارًا، وكأنَّهُ يُذكّر نفسه؛ كي لا ينسى!

- لن ينجو (بطليموس)، ولا حُرّاسه، ولا قصره، سأهدم عرشه فوقَ رأسهِ كما هدموا قلبي اليوم.

وحينَ وصلَ التراب إلى وجهها، توقف للحظةٍ وارتجفت يداه، نظر إليها للمرّة الأخيرة، والدموع تنهمر من عينيهِ بلا توقف، ثُمَّ قالَ بصوتٍ خافتٍ متهدج من البكاء.

- اغفري لي يا أُمّي، كنتِ النور الوحيد في عالمي، أمَّا الآن فقد أصبحَ طريقي مُظلمًا.

وضع حفنة التراب الأخيرة فوقَ وجهها، وقام بتسوية سطح الأرض، ثُمَّ جلسَ بجانبها طويلًا، صامتًا لا يسمع سوى أنين الريح، لم يشعر بالوقت، أخذتْ السماء تظلم وتبرق، والمطر يغسل جسده من الدّم، لكنَّهُ لم يتحرك، فقط جلسَ يُحدّق في التراب الندي، وكأنَّهُ يراها بهِ!

مدَّ يدهُ وأمسكَ الوشاح القديم، فتحهُ وأخرجَ منهُ القلادة، التي كانتْ تتوهج وتنبض في انتظام، أخذَ ينظر لها لفترة دونَ حِراك، وأخيرًا وضعها حولَ رقبته، وتوهج الحجر بضوءٍ رهيب، وفجأة، بدأت أنفاسه تتسارع، واهتزَّ جسده بشدّة، وارتجفت يداه، رفعَ رأسهُ إلى السماء، وصرخَ بأعلى صوته.

- لن ينجو أحدًا منهم، لن ينجو أحد.

ومع صرخته، سطع الضوء الأزرق في عَينيهِ من جديد، هذهِ المرّة أقوى من أي وقتٍ مضى، وهجًا يخترق الظلام، يسطع على الرمال فيُحيلها إلى لونٍ فيروزيٍّ غريب، كأنَّ الصحراء نفسها تستجيب لغضبهِ و تصطبغ بهِ.

قد تغيّرَ الهواءُ من حوله، الريح توقفت للحظة وكأنّها تُطيع أمره، ثُمَّ انطلقت تدور حوله كإعصارٍ صغير، بينما الرمال تتطاير في دوائرٍ حول جسده، رفعَ ذراعيهِ ببطء، وصدره ينتفخ، وعروق يديهِ تتوهج بالضوءِ ذاته الخارج من عينيه.

- بقوة (آمون)، أُقسمُ أنْ أجعلهم يركعونَ تحتَ قدمي.

ردّت عليهِ السماء برعدٍ عنيفٍ هزّ الصحراء، وبرقت بوميضٍ أزرقٍ أضاء الأُفق كُلّه، كانت لحظةً أسطوريةً خالصة، كأنَ الآلهة نفسها استمعت إلى نذرهِ وأجابته، ظلّ واقفًا أمامَ القبر، مرفوع الذراعين، والضوء يخرج من عينيهِ ويديه، يضرب السماء بخيوطٍ من النور وهناك في المدينة البعيدة، في الإسكندرية، شعر الناس بالاهتزاز في الأرض، وسمعوا صدى صرخةٍ مدويةٍ تشقّ الليل، كَصرخةِ إلهٍ غاضب، حتّى الحُرّاس على أسوار القصر رفعوا رؤوسهم إلى السماء في ذعرٍ، ورأوا في الأفق وميضًا أزرقًا يُشبهُ نجمًا سقط من السماء.

إنَّها صرخة (فلوباتير)، صرخة غضبٍ أطلقها وهو يقف عندَ قبرِ أُمّه، قطع وعدًا وعهدًا لا رجعةَ فيه، ثُمَّ خمد الضوء ببطء، وعاد الليل إلى صمته، وقف (فلوباتير)، عينيه ما زالت تلمعان بوهجٍ أزرقٍ من نورٍ هادئ، وجهه ساكن كوجه الموتى، اقترب من القبر، وجلس على رُكبتيهِ مرّةً أُخرى، ووضع كفّه على التراب وأمسكَ بحفنةٍ منه، وضغط عليهِ بينَ يديه، فإنسالت الرمال من بين أصابعه كالماء المتدفق!

ثُمَّ نهضَ ولفّ الوشاح حول عنقه، وبدأ الحجر الأخضر في القلادة، يلمع بوميضٍ خافتٍ مع كُلّ نبضةٍ من قلبه، أدارَ ظهره للصحراء، وسار نحو المدينة التي تتلألأ في الأُفق كوحشٍ نائمٍ، عيناهُ مُثبتتانِ على الأضواء، تحديدًا على قصر(بطليموس)، كأنَّ المسافة بينهما تختصرها النار التي في صدره، وكلما ابتعد عن قبر أُمّه، خُيِّل إليهِ أنَّهُ يسمع صوتها يهمس مع الريح.

- طريق الانتقام لا عودةَ منه.

لكنَّهُ لم يتوقف، لم يلتفت، لم يُجب، كان يعرف أنَّ صوتهُ الداخلي، ذاك النبض الأزرق الذي يسكنه، قد تغلّب على كُلّ شيءٍ فيه، لم يعد ذاك الفتى نقي السريرة البشوش، الذي يخاف من أنْ يُؤذي أحدًا، بل أصبحَ لا يخاف الموت ولا حتّى الآلهة، لقد أصبح شيئًا آخر، شيئًا وُلد من رحم المُعاناة، لا يعرف سوى الغضب، ومعَ كُلّ خطوةٍ يخطوها فوقَ الرمل، كانتْ السماء تبرق من جديد، كأنّها تُرسل لهُ أنَّ النبوءة بدأت تتحقق.

ابن (الإسكندر)، يسير الآن وحيدًا مُشبع بالغضب، نحو قدرٍ سيغير وجه مصر كلّها.

وفي الأُفق، ضرب البرق مرّةً أخيرة، ليرسم ظِلّ جسده العائد من الصحراء نحو المدينة، ظِلّ رجلٍ واحد، لكنْ ليسَ أيّ رجل.. إنَّهُ (السكندري).

الفصل الثالث والعشرون

كانتْ ليلة ثقيلة على الإسكندرية، وكأنَّ غضب الإله يُظللها، السكون يملأ أرجاء القصر الملكي، الذي كانَ بيت المجد والخلود للإسكندر العظيم في يومٍ من الأيَّام، رغم أنَّهُ لم يراه، الرياح القادمة من البحر تصفر في الممرّات الحجريّة، تحمل معها رائحة الملح ورزاز البحر، في ذلكَ الليل المُلّبد بالعواصف.

أخذَ (فلوباتير) يتسلل بخُطىً ثابتة فوق جدران القصر المُنشأ بأمرِ أبيه، دونَ أنْ يعلم أحد أنَّهُ الوريث الحقيقي، يتسلل بجسدهِ مشدود العضلات، قطرات المطر تختلط ببقايا التراب والدّم الجاف على جلده، بينما تشع عيناهُ بوميضٍ أزرق خافت، كعينَي نمرٍ يترقب فريسته، كُلّ خطوةٍ فوقَ حجارة القصر، كانتْ تحمل معهُ أنفاس الحنين والغضب والانتقام، هذا القصر الذي وُلد فيهِ حقًّا، لكنَّهُ لم يعرفهُ إلّا كعابرٍ في الظلام، وها هو الآن قادم ليُعيد ما سُلبَ منهُ ومن أُمّه.

تسلّق الجدار الأخير، وبلغ نافذة صغيرة تُطل على جناح الملك (بطليموس)؛ إذ يعلم أنَّ الطريق إلي انتقامهِ يمرُّ عن طريقِ مخدعه، جذب نفسه بقبضةٍ قوية، ودخل من النافذة في صمتِ قطٍ حذر، لكنْ ما رآهُ حينَ استقام واقفًا قُرب المخدع، لم يَكُن ملكًا نائمًا ولا حراسًا، بل امرأة.

كانتْ (برينكي)، زوجة (بطليموس) الأخيرة وأُمّ ابنه الأصغر (بطليموس الثاني)، مُمددة على الفراش العريض، جسدها العاري يلمع تحتَ وهجِ المشاعل، يختلط عطرها الفوّاح برائحة الخمر الذي تعاقره، والورود المنثورة حولَ الفِراش في دعةٍ ورغد.

ارتجف للحظة، لا من ضعفٍ، بل من المُفاجأة، أرادَ أنْ يعودَ أدراجهُ فورًا، لكنَّ الأرض تحته خانتهُ حينَ رفعت رأسها ونظرت نحوه، ومن عينيها انطلقت دهشة ممزوجة بالفضول والرغبة، صرخت بصوتٍ ناعم، مملوء بأنوثة تُذيب قلب أشدّ الرجال قسوة.

- انتظر ...

- مَن أنت؟

لم يُجبها وهمَّ بالدوران ليمضي كما جاء، لكنَّ خطواته كانتْ أبطأ ممّا ينبغي، وربُّما لمحت في عَينيهِ ذلكَ الوميض الغامض، الذي لا يُشبه عيون البشر، فنهضت مسرعة، تمسك طرف الملاءة حول جسدها، واندفعت نحوه قبلَ أنْ يبلغ النافذة، قبضت على طرف قميصه من الخلف، فتمزق بينَ يديها.

في لحظةٍ قصيرة، انكشف جذعه العريض وصدره المشدود أمامها، عضلاته اللامعة من المطر والعرق كأنّها منقوشة بيدِ الإله نفسه، تراجعت للخلف وتلاحقت أنفاسها، وانفلتت منها شهقة إعجابٍ خفيّة، اقتربت منهُ بخُطىً بطيئة، وقالت بصوتٍ أقرب لفحيح أفعى سامّة.

- أنتَ لست لصًّا، أنتَ شيء آخر، أمسكها من كتفيها بقوةٍ حتّى كادت عظامها تتفتت

بينَ يديه، وقال بصوتٍ غاضب.

- أنا مَن جاء يبحث عن الدّم لا النساء.

ابتسمت رغم الألم في كتفيها، ورفعت بصرها نحوه، وقالت.

- هكذا يقول الرجال حتّى يذوقوا نار الشهوة.

حاول الابتعاد، لكنّها التصقت به، غرزت أظافرها في جلده، ولامست صدره بأنامل قطٍ أمسكَ فريسته.

- هل تعرف مَن أكون؟

- أنا (برينكي)، زوجة (بطليموس)، أمّ ولي عهده، و...

وقبلَ أنْ تُكمل حديثها، رفع يده فقبض على عنقها بقوة، رفعها عن الأرض حتّى شهقت، واشّعت عيناهُ بالضوء الأزرق المتوهج، قال بصوتٍ يقطر غضبًا.

- إذن فأنتِ جزء من خيانته.

ابتسمت رغم اختناقها، بالكاد خرجت كلماتها متقطعة.

- إنْ كنتَ تكره (بطليموس) فخذ ما لهُ.

- ماذا تقولين؟

قالها في دهشة.

- خذني أنا، أنا ما يملك، وأنا انتقامك الحقيقي، هيّتَ لك.

همست الكلمات في أُذنهِ كسمٍّ بارد، وشعر للحظةٍ أنَّ نيران الانتقام تختلط بشهوةٍ غريبة، تشتعل في صدره، لكنَّهُ ما لبث أنْ تذكر وجه أُمّه وهي تموت بينَ ذراعيه، وتذكر الدّماء التي لطخت يديه حينَ حملها، أفاقَ من إغوائها، ورفعها بيديهِ ثُمَّ قذفها بعنفٍ نحو الجدار، فاصطدمت بهِ وسقطت أرضًا تتأوه، قال بصوتٍ كزئير أسدٍ غاضب.

- أنتِ ما يستحقهُ (بطليموس) .

ثُمَّ التفت نحو النافذة، ونظر خلفه نظرة أخيرة، والبرق يضيء نصف وجهه، وقال ببرودٍ قاتل.

- أبلغيهِ أنَّ ابن (الإسكندر) قد عاد.

وقفز من النافذة، ليختفي في ظلام الليل تحت المطر، خلال دقائق قليلة كانَ القصر يغص بالفزع، الجنود يركضون في الممرّات، والوزراء يتهامسونَ عن لصٍّ خارق القوة اقتحم الحرم الملكي، وهرب دونَ أنْ يراهُ أحد.

أحاطَ الجنود بالقصر، وأخذوا يبحثونَ عن اللص الذي فرَّ هاربًا، أمَّا هو فكانَ قد وصل إلى قاعات الخزائن، يقف أمام بابها اثنين من الجنود، وبعدَ ثوانٍ معدودة كانَ قد نجحَ في القضاءِ عليهما، وانحنى وأمسكَ أحدهم قبلَ أنْ يفقد وعيه، ورفعهُ عاليًا سائلًا إيَّاهُ وعيناهُ تشع بريقها الأزرق.

- أينَ (بطليموس)؟

- أينَ سيّدكم؟

أجابهُ الجندي في رعب، وبصوتٍ مُختنق.

- سيّدي (بطليموس) قد أعدَّ حملة سريّة بأغلب قواته العسكرية، وتوجه إلى سوريا، ليستعيدها مرَّة أُخرى.

ألقاهُ (فلوباتير) بيدهِ فاصطدم بالجدار، وسقط فاقدًا وعيه، وجدَ أنَّ الباب الحديدي ضخم جدًّا، يحتاج إلى أكثر من شخصٍ لتحريكه، لكنَّهُ لم يحتاج إلى أكثر من دفعةٍ واحدة، وضعَ يديهِ على الباب، وانطلقت من عَينيهِ شرارة زرقاء، ارتجف الحديد كما لو كانَ قد أوشكَ على الانصهار بينَ يديه! ثُمَّ تحركَ ببطءٍ حتّى انفتح صائحًا كصوتِ الموت.

دلفَ الغُرفة الخاصّة بصناديق الذهب والجواهر والتحف، التي نُهبت من المُدن اليونانيّة والمصريّة، وقفَ أمامها عاري الصدر، تتناثر قطرات الماء من شعره، وقال في سخريةٍ حزينة.

- هذا ما جمعتموهُ من طحن عظام الفقراء.

مدَّ يدهُ إلى أحد الصناديق، وأخذَ حفنة من الدنانير، قلّبها بينَ أصابعه، وقال بصوتٍ خافتٍ كمَن يتحدّث مع روحٍ غير مرئية.

- حانَ الوقت لعودة الحقوق إلى أصحابها يا أُمّي.

ثُمَّ بدأ في ملء أجولةٍ من القماش والجلد، وأخذَ منها ما استطاع، وغادر المكان دونَ أنْ يترك أثرًا.

****

السماء في الخارج تمطر بشراسة، والرعد يهزّ المدينة بالكامل، بينما يمضي (فلوباتير) مُتشحًا بالسواد، وجهه مغطّى بالكامل، ولا يظهر منهُ إلَّا عيناه المتقدتان بالضوء الأزرق، رمز قوة الإله فيه، أخذَ يسير بينَ أزقة الإسكندرية القديمة كظلٍّ أسود، لا يُرى إلَّا حينَ يلمع البرق.

توقّف أمام أوّل بيتٍ من أكواخ الصيادين الفقراء، طرق الباب طرقًا خفيفًا، خرج رجلٌ نحيل، وجهه متعب، وعيناه غائرتان، قبلَ أنْ يتحدّث أو يتساءل، وضعَ (فلوباتير) في يدهِ كيسًا من الذهب، ثُمَّ اختفى قبلَ أنْ يتكلم الرجل حرفًا، تكررت المشاهد في كُلّ بيتٍ يمرُّ به، يطرق الباب، يمدّ يدهُ بالذهب، ثُمَّ يختفي قبل أنْ تسألهُ الأرواح الفقيرة مَن يكون.

حتّى وصلَ إلى بيتٍ صغيرٍ في طرف الحي، بابه مائل وسقفه يكاد يسقط، طرق الباب، ففتحت لهُ امرأة عجوز، وجهها ملئ بالتجاعيد وكأنَّ الزمان قرر أنْ يحفر الذكريات على ملامحها، تحمل على ذراعيها طفلًا نحيلًا لا يقوى على البكاء.

نظرت إليهِ بدهشةٍ وخوف، فقالَ لها بهدوءٍ وحنوّ.

- خذي هذا، أطعمي أطفالك.

نظرت إلى الكيس فوجدتهُ يفيض بالدنانير، فانفجرت بالبكاء، وركعت أمامهُ تقول بصوتٍ متهدج.

- باركتك الاله يا ولدي، لم يدخل جوفنا إلَّا الماء فقط طيلة يومين.

اقتربَ منها، ورفعها برفق، ووضع يدهُ على كتفها قائلًا.

- لا تركعي لأحدٍ بعدَ اليوم.

ثُمَّ أدار وجههُ ليمضي، لكنّها أمسكت بطرف عباءته، وقالت بصوتٍ مُرتجف.

- مَن أنتَ يا ولدي؟

توقف، استدار ببطء، اشّع الضوء الأزرق بعينيهِ في سطوعٍ كوميض البرق، اقترب منها حتّى صارَ وجهه أمامَ وجهها، وقال بصوتٍ عميق.

- ادعوني (السكندري).

وفي اللحظة نفسها، انشقّ ظلام الليل عن برقٍ عظيم، أضاء وجهه كُلّه، ورأت فيهِ العجوز شيئًا جعلها تتراجع وتضع يدها على قلبها، كأنّها رأت أحد الآلهة أمامها!، واختفى في العاصفة، يسير تحت المطر الغزير، والماء يُغرّق جسده، لكنَّهُ لم يشعر بالبرد ولا بالخوف، وبداخلهِ نارٌ قد اشتعلت لا تُطفأ، نار الانتقام، كانَ يسمع صدى صوت أُمّه وهي تحتضر بينَ ذراعيه، وصوت (بطليموس) وهو يصرخ بالقتل وسفك الدّماء، رفعَ بصره نحو السماء، والمطر يغسل وجهه من أثر الدموع، وقالَ بصوتٍ كهزيم الرعد.

- لن تهدأ روحي حتّى أراكَ راكعًا أمام قبرها يا (بطليموس) .

أضاء البرق السماء مرَّة أُخرى، ومن بين أضواء العاصفة بدت الإسكندرية، وكأنّها مدينة عظيمة أسطورية، بحرها هائج، وبين بيوتها تصرخ الرياح.

بدأت أسطورة جديدة تنتشر في أزقة المدينة، أسطورة رجلٍ مجهول، يظهر في العواصف، يقوم بتوزيع الذهب على الفقراء، ويختفي كالشبح.

قالوا إنَّ عيناهُ تشع بضوءٍ أزرقٍ كالإله (آمون)، وإنَّهُ لا يُمسك سيف أو خنجر، ولا يُرى وجهه، وإنَّ كُلّ مَن حاول القبض عليهِ ماتَ قبلَ أنْ يراه.

قالوا إنَّهُ (السكندري)..

ابن العاصفة...

الفصل الرابع والعشرون

سَجى ليل الإسكندرية، رغم عدم رؤية أشّعة الشّمس لأيّام؛ نتيجةً لكثرة السُحب والغيوم، مطرٌ خفيف يطرق النوافذ، والبرق يُمزق السماء بينَ لحظةٍ وأُخرى، وكأنَّهُ صوت الآلهة الغاضبة!

في أحد أحياء المدينة الراقية، حيثُ تتراص بيوت اليونانيين، كان (ديوكليمنس)، المهندس الأشهر في المدينة، يجلس في مخدعهِ مُحاطًا بأوراقهِ وأدواته، يُراجع آخر تصميمٍ لمعبدٍ وعد حاكم المدينة ببنائهِ على شرف (بطليموس) العظيم، مُتعبًا، يتساقط جفناهُ بينَ يقظةٍ ونُعاس، بينما ضوء المصباح الزيتي يتراقص على الجدران الحجرية.

تمطّى قليلًا فوقَ فراشه، أطفأ المصباح، وأغمض عَينيهِ مُحاولًا مقاومة ضجيج العاصفة في الخارج، لكنَّ البرق لمع فجأة فملأ الغرفة بضوءٍ أبيضٍ خاطف، انعكس على الجدران ورسم ظلًا بشريًا طويلًا في الزاوية المُقابلة للفراش، ظنّ في البداية أنَّهُ وهم الضوء، لكنَّ الظِلّ لم يتحرك مع انطفاء البرق، بل بقيَ ساكنًا، كما لو كانَ ينتظره.

فتح (ديوكليمنس) عَينيهِ عن آخرهما، تجمّدَ الدّم في عروقه، حاول النهوض، لكنَّ الصوت الذي خرج من الظلام كانَ كفيلًا ليُجمّدهُ في مكانه.

- لا تتحرك.

كانَ الصوت عميقًا، كأنَّ صاحبهُ يتحدّث من وراء جدارٍ من الحجارة، أو من داخل معبد أثري قديم، ارتعد قلب المهندس، حاول الصراخ، لكنْ وقبلَ أنْ ينطق كانَ الشبح أمامهُ في لحظة، يضع يدهُ القوية على فمه، ورائحته الممزوجة بالتراب والمطر تملأ المكان، وهمس في أُذنهِ قائلًا.

- لا تخف، لن أُؤذيك، أحتاجكَ في عملٍ هام، وسأكافئك بسخاء.

ثُمَّ ألقى بشيءٍ عند قدميه، فإذ بها سُرّة تحملُ نقودًا، وبمُجرّد أنْ سقطت أرضًا فانفتحت على الأرض، وتناثرت منها عشرات العملات الذهبيّة، تتلألأ تحت ضوء القمر الضعيف، المتسرب من النافذة القريبة، اتسعت عينا (ديوكليمنس)، وتلاشى بعض خوفه أمام بريق الثروة، وتمتم بصوتٍ مرتجف.

- ما، ما الذي تُريدهُ منّي؟

اقترب الشبح، فظهرت عيناهُ فقط، من خلف الوشاح الذي يغطي وجهه، وقال ببطءٍ حازم.

- أُريدكَ أنْ تشيّد مبنًا ضخمًا، لكن سرّيًا.

تراجع (ديوكليمنس) خطوة، رفع حاجبيه بدهشة.

- ضخم وسرّي؟!

- كيفَ ذلك؟! البناء يحتاج إلى رجالٍ ووقتٍ وخامات، فكيف تُخفي كُلّ هذا؟

أجابهُ الشبح بصوتٍ حادّ ولهجةٍ لا تحتمل النقاش.

- سيكون تحت الأرض، لن يراهُ أحد.

اتسعت عينا (ديوكليمنس) في دهشةٍ أكبر، وتساءلَ مغمغمًا.

- تحت الأرض؟!

- ولماذا هذا البناء السرّي؟ ما غايته؟

اقتربَ منهُ الشبح حتّى صار وجهه على بُعد أنفاسٍ منه، وقال.

- إنَّهُ قبر.

لمع البرق مرّة أُخرى، فانعكس الضوء على وجه الشبح، الذي لم يَكُن سوى (فلوباتير).

- قبر؟ لمَن؟

قالها (ديوكليمنس) بصوتٍ خافتٍ متردد.

- لم يُجبهُ (فلوباتير)، بل أدار ظهره نحو النافذة، وقال.

- ليسَ لكَ أنْ تعرف، كُلّ ما أُريدهُ أنْ يكونَ قبرًا لا مَثيلَ لهُ على وجهِ الأرض.

صمت المهندس لحظة، ثُمَّ تمتم.

- هذا سيكلف كثيرًا.

ضحكَ (فلوباتير) ضحكةً قصيرةً خافتة، ومعها تعالت دقات قلب (ديوكليمنس) من الرعب، فأشارَ إلى الكيس الذهبي عند قدميه، وقال.

- هذا جزءٌ يسير من أجرك، والباقي ينتظرك حينَ يكتمل البناء.

تردّد (ديوكليمنس) للحظات، وكأنَّهُ يُقارن بينَ حجم المخاطرة بالذهب، ثُمَّ قال.

- سأفعل، لكن أحتاج إلى عُمّالٍ أقوياء، وخامات كثيرة وبعضها نادر.

- ستحصل على كُلّ ما تريد.

قالها (فلوباتير) وتابع.

- و سأجلب لك خمسة رجالٍ فقط، ولن يغادر أحدكم الموقع حتّى يُنجز العمل.

كانت الجملة الأخيرة كافية لتُثير قشعريرة في جسد المهندس، لكنَّهُ لم يملك أنْ يرفض؛ فالذهب الذي رآهُ كانَ كفيلًا بأنْ يُخرس ضميره، وإلى الأبد.

****

لم يَدرِ كم من الوقت مرَّ بعد ذلك، فقد وجد نفسهُ في ظلامٍ حالكٍ لا يُرى فيهِ شيء، حاول تحريك يدهُ فشعر بعصابةٍ سميكةٍ على عينيه، وصوت رياحٍ يصفع أُذنيه بقوة، كأنّها صراخ شياطين الجحيم من حوله، لم يكن يسير، بل يطير بسرعةٍ رهيبة، كأنَّ الرياح تحملهُ من الأرض، حينَ توقّف كُلّ شيء، سمع صوت الشبح المتسربل بالأسود يقول بالقُربِ من أُذنه.

- لا تخلع العصابة حتّى آمرك.

بعد لحظاتٍ من الصمت، قال له.

- الآن.

نزع العصابة بيدينِ مُرتجفتين، وأغمض عَينيهِ لوهلةٍ من وهج المشاعل المشتعلة في المكان، وحينَ فتحها مجددًا، شهق بدهشةٍ عظيمة، لقد كانَ في باطن جبلٍ ضخم، أو كهفٍ عميقٍ تتلألأ جدرانه؛ بفِعلِ الرطوبةِ التي تُغطي الحجارة القديمة، في كُلّ ركنٍ مشاعل مضيئة، ويتوسطهُ أكوامًا من الأحجار الضخمة، والرخام، والجرانيت، والخامات التي لا تُرى إلَّا في قصور الملوك، حولهُ خمسة رجالٍ سُمر البشرة، أشدّاء البنية، يقفونَ في صمتٍ تام، ويكسو الخوف ملامحهم، تلفت حوله، وقالَ مذهولًا.

- كيفَ جلبت كُلّ هذا إلى هُنا؟!

من زاويةٍ مظلمةٍ في الكهف، جاءهُ صوت (فلوباتير) بهدوء.

- لا وقت لهذهِ الأسئلة، لتبدأ العمل فورًا.

لكنَّ (ديوكليمنس) لم يستطع كبح فضوله، وتابع وكأنَّهُ لم يسمع العبارة الأخيرة.

- وكيفَ وصلتَ إلى هنا؟! لقد شعرت أنّني أطير، كأنَّ الرياح كانتْ تحملني!

وفجأة وجد نفسه مُلقىً على الأرض، ويدٌ حديديّة تُمسك بعنقه، وصوتٌ غاضبٌ يدوي في أُذنه.

- أخبرتُكَ أنْ لا تسأل!

انبعثَ الضوء الأزرق من عيني (فلوباتير)، فأضاء وجهه كقناعٍ من لهب، وكاد قلب المهندس أنْ يتوقف من الرعب، لم يحرّك أحد من العمال ساكنًا، حتّى حينَ تركَ (فلوباتير) عنقه، وتراجع إلى الركن المظلم ثانيةً، وقال بهدوءٍ بارد.

- والآن إلى العمل.

لم يحتاج (ديوكليمنس) إلى تكرار الأمر، نهضَ سريعًا وجففَ عرقه، وبدأ بإعطاء الأوامر للعُمّال، يرسم على الأرض خطوط البناء الأولى.

****

مرّت الأيّام بطيئةً وثقيلة، والعمل يجري على قدمٍ وساق، لم يعرف (ديوكليمنس) كيفَ كانَ الشبح يجلب لهم الطعام والشراب والخامات؟!

إذ كانَ يختفي لساعاتٍ وأحيانًا لأيّام، ثُمَّ يعود ومعهُ كُلّ ما يحتاجونَ إليهِ.

لم يرَ أحدٌ منهم ضوء النهار، ولم يسمعوا سوى صوت المعاول والمطارق، وصوت أنفاس (فلوباتير) من بعيد، وهو يُراقبهم بصمت، وبعدَ شهرٍ كاملٍ من العمل المتواصل، حينَ اكتملت الأعمدة الضخمة والتماثيل المنحوتة ببراعة، وقفَ (ديوكليمنس) أمامَ القبر المهيب الذي أنجزوه، كانَ مذهولًا ممّا رآه، لم يتخيّل أبدًا أنْ ينتهي العمل في هذا القبر، ويخرج بهذا الشكل الإعجازي.

بوابة حجرية هائلة، محفورٌ عليها رموز تجمع بينَ اللغتين الهيروغليفيّة واليونانيّة، تتوسطها عَينٌ مفتوحة (حورس)، تحرس مدخلًا يؤدي إلى قاعةٍ فسيحةٍ تحفّها تماثيل الآلهة، في قلب القاعة ضريحٌ من الرخام الأبيض، تعلوهُ قبةٌ مذهبةٌ تنعكس أضواء المشاعل عليها.

وفي صدر القاعة، انتصبَ تمثالان عظيمان رجلٌ بجسدٍ ممشوقٍ ووجهٍ مهيب، تكسوهُ ملامح القوة والخلود، يحتضن امرأةً فائقة الجمال، ملامحها مصريّة رقيقة يشع منها الحنوّ والسلام، كانا (الإسكندر) و(ميريت-نيت).

وقفَ (فلوباتير) أمام التمثالين طويلًا، صامتًا، كأنَّهُ قد دخل بحديثٍ صامتٍ معهما أو مع أرواحهما، اقتربَ منهُ (ديوكليمنس)، وقالَ بصوتٍ خافتٍ متردد.

- إنَّهُ أعظم ما صنعت يداي، لم أرَ شيئًا مثله في حياتي.

لم يُجيب (فلوباتير)، فقط رفع بصره نحو وجهي التمثالين، ثُمَّ قالَ ببطءٍ وهدوء.

- وصلنا إلى المرحلة الأخيرة، والتي ليس لكم شأنٌ بها.

استدار نحوهم، وأخرج خمسة أكياسٍ من النقود الذهبية من حول خصره، ألقاها عند أقدام العُمّال، ومعها عصابات سوداء لأعينهم، ثُمَّ أخرج كيسين آخرين أكبر حجمًا، ناولهما إلى (ديوكليمنس) مع عصابةٍ أُخرى، وقالَ بصرامة.

- ضعوها على أعينكم جميعًا الآن.

تبادلوا النظرات في خوف، لكنَّ أحدًا لم يجرؤ على الرفض، وضعوا العصابات، وبينما لا يزال (ديوكليمنس) يُحاول أنْ يسأل شيئًا، سمعَ صوت ريحٍ عنيفةٍ تزمجر حولهم، شعرَ أنَّ الأرض تختفي من تحت قدميه، وأنَّ الهواء يسحبهُ بقوةٍ خارقة، حتّى كاد يصرخ، ثُمَّ لم يعد يسمع شيئًا سوى الصمت، حينَ فتحَ عينيه، كانتْ الشَّمس تشرق على أطراف المدينة، وكانَ واقفًا في الصحراء على مشارف الإسكندرية، حوله العُمّال الخمسة مذهولون، وكُلّ واحدٍ منهم يُمسك الكيس الذهبي، الذي ألقاهُ لهم الشبح المتسربل بالأسود، قال أحدهم وهو يرتجف.

- أينَ نحن؟ ماذا حدث؟

نظر(ديوكليمنس) حوله، فلم يجد أثرًا لأي طريق، أو أثرٍ للأرض التي كانوا فيها، لا كهف، ولا بناء، ولا حتّى أثرٌ للرياح التي حملتهم، كأنَّ المكان ابتلعهم ثُمَّ لفظهم في مكانٍ آخر!، همسَ (ديوكليمنس) في نفسه.

- كأنَّهُ حلم أو أنَّ ذلكَ الشبح لم يَكُن موجودًا أبدًا.

ثُمَّ رفع بصره إلى السماء، حيثُ ما زال وميض العاصفة يلوح من بعيد فوق البحر، وقال بصوتٍ خافتٍ يرتجف.

- وهل الأحلام تعطي ذهبًا؟!

هبّت رياح خفيفة ضربت وجهه، فتابع مغمغمًا.

- مَن أنتَ أيُّها الشبح الغريب؟

- من أينَ أتيت؟

لكنَّ السؤال ظلَّ بلا إجابة!

الفصل الخامس والعشرون

كانت ليلة ساكنة إلَّا من أنين الريح الباردة، وهي تمرّ على أطراف الصحراء الغربية للإسكندرية، تلكَ الصحراء التي هي عبارة عن حائط الدفاع عن أرض مصر، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، كانَ (فلوباتير) يسير بخُطىً بطيئة، يحتضن بينَ ذراعيه جثمان أُمّه (ميريت-نيت)، وقد غطّى جسدها بوشاحٍ أبيضٍ ناصع، كأنَّما أرادَ أنْ يحفظ طهارتها من دنسِ العالم.

وجهه غارق في الدموع، وصدره يعلو ويهبط كمَن يكتم صرخة ألمٍ في داخله، والبرق البعيد يلمع في الأُفق، فيضيء وجهه الحزين لحظةً بعدَ لحظة، وكأنَّ السماء تشهد على حزنه الأبدي وتواسيه!

توقفَ عندَ مدخل المقبرة الجديدة، التي بناها سرًّا بيديهِ وبجهد الشهور الماضية، تلكَ المقبرة التي كانت تحفة معماريّة خفيّة تحت الأرض، جدرانها من الجرانيت الأسود، اقتربَ بخطواتٍ متثاقلة، ووضع جثمان أُمّه على الأرض برفقٍ كمَن يضع قلبه نفسه، جلسَ بجانبها قليلًا، يمرر أصابعهُ على وجهها الهادئ، وقد تجمّدت الدموع على وجنتيها، كأنَّها ما زالت تبكي على مآسي الدُّنيا!

شرعَ في رفع غطاء التابوت الضخم، كانَ عبارة عن حجرٍ كبيرٍ ضخم، يحتاج إلى عشرة رجال يتمكنوا من زحزحتهِ فقط، ولكنَّهُ نجحَ في ذلكَ منفردًا، وقد التصقَ الرمل بذراعيه، ودموعه تختلط بالغبار، لكنَّهُ لم يشعر بشيء، وحينَ انتهى من رفع الحجر، جلسَ قليلًا أمامها، يتأمل الجسد الساكن، ثُمَّ همسَ بصوتٍ متهدج.

- أُمّي، يا مَن لم تعرفي يومًا سوى الحُبّ والرحمة، كم قستْ الدُّنيا عليكِ، وكم تألمتِ لأجلي، كنتِ تُخبريني دائمًا أنَّ الظلم لا يعيش، وأنَّ الحقَّ سيعود ولو

بعد حين، وها أنا، يا (ميريت-نيت)، أعودُ إليكِ بعدَ كُلّ هذا الزمن، ولكنّكِ لا تسمعين، ولكنْ أعدُكِ أنّني سأجمعكِ بأبي مرّةً أُخرى وهُنا إلى جوارِكِ.

أخذَ نفسًا عميقًا، ومرر يده على وجهها، الذي يُغطيهِ وشاح الحرير الأبيض، ثُمّ تابعَ قائلًا.

- حينما كُنتُ طفلًا كنتِ تخبريني إنني ابن النور، وإنّ في عينيّ سرًّا يخافهُ الأشرار، لكنّني اليوم يا أُمّي، لا أرى في عينيّ إلّا اللهب، لهب الغضب الذي لن يخمد حتّى أرى (بطليموس)، عندَ قدماي يطلب الرحمة، سأنتقم لكِ، ولأبي الذي لم أره، وسأعيد للعالم عدله المفقود، أُقسمُ بذلك.

أعادَ غطاء التابوت إلى مَوضعهِ فوقَ جسدها الطاهر، وصوته يرتعش كأنّهُ يُناجيها!

- سامحيني يا أُمّي لم أستطع إنقاذك، لكنّني سأحفظ اسمكِ حيًّا في الأرض والسماء، سيعرف كُلّ مَن تطأ قدمه هذهِ الأرض مَن كنتِ، وماذا فعلتِ؟

أثناء ذلك، لمعَ الوهج الأزرق المهيب من عينيه، برغم الدموع التي تُغرّقها، ضوء لم يَكُن يُشبه النار، بل طاقة غامضة تُشبه غضب الآلهة، رفعَ ذراعيهِ إلى السماء، وأطلقَ صرخة مدوية هزّت أرجاء الصحراء، صرخة امتزجت فيها المأساة بالغضب، حتّى كأنَ السماء نفسها اهتزّت، وانطلقت طيور الليل مذعورة من أعشاشها، كانَ صدى الصرخة يتردد حتّى وصلَ أطراف الإسكندرية، فظنَّ الناس أنَّ البحر هدر في جنون، ولم يُدرك أحد أنّها البداية، بداية عهدٍ جديد.. عهد (السكندري).

****

بعدَ أيَّام، بينما كانَ القمر ينساب بضيائهِ على شرفات قصر (بطليموس)، القصر الذي كانَ في الأصل قصر (الإسكندر) نفسه، وقد سلبهُ (بطليموس) لنفسه، بينَ الأعمدة المزخرفة وجدران القاعة العظيمة، التي تحمل لوحات الإله (آمون) والإسكندر المتوّج، أخذَ الظلام يزحف بخفة، حتّى تسلل جسد متشح بالسواد إلى الداخل، لا يُسمع لهُ وقع قدم، وكأنَّهُ قطٌ حذر يتسلل للانقضاض على فريسته.

لقد قررَ (فلوباتير) تنفيذ الجزء الثاني من وعدهِ لأمّه، عزم أنْ يستعيد جسد أبيه من مقبرة (بطليموس)، التي كانَ قد بناها وألحقها بالقصر؛ ليُعطي شرعية لحكمهِ بامتلاكه جسد (الاسكندر).

أتى (فلوباتير) اليوم ليأخذ جسد أبيه، ليضعهُ في المقبرة الضخمة التي أعدّها لهُ بجانب أُمّه، تسلل بخفةٍ عبر الممرات، حتّى وصلَ إلى قاعة الحراس، وهُناكَ ثلاثة جنود يتجاذبون أطراف الحديث، لم يُدركوا أنَّ الموت يقف على بُعد خطواتٍ منهم.

في لحظةٍ واحدة سطعَ برق أزرق، اختفى (فلوباتير) من مكانهِ وظهر خلفهم، لم يُمهلهم ثانية واحدة، كانتْ يداهُ كالعاصفة، والبرق يشتعل من عَينيهِ، سقطوا صرعى دونَ صراخ!

دخلَ القاعة الكُبرى حيثُ ضريح (الإسكندر)، كانتْ الزخارف من حولهِ، تُشبه المعبد أكثر من كونها مقبرة، والجدران مرسومة بنقوشٍ تُمجّد (بطليموس) لا هو، وكأنَّ التاريخ أُعيد كتابته بيدٍ مُزيفة.

وقفَ (فلوباتير) أمامَ التابوت الزجاجي الشفاف، الذي بدأ داخله جسد الإسكندر العظيم، ساكنًا كتمثالٍ من ذهب، لا زالَ وجهه جميلاً، مهابًا، كأنَّ الموت لم يقدر أنْ ينتزع منهُ العظمة التي وُلد بها!، اقتربَ (فلوباتير) بخطواتٍ بطيئة، جاثيًا على رُكبتيه أمامَ الجسد، ومدَّ يدهُ يلمس الزجاج، وهمس.

- أبي، يا مَن لم أرَ وجهك، ولم أعرف دفء يديك، حينما كان من المفترض أنْ تُمسكَ بكفي الصغير، ومع ذلكَ سكنت في داخلي روحك.

- قالوا إنَّكَ إله، وقالوا إنَّكَ ملك، لكنني أراكَ الآن جسدًا صامتًا ككل البشر، كم تمنيت أنْ أراكَ حيًّا، لتعرف أنَّ دّمكَ لم يذهب سُدى، وأنَّ ابنك الذي وُلد في الخفاء، عاد ليمنحكَ الخلود الحقيقي، لا في التماثيل، بل في القلوب.

انهمرت دموعه وتهدجت أنفاسه، كأنَّ الهواء ثقيل من كثرة المشاعر، لكنْ فجأة وبينَ كُلّ تلكَ المشاعر والانفعالات والدموع، سمع خلفه حركة خفيفة، أشبه بصوت خنجر يُسحب من غمده، استدارَ بسرعةٍ خاطفة، فرأى فتاة شابّة ذات جمالٍ خلّاب ترتدي زيًّا كهنوتيًّا مصريًّا، وجهها مضيء بالنورالمقدس، وعيناها تشعان بالعزيمة، كانتْ تمسك بخنجرٍ صغيرٍ منقوش عليهِ رموز الآلهة (ماعت)، اقتربتْ منهُ في خفةٍ وهدوء، ثُمَّ انقضّت عليهِ بكُلِّ قوتها.

تفاداها (فلوباتير) بخفة، لكنّها كانتْ عنيفة كَلبؤة تدافع عن أشبالها، دارت بينهما معركة صامتة وسط الظلام والبرق، خنجرها يلمع في يدها وأكثر من مرّة يقترب من صدره، وهو يتراجع متفاديًا الضربات دونَ أنْ يحاول إيذاءها، صاحت في وجههِ بغضب.

- لن تسرق جسد الإله، سأموت قبلَ أنْ أسمح لكَ بتدنيس قبره!

قال بهدوء وهو يتراجع للخلف.

- أنا لا أُريدُ تدنيسه يا ابنة المعبد، أُريدُ إنقاذه.

لم تكن تستمع إليهِ من الأساس، وانقضّت عليهِ مجددًا، فاضطر إلى الإمساك بمعصمها في حركةٍ سريعة، سقط الخنجر من يدها، وجدت نفسها أسيرة قبضته الحديديّة، سقطت أرضًا وهو فوقها، يقيّدها بذراعيهِ كي لا تؤذيه، دمعت عيناها، وصرخت قائلة.

- إذًا اقتلني، اقتلني ولن أُقاومك، ولكنْ لن أدعكَ تأخذ سيّدي!

توقف لحظة وهو ينظر إلى عينيها، ثُمَّ قالَ بهدوء.

- مَن أنتِ؟

- ولماذا تدافعينَ عن الجسد بكُلِّ هذا الولاء؟

أجابت بصوتٍ متهدج من الانفعال والبكاء.

- أنا (أموس)، كاهنة الإله (الإسكندر)، وحارسة قبره مُنذُ أنْ دفنهُ الملك (بطليموس)، أقوم كُلّ فجر برفع البخور والصلوات أمامه، وأقدم القرابين كي تبقى روحه مطمئنة، لن أسمح لأحدٍ أنْ يسرقه، حتّى لو كان من إله السماء نفسها.

تجمّد (فلوباتير) لوهلة، نظر إلى عينيها، فرأى فيهما الصدق والإيمان، والولاء الذي لا يتزعزع، ابتسمَ وقال.

- (أموس)، أنا لا أُريدُ سرقته، بل أُريدُ أنْ أُعيدهُ إلى مكانهِ الحقيقي، إلى المقبرة التي أُعدّت له، وإلى مَن ينتظرهُ هناك.

أطلت الحيرة من عينيها فسألته.

- مَن تكون أنت؟

اقترب منها، فشعّ الوهج الأزرق من عينيه، وشعرت كأنَّ الهواء حولها قد تحرك فجأة، وقالَ بصوتٍ ثابت وقوي.

- أنا (فلوباتير) ابن (الإسكندر)، أحملُ دّمهُ بينَ عروقي وثنايا قلبي.

شهقت الفتاة ووضعت يدها على فمها، لا تصدق ما تسمع وهمست كمَن يرى شبحًا.

- ابن الإسكندر؟!

- ولكنْ كيف؟

- وُلدتُ من رحم مصريّة، من (ميريت-نيت)، التي قتلها جنود (بطليموس) بدمٍ بارد.

تراجعت (أموس) خطوة، والدموع تتجمع في عينيها، نظرت إليهِ طويلًا، ثُمَّ قالت بصوتٍ خافت.

- إذًا أنت الوريث الحقّ، ابن الملك وابن الإله.

أجابها وهو ينظر نحو الجسد داخل التابوت.

- وسأُعيدهُ إلى مكانهِ المعدّ لهُ، وسأدفنهُ بجانب مَن أحبّها (ميريت-نيت).

اقترب من التابوت، ومدَّ يدهُ، فانفتح الغطاء الثقيل ببطء، رفع الجسد بهدوء، كأنَّهُ يحمل كنزًا لا يُقدّر بثمن، ثُمَّ التفت إلى أموس وقال.

- تعالي معي، ستُرافقيني.

- إلى أين؟

تساءلت بدهشة، فأجابها بهدوء.

- إلى مقبرتهِ الحقيقيّة، إلى المكان الذي أعدّهُ لهُ القدر.

****

تسللت (أموس) بصُحبةِ (فلوباتير) في الظلام، بينَ دهاليز الإسكندرية القديمة، يحملان جسد الإسكندر ملفوفًا بحريرٍ ملكي، كانتْ الأمطار قد بدأت بالهطول بغزارة، والبرق يضيء الطريق أمامهما، وصلا إلى الصحراء، يشقانِ طريقهما بينَ الرمال نحو المقبرة السريّة، وقفَ (فلوباتير) أمامَ المدخل المدفون بحضن إحدى التباب.

دخلا والمشعل الذي تُمسكهُ (أموس) انعكس ضوءه على الجدران الحجرية للنفق الصخري، وحينما وصلا للداخل كانتْ المقبرة تبدو وكأنّها عالم آخر .

في وسطها، كان القبر المزدوج ينتظر، منحوتًا من حجرٍ أسود صقيل، على غطائهِ نقش يصوّر (الإسكندر) يحتضن (ميريت-نيت)، في مشهدٍ خالد يُجسد الحُبّ الأبدي.

اقتربَ (فلوباتير) بخُطىً بطيئة، وضعَ الجسد بجانب أُمّه، ثُمَّ جلسَ على الأرض، وبدأ يُحدّث أُمّه من جديد بصوتٍ متهدج.

- أُمّي، لقد عُدت، لم أعد وحدي الآن، جئتُ ومعي مَن أحببتِه، مَن كانَ لكِ النور والحياة، انظري إليهِ، لقد عاد إليكِ، كما وعدتكِ.

ثُمَّ التفت نحو جسد (الإسكندر)، وقال.

- وأنتَ يا أبي، ارقد بسلام، فابنك سيحمل رايتك، وسيُعيد مجدك، ولكنْ ليسَ بالسيف، بل بالعدل الذي سُلب منكما.

كانتْ (أموس) تقف خلفه في صمت، والدموع تنهمر من عينيها، أنهى عبارته، واقترب من الحجر الضخم، وأمسكهُ بكلتا يديه، واشتعلت عيناهُ بالضوء الأزرق، وتحرك الحجر ليغلق التابوت على قاطنيه، تراجع للخلف، ووقفَ أمام العبارة التى تُزيّل قاعدة التمثال الضخم.. "هُنا يرقد (الإسكندر) العظيم، ومحبوبته (ميريت-نيت)، في حضن ابنهما (فلوباتير)، وريث الإله".

أمَّا عن الخارج فقد كانَ الليل عميقًا، لكنَّ في داخلهِ وُلد فجرٌ جديد.. فجر (السكندري).

الفصل السادس والعشرون

بينَ صحراءٍ ساكنة ونجوم تتلألأ فوقَ رمال الصحراء، كأنّها آلاف الجواهر المنثورة، وفي عُمق الجبل، حيثُ اختفى القبر الضخم، كانتْ (أموس) تقف أمام الضريح المقدس، الذي يحتضن جسد (الإسكندر) العظيم و(ميريت-نيت)، ترفع يديها وتُتمتم بصلواتٍ خافتة، كأنّها تعزف ألحانًا بفمها، كانت ترتدي ثوبها الكهنوتي الأبيض المطرّز بخيوطِ الذهب، وقد انسكب ضوء المشاعل على وجهها، فزاد من تورد بشرتها وجمالها.

ومن خلفها وقفَ (فلوباتير) يُراقبها بصمت، كانَ يظنّ أنَّ قلبهُ الذي لم يعرف إلَّا الغضب والانتقام، لا يُمكن أنْ يُسكنهُ غير لهيب الانتقام، لكنْ في تلكَ اللحظة، وبينَ أصداء تراتيلها، شعر بشيءٍ مختلف، شعور غريب يتسلل إلى صدره، يهدئ عاصفة الألم بداخله، ويملأ قلبه بخدرٍ حلو، لم يختبرهُ من قبل.

كانتْ (أموس) تتحرك في خشوعٍ بطيء، وكُلّ إيماءةٍ من يديها كَرقصةٍ مقدسة، راقبها وهو يتنفس ببطء، أحسّ أنَّ أنفاسهُ تتلاحق مع أنفاسها، وأنَّ نبضه يسير على إيقاع خطواتها.

كانتْ تُشعل البخور أمام الضريح، والدخان يتصاعد ملتفًا حولها، مُعطيًا هيبة ووقار للمشهد ككل، لم يعد يرى شيئًا سوى وجهها المضيء، وعيناها التي تُشبِهُ ليل مصر حينَ يُوشك على الفجر، غمغمَ بخفوت، وقال وهو يُراقبها.

- يا للآلهة!
- أهذهِ هي الروح التي أيقظت النور في قلبي من جديد؟
- أهذا هو الحُبّ الذي لم أعرفهُ قط؟

لقد عاش حياته كلها يبحث عن الانتقام، يدفن الرحمة بعد ما دفن أُمّه، لكنَّهُ الآن يقف أمامها عاجزًا، أسيرًا، كأنّها تُمسك بيدهِ التي تربط قلبه بالعالم، حينَ انتهت من الصلوات، وقفت ساكنة للحظة، ثُمَّ استدارت ببطء، كأنّها تشعر بأنَّ أحدًا يُراقبها، التقت عيناها بعينيه، كانت المسافة بينهما قصيرة، لكنّها بدت كَمسافةٍ بينَ عالمين، عالم من النور وآخر من الظلال.

ظلّا هكذا، لا كلمة، لا حركة، فقط نظرات تتكلّم عن كُلّ ما لا يُقال، اقترب منها بخطواتٍ مترددة، وكُلّ خطوة كانتْ تصارع قلبه الذي يخفق بجنون، توقفَ أمامها، نظر إلى وجهها الغارق بنور المشاعل، فابتسمت ابتسامة خفيفة، زادت من جمالها أضعافًا مُضاعفة، قالَ بصوتٍ مبحوحٍ كأنَّهُ يخاف أنْ يكسر الصمت.

- كُنتِ تُصلّينَ لهما وبرغم ذلكَ شعرتُ أنَّكِ تُصلّينَ لي.

ابتسمت (أموس)، وقالت، وهي تخفض عينيها في خجل.

- هذهِ صوات الربّة (ماعت)، كُنتُ أُصلّي لكُلّ مَن حملَ الألم في قلبه، واحتفظ بالحُبّ رغم الجراح.

اقتربَ أكثر، رفع يدهُ ببطءٍ وأمسكَ بيدها، ورفعها حتّى لامس أصابعها، كانتْ يدها باردة كالثلج، لكنَّهُ شعر بنارٍ تجري في عروقهِ حينَ لمسها، نظر إليها طويلًا، ثُمَّ همس.

- لا أعلم ما بي يا (أموس)، لكنني حينَ أنظر إليكِ، أشعر أنّني حيٌّ للمرّة الأولى.

نظرتْ إليهِ نظرة خجولة، وعيناها تشع بريق العشق، وقالت.

- رُبما أرادت لكَ الآلهة أنْ تذوق طعم الحياة، قبلَ أنْ تسير في طريق الدّم والانتقام.

اقتربَ منها أكثر حتّى صار يسمع أنفاسها، ورائحة البخور المنبعثة من شعرها تغمره، رفعَ يدها إلى شفتيه، وقبّلها برفقٍ كَشيءٍ مُقدس يخشى تدنيسه بشفاهه، وهمسَ بصوتٍ خافت.

- يا (أموس) لو علمتِ كم أطفأتِ من نارٍ بداخلي.

ابتسمت في صمتٍ وهي تغمض عينيها، كأنّها تُسلّم لهُ قلبها دونَ خوف.

في تلكَ اللحظة تغيّرَ كُلّ شيء، الزمن توقف، والمقبرة التي كانتْ دار موت، أصبحت فجأة موطن حياةٍ جديد.

****

أثناء ذلكَ وفي قلب قصر (الإسكندر)، كانتْ العواصف تهدر داخل الجدران كما تهدر في السماء، عادَ (بطليموس) من حملته في سوريا ليجد الفوضى في قصره؛ أبوابًا مُحطمة، حرّاسًا مذعورين، والأدهى من ذلك، اختفاء جسد (الإسكندر)، وجزء ضخم من كنوز وأموال الخزانة الملكيّة، دخلَ إلى قاعتهِ الكُبرى ثائرًا، عروقه تنتفخ، وصوته يرعد كهدير الرعد، يصيح في وجه القادة.

- مَن ذلكَ الجبان الذي تخاذل وسمح بتدنيس القبر؟

- أينَ كنتم؟

- أينَ كانتْ أعينكم؟

انحنى القادة أمامهُ مرتجفين، يتلعثمونَ في الكلام، لا أحدَ يجرؤ على النظر في وجهه، وفجأة، انفتح باب القاعة بهدوء، ودخلت (برينكي) زوجته الأخيرة، بثوبٍ حريريٍّ أحمر، وشعرها بنفس اللون المنسدل على كتفيها، كأنَّهُ لهيب نار مُتقدة، تقدمت بخطواتٍ واثقة، وبوجهٍ مرسومٍ بينَ ملامحهِ المكر والدهاء، قالت بصوتٍ ناعم كفحيحِ أفعى تبث سمومها.

- لا تلومهم يا مولاي، إنَّ اللوم لا يقع على هؤلاء المسكين، بل على رئيس جُند قصرك، الذي سمح لذلكَ الشبح أنْ يدخل قصرك ويخرج منهُ حيًّا، ذاكَ الذي يدعونهُ في الأزقة (السكندري).

التفت إليها (بطليموس) بحدّة، وقال.

- ماذا تقولين؟

اقتربتْ منهُ بخطواتٍ بطيئة، ثُمَّ تابعت.

- نعم يا مولاي، لقد رأيتهُ بعيني، مُتشحًا بالسواد، وجهه لا يُرى، وعيناهُ تشعّان بوهجٍ أزرق، تسللَ إلى مخدعي، حاولَ أنْ ينالَ منهُ ما لا لأحدٍ سواك،

وكنتُ سأهلك لولا أنَّ الآلهة أنقذتني، لكنَّهُ لم يسرق فقط الذهب، بل سرق جسد (الإسكندر) نفسه.

سادَ الصمت بالقاعة، ثُمَّ صرخَ (بطليموس) غاضبًا، واستلّ سيفه من غمدهِ بصرخةٍ مروعة، واندفع نحو قائد الحرس، وضربهُ في صدرهِ ضربةً واحدة اخترقت قلبه، فأسقطهُ صريعًا، والدّم يتفجر من صدره، بينما تجمّدَ القادة في أماكنهم؛ خشية أنْ تكونَ رقابهم هي التالية.

ارتمى (بطليموس)على عرشه، يلهث، وعيناه تقدحان نارًا من الجنون، اقتربت منهُ (برينكي)، وضعت يديها على كتفيه، ثُمَّ همست في أُذنه كالأفعى ذات الجرس.

- سيدي، لا يمكننا أنْ نُظهر ضعفنا للناس، لو علموا أنَّ جسد (الإسكندر) سُرق، فستنهار هيبتنا، أعلن أنَّ الجسد نُقلَ بأمركَ إلى مقبرةٍ سريّة، لا يعلم مكانها أحد سواك، حمايةً لهُ من الأعداء.

رفعَ رأسهُ نحوها، وقالَ بصوتٍ متحشرج.

- وماذا عن الشبح؟

ابتسمت بخُبث، وقالت.

- اصنع لهُ فخًّا يا مولاي، الناس يتحدّثون إنّهُ يظهر في أحياء الفقراء، ويوزع عليهم الأموال المسروقة من خزائنك.

إنّهم يسمونهُ (السكندري)، ويقدسونهُ كأنَّهُ بطلٌ أرسلتهُ إليهم الآلهة، أرسل رجالنا إلى هناك، يتظاهرونَ بأنّهم من العامّة، يُراقبونهُ بصمتٍ حتّى يقودهم إلى مخبئه، وهناك نُمسك به، ونُقطّعهُ كما تُقطّع الأفعى، التي رفعت رأسها في وجهك.

ظل (بطليموس) صامتا للحظة، ثُمَّ ارتسمت على وجههِ ابتسامة شيطانيّة، وقال.

- فكرةٌ رائعة، كما توقعت منكِ دائمًا يا (برينكي).

استدار إلى جنودهِ رافعًا صوتهُ وآمرًا.

- أيُّها القادة، بدءًا من هذهِ الليلة، ستنطلق فرقة من مائتي رجل من خيرة الجنود، ينتشرون في أحياء الفقراء كالأشباح، يُراقبونَ كُلّ حركة، وكُلّ همسة.
- مَن يرى ذلكَ المدعو (السكندري)، فليتبعهُ في صمتٍ بلا صوتٍ ولا ضجيج، حتّى نعرف أينَ يختبئ، وأينَ يضع جسد (الاسكندر)؟
- وبعدها سنحرقهُ حيًّا؛ ليكونَ عبرةً لكُلّ مَن تسوّل لهُ نفسه أنْ يلمس إرث (الإسكندر).

انحنى القادة وهم يرتجفون، بينما كانت (برينكي) تبتسم، وفي عينيها بريق ذئب حاصرَ فريسته، وفي اليوم التالي، صدر مرسوم ملكي أعلن فيهِ (بطليموس) أنَّ جسد (الإسكندر) الأكبر نُقل إلى مقبرةٍ ملكيّةٍ جديدة، لا يعلم مكانها إلّا الملك نفسه؛ لحمايتهِ من العابثين.

انتشرت الأخبار بينَ الناس كالنارِ في الهشيم، لكنَّ الحقيقة أنَّ رجال (بطليموس) قد انتشروا في كُلّ حيٍّ فقير، يُراقبون في صمتٍ، ينتظرون ظهور (السكندري)، لم يطول انتظارهم كثيرًا، ففي إحدى الليالي المظلمة، وبينَ أزقة إحدى الأحياء الفقيرة، كانَ (السكندري) يسير في صمتٍ، مُتشحًا بالسواد، لا يُرى منهُ سوى عينيه، يحمل على كتفهِ كيسًا من النقود، ويطرق أبواب الفقراء، واحدًا تلو الآخر، يوزع عليهم الذهب والاموال قائلًا.

- هذا حقّكم لا صدقة.

كانتْ العيون تبكي شكرًا، والقلوب تدعوا لهُ بالسلام، وهو يمضي دونَ أنْ يلتفت، لم يكن يعلم أنَّ العيون التي تُراقبهُ بامتنان، بينها عيون أُخرى تُراقبهُ بخبثٍ ودهاء من بعيد، خلف جدران المنازل، كانَ رجال بطليموس يتعقبونهُ في صمتٍ حذر، يتحركون بخفة الذئاب، لا يصدرون صوتًا، ولا يتركونَ أثرًا.

أنهى (فلوباتير) جولته، ووقفَ عند أطراف المدينة، حيثُ بدأت الرمال وانتهت الطرقات، رفع بصره إلى السماء، فكانت الغيوم تتلبد إيذانًا بعاصفةٍ جديدة قريبة، انطلق بخطواتٍ ثابتة داخل الصحراء، يشق طريقه وكأنَّهُ يحفظ الرمال والتباب عن ظهرِ قلب، والظلال تتبعهُ من بعيد، لم يكن يعلم أنَّ خلفه الآن أكثر من مئتي رجل، يُحيطونَ بهِ في صمت، ينتظرون اللحظة التي يصل فيها إلى مكانهِ السرّي، كانتْ الخطة أنْ يتركوهُ حتّى النهاية، حتّى يصل فيدخلوا خلفه كالسيل.

وصلَ إلى المدخل الحجري المنحوت في باطن الجبل، المكان الذي يقود إلى المقبرة، وقفَ أمامه، تلفت خلفهُ في نظرةٍ سريعة، وما أنْ اطمأن أنْ لا أحدَ هناك، عبرَ مدخل الكهف الحجري، وبينما اختفى جسده في الظلام، بدأت الذئاب البشرية تتجمع، مئتا رجلٍ مسلح، يقتربونَ في خفاءٍ تام، كانت الريح تعصف، والرمال تدور حولهم كأنّها تطلق تحذيراتها منهم وإليهم!، قالَ قائدهم بخفوتٍ، وهو يُشير إلى الداخل.

- هذا هو المكان المنشود، استعدوا، لن يخرج أحدٌ منّا قبلَ أنْ نحمل رأسهُ إلى مولانا (بطليموس).

ثُمَّ تحركوا ببطءٍ، كأشباحٍ تنزلق نحو الجحيم، لا يعلمونَ أنّهم يسيرونَ إلى قدرٍ أسود، وأنَّ ما ينتظرهم في الظلام ليسَ رجلًا، بل عاصفة من الغضب والدّم والقدر، في الداخل، بينَ جدران المقبرة المضيئة بنور المشاعل، يقف (فلوباتير) أمامَ (أموس) التي استقبلتهُ بابتسامةٍ دافئة، اقتربَ منها واحتضنها بينَ ذراعيه، وفقدَ الإحساس بالزمان والمكان؛ إذ وجدَ في حضنها الأمان.

الفصل السابع والعشرون

كانتْ المقبرة مُضاءة بمشاعل منتشرة في كُلّ مكانٍ تقريبًا، تتراقص ظلالها على الجدران كأطيافٍ من الماضي، والهواء المُحمّل برائحة البخور والرماد يزيد المشهد اِثارة، اقتربتْ منهُ (أموس) حتّى التصقت بجسده، وضعت يدها في يديهِ برفق وقالت بصوتٍ خافت.

- (فلوباتير)، يا حبيب الروح، لم تعد وحدك، أنا معك.

نظرَ في عينيها، وكأنَّ صوتها أيقظهُ من غيبوبة الألم، كانتْ عيناها واسعتين تلمعان تحت ضوء المشعل، وملامحها تحمل من الحنان ما يكفي ليُطفئ نيران الغضب والانتقام، التى تشتعل في صدره.

لم ينطق بكلمةٍ واحدة، فقط اقتربَ منها أكثر حتّى باتت أنفاسهما مختلطة، ولم يكن بينهما سوى الصمت، والهدوء الذي يسبق العاصفة، مدَّ يدهُ المرتجفة ولامسَ وجهها، شعر بدفئها ينساب إلى داخله، كنسمةٍ خفيفة سرت في عروقهِ فأصيب بالخدر!

أغلقت (أموس) عيناها، وأدركت أنَّ الزمنَ قد توقف، وأنَّ العالم قد انحصر بينَ قلبين لا يرى أحدهما سوى الآخر ،انحنى نحوها ببطء، كأنَّ كُلّ لحظة تمرّ، هي آخر ما تبّقى لهُ في الحياة، ولامست شفتاهُ شفتيها في قُبلةٍ امتزجت فيها كُلّ مشاعر الفقد، والحُبّ والرجاء.

كانتْ لحظة من النور وسط ظلامٍ دامس، لحظة وُلدتْ من رحم الموت نفسه، وكأنَّ أرواح والديهِ تُبارك هذا اللقاء في صمت ،أحاطت جسدهُ بيديها، كأنّها تُريد أنْ تحميه من كُلّ شيء، أنْ تحجز عنهُ العالم بأسره، وفجأة دوى صوت أقدام كثيرة، وارتج المكان تحت وقع الخطواتٍ الثقيلة.

ظهرَ أمامهم في الأُفق عدد هائل من الجنود، دروعهم تعكس ضوء النار، وسيوفهم تشّع ببريق الموت، تجمّدت (أموس) في مكانها، أمّا (فلوباتير) فاستدار يتفحصهم بنظره، عيناهُ تشتعلان بوهجٍ غريب، لم يكن يعلم من أينَ جاء كُلّ هؤلاء، ولا كيفَ وصلوا إلى أعماق المقبرة؟، صرخَ في وجههم.

- مَن أنتم؟

- كيفَ تجرؤون على تدنيس هذا المكان؟

لكنَّ الرد كانَ مُجرّد صيحاتٍ عسكرية، وتعالى صوت الأسلحة، وهي تُسحب من أغمادها، تراجع للخلف، وهو يمدّ ذراعيه ليحمي (أموس) خلف ظهره، كانَ قلبهُ يخفق بعنف، لكنَّ ملامحه لم تُظهر سوى الصلابة، حاولَ أنْ يُحدد من أينَ سيبدأ الهجوم، لكنَّ العدد كانَ يفوق الخيال، صفوف متراصة، أحاطوا بهما في دائرةٍ كاملة.

انطلقت الصيحة الأولى، وبدأ الجنود بالهجوم من كُلّ الاتجاهات، واشتعلت المقبرة بصوت الضربات، كانتْ السيوف تلمع في الهواء، وصوت صليلها يصم الآذان، هوت أغلب الضربات على الجدران الحجرية وأرضية الكهف، والرماح تخترق الغبار قبلَ أنْ تلامس جسده، حاولَ (فلوباتير) أنْ يتلقى الضربات بجسدهِ ليحميها، كانتْ كُلّ طعنة تُصيب لحمه تُشعل فيهِ نارًا جديدة من الغضب والألم، لكنَّ عددهم كبير جدًّا، أكثر ممّا يستطيع أحد، حتى وإنْ كانَ ابن إلهٍ أنْ يُجاريهم.

استولى على أحد السيوف من قتلاه، سيفه تحرك كالعاصفة، يضرب يمينًا ويسارًا، يصد الهجمات، لكنَّهُ كان يقاتل وحدهُ ضد طوفانٍ من الموت، الدّماء تلطخ الأرض تحت قدميه، وحرارة القتال تخنق أنفاسه، والعرق يمتزج بدمائه، حتّى غدت ملامحه غارقة في الحُمرة، كان يسمع أنين (أموس) خلفه، وصوت صراخها يُمزق نياط قلبه، ومع كُلّ طعنة يتلقاها، يشعر أنَّهُ يبتعد عنها أكثر.

وفي لحظة، نفدت قوته، سقط على رُكبتيهِ من الألم، وسيفه انغرس في الأرض بجانبه، بينما أنفاسه تتقطع، ونظره يتشتت بينَ وجوه الجنود المُحيطة به، لكنْ قبلَ أنْ يسقط تمامًا، أحسَّ بحركةٍ خلفه، التفتَ فرأى (أموس)، هذهِ الفتاة التي نجحت في ردّ الحياة له، قد اندفعت نحوه بكُلِّ شجاعة.

أحاطت بهِ بجسدها الضئيل، وكأنّها تصنع درعًا من لحمها لتحميه!

صرخ فيها أنْ تبتعد، لكنّها لم تسمع، كانتْ السيوف تنهال من كُلّ اتجاه، حتّى اخترقت جسدها الطعنات واحدة تلو الأُخرى، وغطّى الدّم ثوبها الأبيض، وتحولت إلى لوحةٍ من الدّماء، سقط جسدها على الأرض، ويدها ما زالت ممدودة نحوه، اقتربَ منها زاحفًا على رُكبتيه، احتضنها بينَ ذراعيه، وصوت أنفاسها المتقطعة يوشك أنْ يخبو.

نظرت إليهِ بعينين يختفي منهما بريق الحياة شيئًا فشيئًا، وابتسمت ابتسامتها الأخيرة، التي حفرت في قلبهِ إلى الأبد، حاولَ أنْ ينطق باسمها، لكنَّ الكلمات خرجت مبحوحة، وكأنّها تموت معها، توقفَ الزمن تمامًا في هذهِ اللحظة، لا صوت، ولا حركة، فقط دماؤها تسيل على الأرض، لتكتب لعنة جديدة في حياة (السكندري).

وفجأة، اشتعل بريق أزرق في عينيه، ولكنَّهُ مختلف تمامًا هذهِ المرة، كانَ البريق أقوى من أيّ شيءٍ رآهُ من قبل، كأنَّ طاقة من عوالم أُخرى اندفعت داخله، قوة النور كانتْ كفيلة، بأنْ تجعل الجنود يتراجعونَ للخلف من رهبةِ المشهد، أصواتهم تعالت بالفزع، والسيوف ارتجفت بينَ أيديهم، اعتدل مُنتصبًا ببطء، رغم الجراح التي تُغطي جسده بالكامل، الدّماء تسيل من كتفيهِ وذراعيه، لكنَّهُ لم يشعر بأيّ ألم.

كانَ كائنًا آخر، مخلوقًا من الغضب لا يطلب سوى الانتقام، قبض يديهِ بقوة، وانحنى للخلف وأطلق صرخة مدوية، صرخة لم يعرف لها البشر مثيلًا، ارتج لها الكهف بالكامل، وتصدعت جدرانه.

دَوتْ الصرخة كَانفجارٍ ضخمٍ في مركز المكان، خلخلت الهواء نفسه، فارتدت موجاته عن الجدران، وتطايرت أجساد الجنود كأنّها أوراق أشجار مُتساقطة في عاصفةٍ هوجاء.

انطفأت كُلّ المشاعل فجأة، وساد ظلام رهيب، ظلام لا يخترقهُ إلّا وهج عينيه الأزرق، الذي أضاء المقبرة كلها كوميض البرق، تعالت صرخات الجنود، بينَ ألمٍ وفزع، بعضهم يحاول الهرب، وآخرون يسقطون في أماكنهم بلا حراك، وكأنَّ قوة غامضة تمزقهم من الداخل!

كانتْ ضرباته سريعة، لا تُرى، وكأنَّ حيوانًا مفترسًا جائعًا قد أُطلق سراحه بعد ألف عام من الحبس، الدّماء تملأ المكان، تصطدم بالجدران الحجرية، وصوت العظام وهي تتحطم يتردد في الأرجاء، وفي دقائق قليلة فقط، كانَ كُلّ شيءٍ قد انتهى.

وقفَ (السكندري) أمامَ الكهف، جسده مُغطى بالدّماء، وعيناه لا تزال تشتعل بذلكَ النور القوي، يحمل بينَ ذراعيهِ جسد (أموس)، التي أحبّها أكثر من الحياةِ ذاتها، وخرج بها إلى فناء الكهف، حيثُ هبّت رياح الليل الباردة تلفحهُ كأنّها تُعزيه.

سقط خائر القُوى على رُكبتيه، رفعَ رأسهُ نحو السماء، والدموع تختلط بالدماء التى تغطى جسده، ثُمَّ أطلق صرخة أشدّ من الأولى، صرخة كسرت صمت الليل وتردد صداها في كُلّ أرجاء الإسكندرية.

اهتزت الأرض تحت المدينة، وسقطت بعض التماثيل الضخمة من على قواعدها، وظنَّ النّاس أنَّ زلزالًا ضربها.. ثُمَّ سكنَ كُلّ شيء.

****

مرّت الأيَّام والأعوام تباعًا، بينَ بعض الأقوال وبينَ الكثير من الصمت، اختفى (السكندري) كما ظهر، في البداية بحث الناس عنهُ كثيرًا، وانتظره الكثيرين، سُرَّ القليل بإختفائهِ ولكنْ في ليلةٍ كئيبة سوداء، كثيرة الغيوم والأمطار، وبعدَ مرور ثمانية وعشرونَ عامًا -تقريبًا، من تلكَ الليلة المشئومة.

وفي قصر (الإسكندر)، كانتْ العاصفة تضرب المدينة، والبرق يشق السماء في نوّة عنيفة، لم تشهدها الإسكندرية من قبل، الرياح تصرخ في النوافذ، والأمواج ترتطم بسور الميناء، والمدينة كلها غارقة في ظُلمةٍ موحشة، في داخل القصر نفسه، كانَ (بطليموس) راقدًا على فِراش المرض، جسده واهن، أنفاسه ثقيلة، والعرق يتصبب من جبينه.

قد أكلَ المرض من قوتهِ حتّى شبع، وتركهُ هيكلًا لعظامٍ قد نخرها السوس، وبينما هو يُحدّق في سقف غرفته، الذي يُصوّر لوحة للإله (زيوس)، وهو يمدّ يدهُ للأرض، سطع البرق لحظة، فأضاء الغرفة كلها، كانتْ هذهِ اللحظة كفيلة أنْ يُدرك، ورأى على النافذة ظلًا أسودًا يقف شامخًا.

ظلٌ كأنَّهُ جزء من الظلام نفسه، لا ملامح لهُ سوى عينين تلمعان في الظلام، كعيون السنوريات!

تجمّدَ (بطليموس) ولم يُحرك ساكنًا من المرض قبلَ الخوف، حاولَ أنْ يتكلم، لكنَّ الكلمات علقت في حلقه، ومع ومضة البرق التالية، كانَ الشبح داخل الغرفة، يمشي بخطواتٍ بطيئة ثابتة، صامتة كأنّها خطوات الموت نفسه، ظلَّ ينظر إليهِ دونَ حديث، حتّى نطق أخيرًا (بطليموس) بصوتٍ واهن.

- لقد جئتَ متأخرًا كثيرًا.

اقتربَ الشبح أكثر، حتّى صار يقف أمامَ فراشهِ مباشرة، ثُمَّ قالَ بصوتٍ هادئ.

- خيرٌ لي أنْ آتي مُتأخرًا من ألّا آتي أبدًا.

رفعَ (بطليموس) عَينيهِ المرتجفتين إليه، وقال.

- مَن أنت؟

- أأنتَ مَن أرسلوهُ لقتلي؟

ابتسمَ الشبح، ثُمَّ رفعَ يدهُ ببطءٍ إلى القناع الأسود، الذي يُغطي وجهه، وسحبهُ ليكشف عن ملامحه، كانَ وجه (فلوباتير)، وهو قريب الشبه بأبيهِ (الإسكندر)، مع اختلافٍ بسيط، هو أنَّها تحمل الكثير من الألم والغضب، عيناهُ لا تزالان تشتعلان بالوهج الأزرق، كأنَّ اللعنة لم تُفارقهُ البتة!، ارتجفَ (بطليموس) وهو يهمس.

- أنت!

- مُستحيل، لقد ماتت أسطورتكَ مُنذُ زمن.

اقتربَ (فلوباتير) حتّى كاد أنْ يُلامسهُ وجهه، وقال.

- أنا ابن (ميريت-نيت) زوجة (الإسكندر)، التي طردتها من قصر زوجها، وطاردتها في الأرضِ كلها، وأرسلتَ رجالك لقتلي طفلًا وشابًّا، جئت لأخذ ثأر أبي وأُمّي منكَ يا (بطليموس).

ضحكَ (بطليموس) بصوتٍ متقطع، ضحكة ممزوجة بالسعال والدّم، ثُمَّ قالَ وهو يلهث.

- لن يحدث، لا أحد يقدر على قهرِ (بطليموس)، لا بشر حتّى لو كانَ ابن إله!

ثُمَّ سعل بعنف، وتناثرت الدّماء من فمه، وانهار رأسه للخلف ولفظ أنفاسه الأخيرة، وقفَ (فلوباتير) صامتًا للحظة، ينظر إلى جسدهِ الميّت، ثُمَّ سقط على رُكبتيهِ من سُخرية القدر، وبكى كما لم يبكِ من قبل، صرخ صرخةً حادّة جعلت جدران القصر تتشقق، وسقف الغرفة يهتز.

اقتربَ من جسد (بطليموس)، وجدَ بينَ يديهِ مجموعة من المخطوطات القديمة، مُتمسك بها وكأنّها ملاذهُ الأخير في الحياة، مُعنونة عنوان بخطٍ واضح،"تاريخ حملات الإسكندر"، تأملها لحظة، ثُمَّ قبضها بيده، أدركَ أنّها لم تعد تخص (بطليموس)، وتقدم إلى النافذة المفتوحة، الرياح تصفع وجهه، والبرق يضرب السماء في الخارج، نظر خلفه إلى الجسدِ الميّت، ثُمَّ قالَ بصوتٍ خافت.

- حتّى بعدَ كُلّ هذا يا (بطليموس) لم أنال انتقامي.

قالها وقفز في الظلام، واختفى بينَ العواصف، تاركًا خلفه القصر؛ ليُعلنَ النهاية.. نهاية تلكَ الحِقبة.

الفصل الثامن والعشرون

الزمان: عام ٣١ قبلَ الميلاد.

الرياح تهب من البحر الأدرياتيكي مُحمّلة برائحة صدأ الحديد، وأدخنة اللهب المشتعلة في بعض السُفن، هدير الأمواج يتصارع مع صهيل الخيول، وصراخ الجنود فوق شواطئ خليج أكتيوم، في قلب هذا الجحيم كانتْ (كليوباترا)، الملكة التي جمعت بينَ حكمة المصريين، وسحر الأنثى وجمال اليونانين، تقف في شرفة قصرها المُطلّ على البحر، ترتدي ثوبًا من الكتان المُذهب، وعيناها تُطلّ منهما نظرات القلق، لا يُشبه خوف النساء المُعتاد، بل خوف ملكة على عرشها.

يقف (مارك أنطونيو) إلى جوارها، الرجل الذي عشقها كما لم يعشق أحد، وأضاع من أجلها مجد روما وجيوشها، كانتْ نظراته تائهة بينَ البحر والسماء، وبينَ حُبّهِ وكبريائه، وبينَ الواجب والضياع، في أسفل القصر، يقف ذلكَ الجندي صامتًا، مُتشحًا بعباءةٍ سوداء، ملامحه حادّة كالصخر، وعيونه تُخفي خلف هدوئها بريقًا، وكأنّهُ يحملُ أسرار العالم أجمع.

إنّهُ (سِريلينوس)، قائد جيوش الملكة (كليوبترا)، قبلَ أنْ يظهر (مارك انطونيو) في حياتها، خادمها الأمين وناصحها المُخلص، قد أطلقَ عليهِ الجنود (السكندري)، الرجل الذي يتناقلونَ عنهُ القصص كأنّها أساطير، يقولونَ إنّهُ لا يموت، وإنّهُ قاتلَ في معارك لم يخرج منها بشر أحياء!، كانَ مُساعد (كليوباترا) ومستشارها العسكري، لكنّهُ أكثر من ذلكَ بكثير، يحمل حكمة لا تتفق مع سنوات عُمرهِ التي لا تتجاوز الأربعين، يملك عيون ذات نظرة غريبة، تشعر حينما تنظر فيهما بوهجٍ يكاد يشتعل، وهج أزرق هادئ ،اقتربَ منهُ أحد الضُباط، وقالَ بصوتٍ حذر.

- مولاي (السكندري)، الأوامر من (أنطونيو) واضحة، نتحرك غدًا لمهاجمة أسطول (أوكتافيان) في خليج أكتيوم.

لم يرفع السكندري عينيه أو ينظر لمُحدّثه، فقط قال بهدوءٍ.

- أوامر رجلٍ لا يعرف البحر، ولا يعرف الحرب، البحر ليسَ روما، والسيوف لا تُطيع الغرور الإيطالي.

حاولَ الضابط أنْ يعترض، لكنَّهُ صمت حينَ لمح في عَينيهِ اللمعة الزرقاء الخافتة، التي لم يرها بشر دونَ أنْ يشعر بقشعريرة تسري في عروقه، فانصرفَ مُبتعدًا، حينَ دخل (السكندري) على (كليوباترا)، كانتْ تقف أمام خريطة ضخمة تمتد على الطاولة الرخاميّة، تتأمل خطوط المعركة بقلق، بينما (أنطونيو) يجلس على مقعدٍ وثير، يشرح بخطوطٍ حمراء خُطّتهُ للهجوم، نظرَ (السكندري) إلى الخريطة، ثُمَّ رفع رأسه، وقالَ بهدوء.

- إنّها خطة فاشلة مولاتي، البحر ليس مكاننا، نحنُ لسنا أهل بحر، أسطول (أوكتافيان) أقوى، وعدد سفنه أكبر، والرياح ضده اليوم لكنّها ستكون معهُ غدًا، يجب أنْ ننتظر، نجرّهُ إلى البر، هناك قوتنا.

رفعَ (أنطونيو) رأسهُ بغضب، وقال.

- أنا لا أحتاج نصائح من تابع مصري، لا يعرف كيفَ تُحكم الإمبراطوريات؟

توترت الأجواء في الغرفة، نظرة (السكندري) كانتْ كفيلة بإسكات عشرة ملوك، لكنَّهُ تمالك نفسه، وقال.

- الإمبراطوريات لا تُبنى بالغضب، بل بالدّماء التي تعرف أينَ تُسكب، إنْ دخلتَ البحر فلن تعود.

(كليوباترا)، بعينيها المتوترة ونظراتها المترددة، نظرت بينَ الرجلين، كأنّها بينَ نارين، بينَ حُبّها الذي أعماها، وبينَ صوت العقل الذي تُحاول أنْ تصم أُذنيها عنه، قالت بصوتٍ خافت.

- (سِريلينوس)، أنتَ تُبالغ، (أنطونيو) يعرف الحرب، وهو من رجال قيصر، لا تنس هذا.

اقتربَ منها خطوة، وقالَ بلهجة أكثر حدّة.

- أنت تقولينَ مثله، وها هو الآن يُكرر خطأ قيصر، البحر لا يُحبُّ المتكبرين يا مولاتي، أنا أُقاتل مُنذُ سنوات، ورأيت الجيوش تسقط لأنَّ قادتها عشقوا أنفسهم أكثر من بلادهم.

نظرت إليهِ مُطولًا، لم تفهم ماذا يعني بـمنذ سنوات؟، لكنَّ شيئًا في داخلها كانَ يُثير الخوف، رفعت يدها، وأشارت لهُ أنْ يُغادر، حينَ خرج، سمع خلفه صوت (أنطونيو) يضحك بصوتٍ عالٍ.

- هو لا يفهم أنَّ الحرب ليستْ أرقامًا، بل شجاعة، الشجاعة يا (كليوباترا)، هي التي صنعت روما!

مرّ الليل طويلًا، والبحر يعكس وجه القمر مثل درعٍ فضيٍّ هائل، يقف (السكندري) عندَ شاطئ الإسكندرية، يتأمل الموج المُتلاطم، وبداخلهِ يسمع صوت ضميره يُخبرهُ.

كم مرّةً حاربت من أجلهم؟

كم مرّةً صدقت أنَّ أحدًا منهم يستحق القنال من أجله؟

لم يُجب، فقط رفع عَينيهِ إلى السماء، وقال بهمسٍ لا يسمعهُ أحد.

- ربّاهُ، متى تنتهي هذهِ اللعنة؟

ومع صباح اليوم التالي، بدأت المعركة، السماء رماديّة، وكأنّها ترفض أنْ ترى الدّماء التي ستهرق تحتها، صفوف السُفن المصريّة، تصطف في مواجهة الأسطول الروماني، الرايات تتمايل مع الرياح، وصوت الأبواق يعلو كهدير الوحوش البحرية، التي تستعد للخروج من المياه.

في مُقدمة الأسطول، كانتْ سفينة (كليوباترا) الذهبية، تعلوها الأعلام الملكية، تلمع تحت الشّومس كقطعةٍ من الذهب، يقف (أنطونيو) شامخًا في درعهِ البرونزي، يوزع الأوامر بثقةٍ لا تشوبها شائبة.

وقفَ (السكندري) على متن إحدى السفن الخلفيّة، يُراقب المشهد بعينٍ لا تُخطئ، يعلم أنَّ كُلّ هذا المجد المصنوع من الذهب البراق، سيذوب مع أوّل موجة من الحديد والنار.

بدأ الهجوم، صوت السهام يخترق الهواء كأزيزِ النّحل، والسُفن تصطدم بأُخرى، وألسنة اللهب تلتهم الأشرعة، صرخ (السكندري) في رجاله.

- احفظوا المسافة، لا تقتربوا من الخط الأمامي.

لكنَّ الأوامر من الأعلى كانتْ مختلفة، (أنطونيو) المأسور بعجرفته، أمرَ بالاقتراب أكثر، بجرّ السفن المصريّة نحو قلب الأسطول الروماني، حيثُ ينتظرهم الموت بأذرعهِ المفتوحة، اندفعت سفن المصريين كقطعٍ من الخشب في فمِ العاصفة، أصوات الانفجارات، صرخات البّحارة، رائحة الزيت المُحترق، والسماء التي تحولت إلى دخانٍ أسود، كُلّ ما حذّرَ منهُ (السكندري)، ها هو يحدُث أمامَ عينيه، وكأنَّهُ كانَ شاهدًا على كتابة القدر، للتاريخ على صفحاتهِ الخالدة!

حاولَ أنْ يتدخل، أنْ يُرسل رسائل إلى السفن المجاورة، لكنَّ الوقتَ قد فات، أحد الضُباط صرخ.

- سيدي، أوامر من الملكة، تقول إنّنا يجب أنْ نلحق (بأنطونيو) فورًا.

نظرَ إليهِ (السكندري) نظرةً كفيلة بأنْ تجعل قلبهُ يتوقف، وقال.

- أخبروا الملكة أنَّ البحرَ لا ينتظر الهاربين.

أثناء ذلك، انفجرت إحدى السفن الضخمة بجانبه، وارتفعت ألسنة اللهب إلى عنان السماء، سقط العشرات في البحر، والدّماء اختلطت برغو الموج، مدّ (السكندري) يدهُ إلى صدره، أخرج من خلفِ درعهِ البرونزي وشاحًا أسودًا لفهُ حولَ وجهه، لم يعد هُناكَ مكان للكلمات، أضاءت عيناهُ فجأة بذلكَ البريق الأزرق، الذي لا يعرف أصله أحد، واندفع نحو البحر كمَن يجري إلى قدره.

قفزَ على أوّل سفينة رومانية، كأنَّ جسده نُحت من الحديد المُنصهر، كانتْ سيوفهم تنهال عليه، لكنَّهُ يتحرك كظلٍّ لا يُمسّ، ضرباته كانتْ سريعة كالبرق، كُلّ مَن يقترب يسقط قبلَ أنْ يُدرك أنَّهُ مات، كانتْ زرقاواهُ كفيلتين ببث الرعب في قلوب الجنود، حتّى أنَّ بعضهم ألقى بسلاحهِ وقفزَ في البحر.

قفزَ من سفينة إلى أُخرى، والبحر من تحتهِ يغلي كقدرٍ يغلي بالدّماء، تتضاعف قوتهُ مع كُلّ صرخة، وكُلّ قطرة دّم، وكأنَّ غضب الآلهة قد استيقظ فيهِ بعد سُباتٍ عميق!

بدأ ميزان المعركة يتغير في لحظات، وكأنَّ روحًا خارقة تُحارب وحدها ضد الأسطول الروماني بأكمله، اشتعلت النيران في عشرات السفن الإيطالية، وصارت المياه تموج بأخشابٍ محترقة وجُثثٍ غارقة.

كانتْ رياح النصر تلوح من بعيد، و(السكندري) واقفٌ فوق صاري إحدى السفن، كإلهٍ خرجَ من رحم الغضب، يمدّ ذراعيهِ إلى السماء، والبرق يضرب خلفه في مشهدٍ أشبه بالأسطورة، لكنَّ القدر، كعادته، لا يمنح النصر إلّا بثمنٍ باهظ، وصل إليهِ صراخ البّحارة مذعورين.

- مولانا، (أنطونيو) هرب!

توقفَ (السكندري) للحظة، وكأنَّ الزمن تجمّد من حوله، ردد الكلمة في ذهول.

- هرب؟

هربَ وتركَ الملكة، تركَ الأسطول والمدينة تسقط، تراجعَ (السكندري) خطوة إلى الوراء، شيءٌ ما قد انكسرَ في داخلهِ إلى الأبد، تلاشى البريق الأزرق في عينيه، وعادتا إلى لونهما الطبيعي الباهت، نظرَ إلى البحر الممتد أمامه، كُلّ هذهِ السفن المحترقة، كُلّ هذهِ الأرواح التي ماتت من أجل ملكين، أضاعا كُلّ شيءٍ بسبب الحُبّ والغرور.

تراجعَ عن حافّة السفينة، ووقفَ صامتًا، يسمع أصوات الجنود يصرخون، وصوت النيران يعلو، لكنَّهُ لم يعد يسمع شيئًا في داخله؛ إذ صمتَ صوت ضميره، رفعَ رأسهُ نحو الأُفق، فرأى الأدخنة تتصاعد من الأسطول المصري، ومن خلفها المدينة العريقة تشتعل كأنّها تحترق بنار خيانة أصحابها.

قفزَ في المياة وعادَ إلى الشاطئ، سارَ بخطواتٍ بطيئة فوقَ الرمال المُبللة بالدّماء، وصوت الانفجارات خلفه يدوي، كأنَّ البحر نفسهُ يئن!، صعدَ ربوة عالية مُطلّة على الميناء، ووقفَ هُناكَ طويلًا، كان الغروب قد بدأ، والشّمس تغوص في البحر كجوهرةٍ حمراء تذوب فيهِ.

نظرَ إلى المدينة، إلى الإسكندرية البعيدة، التي كانتْ يومًا حلم أبيه، حلمًا وُلِد بالحُبِّ والدّماء، الرياح تُداعب عباءتهُ السوداء، والموج يضرب الصخور بعنف، وهو يقف شامخًا كتمثالٍ من زمنٍ آخر.

تذكّرَ (ميريت-نيت) وأبيه (الإسكندر)، وتذكر (أموس) التي ماتت بينَ ذراعيه، وتذكر كُلّ المعارك التي خاضها، وكُلّ الملوك الذينَ خذلوه، قالَ بصوتٍ خافت، كمَن يُخاطب نفسه.

- مرّةً أُخرى، هزيمة أُخرى، كأنَّ القدر كتب عليَّ أنْ أكونَ شاهدًا على سقوط كُلّ ما أُحبّ!

جثى على رُكبتيه، أخذَ حفنة من الرمل، نظر إليها طويلًا، ثُمَّ تركها تتسرب من بين أصابعه، وقال.

- حتّى الرمل لا يريد البقاء، كُلّ شيءٍ يهرب.

نظر إلى البحر مرّة أُخرى، كانَ الميناء مليئًا بالأنقاض، والسفن الغارقة، وصوت النساء في المدينة يعلو بالنواح، كانتْ صرخاتهن تملأ الأفق، كصلاةٍ طويلة تُرفع للآلهة فلا تُجاب.

رفعَ الوشاح إلى وجههِ من جديد، غطى ملامحه، كأنَّهُ يريد أنْ يختفي من التاريخ نفسه، ثُمَّ استدار ببطء، وبدأ يسير بعيدًا، خطواته تغوص في الرمل، وصوت الموج يبتعد عن آذانه.

أثناء ذلك، هبطَ الليل على البحر كستارةٍ سوداء، ولم يبقَ إلَّا ضوء القمر ينساب على سطح الماء، يلمع مثل دمعةٍ على خدّ مدينةٍ تبكي.

اختفى (السكندري) بينَ الصخور والرمال، ولم يعلم أحد إلى أينَ ذهب، ولا إنْ كانَ حيًّا أم رحلَ مع البحر؟ لكنْ بعدَ تلكَ الليلة، كانتْ الإسكندرية كلها تتحدّث أنَّ رجلًا ذا عينين تشتعلان ببريقٍ أزرق كالبرق، شوهد واقفًا على ربوةٍ تطلّ على الميناء المحترق، ينظر إلى الدخان بصمتٍ، ثُمَّ يختفى مثلما يتبدد الحلم عند اليقظة.

مُنذُ ذلكَ اليوم، كلما هبّت النوّات على المدينة، وارتطمت الأمواج بالحصون، يقول الصيادون القُدامى إنّهم يرونهُ واقفًا هناك، فوقَ نفس الربوة، عباءته السوداء تتطاير مع الريح، وعيناهُ تلمعان بضوءٍ أزرقٍ خافتٍ ضعيف، يُرشد التائهين في البحرِ إلى طريق العودة!

الفصل التاسع والعشرون

الزمان: عام ٣٨ ميلاديّة.

كانتْ الإسكندرية في ذلك التوقيت، تعيش واحدة من أكثر فتراتها اضطرابًا، مُنذُ أنْ وضعت الإمبراطورية الرومانيّة يدها على عرش مصر، مدينة العراقة والجمال والحضارة، التي جمعت بينَ اليونان والمصريين، واليهود والرومان، تحولت إلى بركانٍ يغلي من الغضب، في أحشائهِ التناقضات والصراعات والدّماء، كانَ الملك (أغربيا) ملك يهوذا قد وصلَ إلى الإسكندرية في زيارةٍ رسمية، بعدَ توليهِ الحُكم تحت وصاية روما، وجاء محاطًا بحاشيتهِ وحرسه، يحمل في قلبه غطرسة ملوك اليهود المعتادة، وفي عَينيهِ بريق السلطة الذي لا يرى إلّا نفسه فوقَ الجميع.

حينَ وطئت قدماهُ أرض الإسكندرية، تدفق اليهود من كُلّ الأزقة والطرقات لاستقباله، رفعوا الأعلام، وهتفوا باسمهِ حتّى كادت حناجرهم تنفجر من الحماسة، كانوا يُريدونَ إثبات الولاء والطاعة، وإظهار قوتهم أمامَ اليونانيين، الذين طالما نظروا إليهم باحتقار، امتلأت الشوارع بالجموع، وزُيّنت المداخل بأغصانِ النخيل والزهور، وتعالت أصوات الترانيم العبريّة والآراميّة، بدا المشهد أشبه باستقبال الفاتحين، لا بزيارة ملك مقاطعة صغيرة.

هذا الاستعراض المبالغ فيهِ أثار حنق اليونانيين، الذين شعروا بالإهانة، فهم سكان المدينة الأصليين وأصحاب المجد القديم، فكيفَ يُحتفى باليهود على حسابهم؟!

بلغ الغضب ذروته عندما أمر الحاكم الروماني (أفيليوس فلاكوس)، بوضع تماثيل الإمبراطور (كاليجولا) داخل المعابد اليهوديّة، كنوعٍ من العقاب والتذكير بمَن هو السيد الحقيقي في هذهِ البلاد.

كانَ القرار بمثابة الشرارة التي أشعلت النار؛إذ اعتبرهُ اليهود تدنيسًا لمقدساتهم واستفزازًا لإيمانهم، في غضون أيّام قليلة، انفجرت شوارع الإسكندرية بالفوضى، اليهود هاجموا أحياء اليونانيين، واليونانيون ردّوا عليهم بعنفٍ مضاد، والدّماء سالت على الحجارة البيضاء للمدينة، واختلطت صرخات النساء والأطفال، بأصوات النيران التي تلتهم البيوت والمعابد.

وفي خضم هذا الجنون، هُناكَ رجل يُراقب المدينة من بعيد، من كوخٍ صغيرٍ مهجور على أطراف البحر، يجلس وحيدًا لا يسمع سوى صوت الموج وصرير الرياح.

إنَّهُ (السكندري)، أو كما عرفهُ الناس قديمًا (بسيرلينوس)، بعدَ أنْ وقف في وجه (بطليموس)، وشهد موت (كليوباترا) وانتحار (أنطونيو)، ثُمَّ اختفى عن أعيُن البشر، وكأنَّ الأرضَ قد ابتلعته.

مُنذُ سقوط الأسطول المصري في أكتيوم، انطفأت روحه، لم يعد يُريدُ شيئًا من الدُّنيا، عاش على صيد الأسماك، يصنع شباكه بيديهِ ويقضي لياليه أمام نيران صغيرة، يتأمل أمواج البحر التي كانتْ يومًا ساحة معركة، لم ينجح الزمن في التأثير عليهِ أو على ملامحهِ أبدًا، فعيناهُ كما هما، تحملان ذلكَ الوهج الأزرق الغامض، الذي لا ينطفئ حينما تنتهي نوبات غضبه.

قد خرج بمركبهِ الصغير إلى عرض البحر، وعاد عند الغروب، كانَ الجو ساكنًا، والسماء حمراء كأنّها تتنفس دمًا، ما إنْ اقترب من الشاطئ حتّى شعر بشيءٍ غريب، دفع باب كوخه، فوجد كُلّ شيء مقلوبًا رأسًا على عقب، الأواني مكسورة، الصندوق الخشبي الذي يحتفظ فيهِ بذكرياتهِ مقلوب، أسرعَ ع بتفتيشهِ جيّدًا وقد تعالت دقات قلبه بشدّة، توقفَ قلبه لحظة أدرك أنّها لم تكن هناك.

قلادة الإله، رمز قوته، إرث أُمّه عن الإله، تلكَ التي كانَ يحرسها كما يحرس حياته، قد اختفت، لم تكن مُجرّد قطعة ذهبية، بل كانتْ تحمل سرًّا لا يعرفهُ أحدٌ سواه، سرّ حياتهِ نفسها.

تراجعَ إلى خارج الكوخ، أغمض عينيه، وشعر بالدّم يغلي في عروقه، ومع كُلّ نفس يزداد غضبه حتّى صار كالإعصار.

وفجأة، أطلق صرخة مدوية ارتجت لها الجدران، واهتز الهواء من حوله، وانعكست صرخته في أرجاء المدينة، حتّى خُيّل للناس أنَّ الأرض قد انشقت عن ماردٍ غاضب، في اللحظة نفسها، كانتْ المذابح تشتعل في أحياء الإسكندرية بينَ اليهود واليونانيين، فاختلطت صرخته بأصوات القتال، وكأنّها إعلان غضب إلهي نزل من السماء.

لف جسده بوشاحهِ الأسود العتيق، لا يظهر منهُ إلّا بريق عَينيهِ الزرقاوين، يسير بخطواتٍ هادئة، لكنْ كُلّ خطوة كانتْ تُحدث هزة في الأرض من شدّتها.

وصلَ إلى المدينة في الليل، والسماء مُلّبدة بالغيوم ودخان الحرائق، مرّ بينَ الأزقة، يُشاهد الجثث المُلقاة، والدّماء تسيل على الحجارة، لا يميّز بينَ يهودي ويوناني أو مصري، فكلهم أصبحوا سواء في عَينيهِ الآن.

كانَ يبحث عن شيءٍ واحدٍ فقط، عن القلادة، بدأ بتتبع أثر اللصوص، يسأل ويهدد ويقتل دونَ رحمة، كُلّ مَن يراهُ يشعر أنَّ الموت يسير على قدمين، وبعدَ سلسلةٍ من المواجهات الدامية، قبض على مجموعة من اليهود الذين اعترفوا لهُ تحت وطأة الخوف، أنَّ القلادة قد وصلت إلى يد كبير كهنتهم في المدينة، الكاهن (عزرا).

اتجه فورًا إلى المعبد الكبير، كانَ يقف شامخًا وسط المدينة القديمة، بأعمدته الرخامية ونجمة داود الضخمة التي تُزيّن مدخله، تسلل بينَ الظلال كأنَّهُ طيف من العدم وجزء من الظلام، وما إنْ اقترب من البوابة، حتّى دوّت صرخة حارس المعبد الذي رآهُ من بعيد، لكنْ قبلَ أنْ يكمل صراخه، كانَ جسده قد سقط أرضًا بلا رأس.

اندفع (السكندري) إلى الداخل وسيفه لا يزال بيده، وعيناه تشتعلان كالبرق في ليلٍ مظلم، لا يسمع إلّا صوت خطواته، وضربات قلبه التي تهدر كطبول الحرب، كانَ

الكهنة يركضون مذعورين، والشموع تتساقط من حولهم، وصرخاتهم تختلط بأصوات الإنهيار.

رأى الكاهن (عزرا) يُحاول الهرب من الباب الخلفي للمعبد، فوثب عليهِ وثبة فهدٍ رشيق، وأمسكَ بهِ من زيّ الكهنوت الواسع، ورفعهُ بيدٍ واحدة إلى أعلى، حتّى تدلت قدماهُ من الهواء، وصعد بهِ إلى أعلى برج المعبد، ووقف يُمسك بهِ بيدٍ واحدة على الحافة.

تعلقت عينا (عزرا) بعينيهِ الزرقاوين المشعتين، وارتجف جسده كطفلٍ صغير، وبصوتٍ كالرعد قال لهُ.

- أينَ هي القلادة؟

- تكلم قبلَ أنْ أرديك من هنا.

ارتجف الكاهن وأخذ يتلعثم، ثُمّ أخرج القلادة من بين ثيابه المرتجفة، و مدّها نحوه بخوف، ما إنْ لامست يد (السكندري)، حتّى أضاءت الجوهرة الفيروزية بوميضٍ باهر غمر المكان، أغمض (السكندري) عَينيهِ للحظة، شعر بحرارة طاقة قديمة تتدفق في عروقه، وعاد لهُ إحساس لم يعرفهُ مُنذُ سنواتٍ طويلة، إحساس القوة الإلهية التي حاول نسيانها.

أنزل الكاهن على الأرض وابتعد عنهُ قليلًا، ناظرًا إليهِ باحتقار، وقال بصوتٍ هادئ لكنَّهُ يحمل خلفه عاصفة من الغضب.

- أنتم دائمًا، لا تعرفونَ سوى الخيانة والطمع، تسرقونَ مقدسات غيركم وتدّعون الطهر، كم مرّة دمرتم فيها كُلّ ما هو مقدس باسم الربّ.

- وأنتم لا تعرفون الربّ أصلًا؟ وهو بريئ منكَ ومن أفعالك.

تراجعَ (عزرا) وهو يلهث، لم يجد ما يقوله، لكنَّهُ حينَ رأى (السكندري) يوليه ظهره، تحول خوفه الى خسةٍ ودهاء، استلّ حنجر صغير من بين طيات ثيابه، وانقض عليهِ أراد أنْ يطعنهُ في ظهره.

لكنَّ (السكندري) تحرك أسرع من البرق، التفت في اللحظة نفسها، وتراجع خطوة إلى الوراء، فسقط الكاهن من فوق الحافة العالية للمعبد، صار جسده يصارع الهواء كدميةٍ من قماش، حتّى ارتطم بالأرض بقوة، وتحطم رأسه وسط صرخة مكتومة، تقدم (السكندري) إلى الحافة، نظر إلى الجسد الساقط، وقال ببرود.

- صدقًا، احفر لنفسك قبرك بيدك.

بصق على الجسد الملقى، ثُمَّ رفعَ يدهُ إلى السماء، والوهج الأزرق يتصاعد من عينيه، وضرب الأرض بقدمهِ ضربة واحدة اهتزت لها الأعمدة، ثُمَّ بدأ يدفع بيديهِ جدران المعبد الضخمة، كما لو كانت من الرمل!

كانت الصخور والحجارة الضخمة تهتز، والأعمدة تتمايل، حتّى انهار المعبد كُلّه في غضون لحظات، وتحول إلى كومة من الأنقاض، لكنَّ غضبهُ لم يتوقف عندَ هذا الحد، فقد انطلق إلى المعابد الأُخرى واحدًا تلو الآخر، كالعاصفة الهوجاء التي لا تهدأ، في كُلّ مرّة كانَ يقتحم المعبد، يصيح الكهنة ويهربون، ثُمَّ تنطفئ قناديلهم وتتهاوى جدرانهم تحت قبضته، في ساعاتٍ قليلة كانت الإسكندرية كلها تشتعل بأنقاض المعابد اليهودية، وتحولت سماؤها إلى غيمة من الرماد.

في تلك الليلة، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، كانَ يمشي وسط اللهب كأنَّهُ من صنع النار نفسها، عينيه تضيئان الطريق أمامه، والدّماء والأتربة تُغطي الوشاح الأسود، الذي تحول إلى رمز لبث الرعب في النفوس.

عندما أشرقت شَّمس اليوم التالي، كانتْ المدينة صامتة كالقبر، لا يسمع فيها إلَّا أنين الجرحى ونواح النساء، أمَّا هو، فقد غادر دونَ أنْ يلتفت، خرج من بوابة المدينة

الجنوبية، وسار بخطواتٍ بطيئة نحو الصحراء الممتدة أمامه، يعرف جيدًا إلى أينَ يذهب.

كانتْ الرمال تبتعد عن قدميه، وكأنها تهابه أو تخشى من غضبة، ظلَّ يسير حتّى غابت الشَّمس وظهرت النجوم، ثُمَّ وصل أخيرًا إلى الكهف القديم، نفس الكهف الذي دفن فيهِ أباهُ وأُمّه مُنذُ زمنٍ بعيد.

اقترب من الحجر الضخم الذي يسد مدخل القبر، وضع يديه عليه، ودفعهُ ببطءٍ حتّى تدحرج وانكشف الظلام الدامس في الداخل، دخل بخطواتٍ واثقة، حتّى وقفَ أمامَ التابوت الحجري، الذي يحتضن جسدي والديه.

جلس على ركبتيه، ونظر إلى التابوت، وقد غمرهُ التراب والصمت، أخرجَ القلادة من بين ثيابه، ورفعها أمامَ عينيه، فأضاءت الكهف بنورها الفيروزي الجميل، وانعكست على الجدران كأنّها أرواح ترقص حوله، وضعها برفقٍ بينَ جسديهما داخل التابوت، بعدَ أنْ أزاحَ الغطاء الضخم، وقالَ بصوتٍ خافت.

- لا أمان في الدُّنيا أكثر من أمانكما، فلتبقي هنا يا قلادة الإله.

ثُمَّ وقف، وأعاد الحجر مكانه بإحكام، وقفَ أمامَ القبر للحظات، ثُمَّ استدار ببطء، وغادر الكهف متجهًا نحو الأفق، حيثُ كانتْ الشَّمس تشرق من بعيد، كأنّها ولادة جديدة للعالم، بينما هو يسير إلى المجهول، لا يدرِ إنْ كانَ وجوده خيرًا للإنسانية أم لعنة تمشي على الأرض!

الفصل الثلاثون

الزمان: عام ٦١ ميلاديّة.

في صباح يوم بدا هادئًا على غير العادة، في ذلكَ التوقيت من العام في فصل الشتاء، وفي أحد أزقة المدينة القديمة، كانَ هُناكَ حانوت صغير تتدلى على بابهِ قطع من الجلد المُعلّق، تفوح منهُ رائحة الدباغة، ذلكَ هو حانوت الإسكافي (أنيانوس)، رجل بسيط من عامّة الشعب، يعيش من عمل يده، ولا يعرف من الدُّنيا سوى العمل وأسرته فقط، دخل رجل غريب إلى الحانوت.

كانَ مظهرهُ مُختلفًا عن أهل المدينة، ثوبه طويل بلون الرمال، عيناه تشعان ببريق غريب، فيهما سكينة تُشبه البحر عندَ الغروب، وخطواته واثقة كمَن يعرف طريقه جيدًا حتّى وسط الزحام، ألقى السلام بصوتٍ هادئ، وردَّ عليه (أنيانوس) بانحناءة خفيفة، وسألهُ الرجل الغريب أنْ يصلح لهُ حذاءه، الذي تمزق من الرحلة الطويلة.

أشارَ لهُ (أنيانوس) بالجلوس على المقعد الخشبي المتهالك قُرب الجدار، ثُمَّ انحنى يعمل في الحذاء بتركيز، كانت يداهُ تتحركان بخبرةٍ كبيرة، يقطع الجلد بخفة ويدق المسامير بإتقان، حتّى دخل المغراز في يدهِ فجأة، فصرخَ صرخة قصيرة ممزوجة بالألم قائلًا.

- يا اللّه الواحد.

رفع الغريب رأسهُ في دهشةٍ عندَ سماعهِ تلك العبارة، واقترب ببطء، أمسك بيدِ الإسكافي المصابة، نظر إلى الجرح بعينين فاحصتين، ثُمَّ انحنى وأخذ قليلًا من طين الأرض، الذي يُغطي الطريق، وضعهُ برفقٍ على الجرح، وهمسَ بكلماتٍ غير مسموعة، وفي لحظة سكنت الآلام تمامًا، ونظر (أنيانوس) إلى يدهِ فرأى الجلد قد التأم، وكأنَّ شيئًا لم يحدث!

اتسعت عيناهُ في دهشة، ثُمَّ انحنى ليسجد للرجل الغريب، ولكنْ الغريب أمسكهُ من كتفهِ يمنعهُ من السجود، وقالَ بهدوء.

- مكتوب "للَّهِ وحدهُ تسجد".

وقفَ (أنيانوس) مذهولًا، وقالَ بصوتٍ متهدج.

- وهل أنتَ نبيّ؟

ابتسمَ الغريب، وقال.

- أنا (مرقس)، تلميذ (المسيح) جِئتُ لأكرز باسمهِ، وأدعو لعبادة اللَّه الواحد، إله السماوات والأرض.

من زاوية مظلمة داخل الحانوت، تحرك ظلّ كانَ ساكنًا مُنذُ البداية، كأنَّهُ يُراقب في صمت، تقدم ببطءٍ حتّى ظهرت ملامحه تحت ضوء المصباح، كانَ صاحب وجه مليح، وعيناه بلون الغيم، قالَ بصوتٍ هادئ.

- وهل أنتَ تعبد اللَّه الواحد فعلًا؟

التفت إليهِ (مرقس)، نظر إليهِ طويلًا ثُمَّ قالَ مُبتسمًا.

- نعم، أعبدهُ وحدهُ لا شريكَ له، وهو الذي أرسلَ (المسيح) لخلاص البشر.

اقترب الظلّ أكثر، ومدَّ يدهُ مُصافحًا، وقال.

- أنا (السكندري)، وكم أنا سعيد بلقائكَ يا (مرقس)، فقد سمعت منكَ كلامًا لامسَ قلبي، لم اسمع مثله مُنذُ زمن.

خرجا من الحانوت، كانتْ الشّمس تغرب ببطء، والمدينة تصطبغ بلون نحاسي دافئ، واتجها نحو شاطئ البحر، كانتْ أمواج المتوسط تهدر برفق، جلسا على صخرتين متجاورتين، ودار بينهما حديث طويل امتد حتّى الليل، تحدّثَ (مرقس) عن الإيمان

والمحبة، عن اللّه الذي لا يُرى بالعين لكن يُحسّ بالقلب، عن (المسيح) الذي جاء بالسلام لا بالسيف.

كانَ (السكندري) يصغي في صمت، عيناه تتغيران بينَ الإعجاب والدهشة، كأنَّهُ قد افتتن بشخصية (مرقس)، ومنذُ تلكَ الليلة، أصبح اللقاء بينهما عادة لا تنقطع، كلما وقفَ (مرقس) في الأسواق أو عند الميناء، أو بين الأزقة ليتحدث عن اللّه، كانَ (السكندري) يقف بعيدًا، يُتابعهُ بصمتٍ وإعجاب، يُراقب الجموع التي تلتف حوله، الرجال والنساء، البسطاء والأثرياء، السادة والعبيد، كيفَ ينصتون لكلماته بشوق، وكيف يلمح في صوتهِ صدق غريب يخترق القلوب.

وبعدَ أنْ ينتهي (مرقس) من وعظه، كان (السكندرى) يقترب منه، تتشابك ذراعهما، و يمضيان معًا في شوارع المدينة، حتّى تختفى الأقدام في ظلام الليل، مرّت الأيّام، وكثر عدد المؤمنين، كان صوت مرقس ينتشر بينَ الناس كالنور في ليلٍ غاسق، علّمهم أنَّ اللَّهَ واحد لا يُعبد سواه، وأنَّ المحبة طريق الخلاص، وأنَّ الإيمان ليسَ كلمات بل عمل ورحمة.

اختار من بينهم الإسكافي (أنيانوس) أوّل المؤمنين؛ ليكونَ خادمًا للصلاة، يُساعدهُ في خدمة المؤمنين الجدد، فكان (أنيانوس) يجتمع بهم في دارهِ الصغيرة، يُعلّمهم ما سمعهُ من (مرقس)، ويُصلّون معًا بصوت خافت؛ خوفًا من غضب الوثنيين.

وصلت الأخبار إلى أرجاء مصر، وأدرك كهنة المعابد الوثنيّة أنَّ خطرًا جديدًا يقترب من آلهتهم، فهاجوا غضبًا، وبدأت الاعتداءات على المؤمنين، يطاردونهم في الأسواق، ويحكمون بيوتهم، ويسخرون منهم، وفي إحدى الليالي جلسَ (مرقس) مهمومًا، وجهه شاحب كمَن يحمل هَمّ أُمّة، رآهُ (السكندري) هكذا فاقتربَ منهُ، وسألهُ عن سبب حزنه، قال (مرقس) بحزنٍ شديد.

- الوثنيون يهاجمون إخوتي، يقتلونهم ويعذبونهم، وقلبي يتمزق ولا أملك أنْ أردّ الشرّ بالشرّ.

أجابهُ (السكندري).

- المدينة تغلي غضبًا يا (مرقس)، وغضب الكهنة لن يهدأ، ارحل الآن، دعهم ينسونكَ قليلًا، ثُمَّ عُد حينَ تهدأ العاصفة.

تردد (مرقس)، ثُمَّ وضعَ يدهُ على كتف صديقه، وقال.

- رُبما معك حقّ، سأُسافر إلى المدن المجاورة، وسأعود حينَ يأذن اللّه.

وبالفعل رحل (مرقس)، وساد الحزن بينَ المؤمنين، لكنَّ العجيب أنَّ الإيمان لم يخمد، بل ازداد اتساعًا، كأنَّ الغياب زاد القلوب اشتعالًا، صار بيت (أنيانوس) مركزًا للعبادة والصلاة، وصار اسم (المسيح) يهمس في الأزقة والبيوت الخفية، أمَّا (السكندري)، فلم يكن مؤمنًا مثلهم، بل كانَ قلبه يميل إلى التعاليم والحديث الليّن.

مرّت الأعوام، حتّى كانَ عام ٦٨ ميلاديّة، تحديدا في شهر مايو جاء يوم عيد القيامة، حينَ عاد (مرقس) إلى الإسكندرية، سرت الأخبار كالنار في كُلّ المدينة.

"(مرقس) عاد!"

خرجَ الناس لاستقباله، مؤمنين ووثنيين على حدٍّ سواء، بعضهم بدافع الحُبّ، وبعضهم بدافع الغضب والكره، ازدحمت الشوارع، ارتفعت الأصوات، وتشابكت الأيدي، وسط الحشود حاولَ (السكندري) أنْ يشق طريقه، كانَ يبحث عن وجه صديقه، رأى من بعيد الرجل الذي غيّر قلبه مُنذُ أعوام، يبتسم وسط الزحام، لكنْ ما لبث أنْ تحول المشهد إلى فوضى عارمة.

اشتعلت المدينة، وارتفعت صيحات القتال، سقط الناس تحت أقدام بعضهم، شاهد (السكندري) الجنود الوثنيين يطاردون المؤمنين، رأى (مرقس) يُضرب حتّى سقط، ثُمَّ يُجرّ جسده في شوارع المدينة، والجموع تهتف بغضب، اندفع نحوه بجنون، مزّق الصفوف، حتّى وصلَ إليهِ أخيرًا، لكنَّهُ قد وصلَ مُتأخرًا، سقطَ على رُكبتيهِ بجوار الجسد المسحول، وكانَ قد حاول الوثنيين اشعال النار في جسد القديس، ولكنْ برغم أنَّهُ موسم الصيف إلَّا أنَّهُ قد هبّت رياح ممطرة عنيفة، أطفأت النيران واقترب (السكندري) من الجسد المُسجى أرضًا، ورفع رأس (مرقس) بينَ ذراعيه، نظر إلى وجهه المسالم كمَن ينام بعدَ عناءٍ طويل، فصرخ صرخة مدوية شقت صمت السماء، صرخة خرجت من أعماق روحه، وانطلق من عينيهِ ضوء أزرق رهيب، كأنَّهُ نار اشتعلت وقودها الغضب.

اهتزت الأرض تحت قدميه، وانطلق (السكندري) يحطم الأصنام والمعابد، يفتك بكُلِّ مَن اقتربَ من جسد (مرقس)، حتّى عمّ الرعب المدينة، لم يرَ أحد مثل ذلك المشهد من قبل، كانَ (السكندري) كمَن فقد عقله، عيناه تلمعان بضوءٍ أزرق يبعث الرعب في النفوس، وصوته يختلط بصوت الريح، وحين انتهى كُلّ شيء، سكن المكان، وسقط هو نفسه بجوار الجسد بلا حراك.

بعد برهة، نهض ببطء، حمل جسد صديقه بينَ ذراعيه، ومضى بهِ عبرَ الأزقة المظلمة، حتّى وصل إلى بيت (أنيانوس)، فتح الأخير الباب، وما إنْ رأى الجسد حتّى خارت قواه وسقط أرضًا باكيًا، وضعَ (السكندري) الجسد برفق، وقالَ بصوتٍ خافت.

- احفظوه، فهو رجل اللَّه.

ثُمَّ خرج دونَ أنْ يلتفت للخلف، يتجه نحو الصحراء، كانَ الليل حالك الظلام، والسماء مُلّبدة بالغيوم، والريح تعصف بالرمال كأنّها تريد أنْ تمحو أثر كُلّ ما جرى!

مضى (السكندري) بخطواتٍ متثاقلة، وجهه مُغطى بالغبار، وصدره يغلي كبركان على وشك الانفجار، تذكر اللحظات التي جمعتهُ بمرقس، تذكر حديثهما عن الإيمان

والمحبة، وتلكَ الليالي التي جلس فيها يستمع لصوته الهادئ، كانتْ الدموع تنساب من عَينيهِ بلا توقف، تمتزج بالرمال على وجهه.

دموع لا تتوقف، دموع أصبحت رفيق دربه، دموع فقد كُلّ مَن يُحبُّ بينَ يديه.

أخذَ يسير حتّى ابتلعهُ الظلام تمامًا.

الفصل الحادي والثلاثون

الزمان: عام ٣٦٥ ميلاديّة.

كانَ الليل هادئًا فوق تلك المنطقة من صحراء مصر الغربية، والنجوم تلمع فوقَ الرمال كحباتِ لؤلؤٍ منثورة بإتقان، بينما الرياح تعزف أنينًا خافتًا بينَ الصخور الجرداء، في أعماق تلك الصحراء، وعلى مقربةٍ من تخوم الإسكندرية، حيثُ كهف قديم نُحتت جدرانه بأيدي مجهولة مُنذُ قرون بعيدة، لا يزورهُ أحد، ولا يعرف عنهُ أحد شيئًا.

ذلكَ الكهف كانَ مأوى رجل واحد فقط، رجل لم يعد يخالط البشر منذُ زمنٍ بعيد، إنَّهُ (السكندري)، يجلس بداخل الكهف، وسط ظلال قنديل تتماوج خيلاته فوقَ الجدران، كأنّها أرواح تحوم حوله، عيناهُ زرقاوان بلون السماء، ووجهه الذي لم يهرم أبدًا، يحمل ملامح رجل عاش أكثر مئات السنين، لقد مرّت ثلاثة قرون كاملة على ذلكَ اليوم المشؤوم، الذي فقد فيهِ صديقه المُقرّب (مرقس)، منذُ تلكَ الصرخة التي خرجت من أحشائه، ومن بعدها قرر العزلة.

ابتعد عن الناس، عن المدن، عن المدينة التي شهدت موت صديقه، وارتوت شوارعها من دمائه، واختار عزلة لا يقطعها سوى صوت الريح وصفحات الكتب القديمة، التي جمعها عبرَ السنين، كانَ يجوب الأنقاض والخرائب، يبحث عن أيّ أثر قد يقودهُ لفهم ما أصابه، جمع المخطوطات من المعابد المهجورة، والبرديّات من أيدي التجار، ونابشي القبور وسارقي الآثار، حتّى تحوّل كهفه إلى نسخة مُصغرة من مكتبة الإسكندرية.

كُتب من كُلّ العصور، عن السحر والآلهة والخلود، عن أرواح لا تموت، وآلهة تمنح الحياة الأبدية ولكن بثمنٍ رهيب، وكان في قلب هذا كُلّه بردية واحدة فقط، نصفها ممزق وغير متواجد، نصفها الآخر غامض، لكنّها كانت الأقرب إلى الحقيقة، جلس

أمامها تلك الليلة، تحت ضوء مصباح زيتي ضعيف، يمر بأصابعهِ على الحروف الهيروغليفيّة المتآكلة، يقرأها بصوتٍ خافت كأنَّهُ يناجيها.

"قلادة الخلود من الإله ورت حكاو، مَن يمتلكها يحيا ألف حياة، ولكن... "

وتتوقف الكلمات، حيثُ التهمت النار أو الزمن بقيّة السطور، ضربَ بيدهِ على الأرض في ضيق، وتطلع إلى صورة القلادة في البردية، تلك القلادة الذهبية القديمة التي لم تفارقه مُنذُ ذلك اليوم، مُنذُ اللحظة التي انطلقت فيها اللعنة، ومنحته حياة لا تنتهي، كانَ يعلم أنَّ تلك القلادة هي المفتاح، لكنّها أيضًا السجن، هي ما منحهُ القوة والخلود، وهي ما حرمهُ من الراحة والموت مع أحبته، همس بحزن.

- ألف حياة ولكن بثمن، يا إلهي، ما هو الثمن؟

لقد دفعت ما يكفي، دفعت الثمن حياة كُلّ مَن أحببت، خيّمَ على المكان صمت طويل، لم يسمع فيهِ سوى صوت الريح في الممرات الحجرية، لكن فجأة، بدأ شيء غريب يحدث، شعر بالأرض تهتز تحت قدميه، اهتزاز خفيف في البداية، ثُمَّ تحول إلى ارتجاج عنيف جعل الصخور تتساقط من سقف الكهف.

تراجع خطوة إلى الخلف، ثُمَّ أُخرى، بينما الجدران تتشقق أمامَ عينيه، والكُتب تتساقط على الأرضيّة الحجرية ،صرخ بصوتٍ مرتعد.

- زلزال!

اندفع نحو مدخل الكهف وهو يترنح، خرج إلى الخارج حيثُ امتدت الرمال أمامهُ إلى الأفق، ورأى الأرض كلها تهتز كأنّها بحر من التراب، والرمال تتراقص أمامهُ.

كانَ المشهد مهيبًا رهيبًا، لم يشعر بمثل هذهِ القوة من قبل، رغم أنَّهُ عاش قرونًا طويلة، شهد فيها عواصف وفيضانات وحرائق، لكنْ شيئًا كهذا لم يرهُ قط، ثُمَّ توقف للحظة، ونظر في اتجاه الشمال نحو الإسكندرية، هناك، على البعد، يرى الأفق يتحرك، المباني

تهتز، والسماء يملؤها غبار داكن، وفجأة أدرك الحقيقة المروعة، هتف بصوتٍ خافت كأنَّ صدره يضيق بالهواء.

- يا إلهي، البحر!

كانَ يعلم أنَّ المدينة التي بناها أباهُ (الإسكندر)، تقوم على حافة الخطر، وأنَّ زلزالًا كهذا كفيل بإيقاظ البحر من رقادهِ، وفي لحظة، اشتعلت عيناه بالضوء الأزرق، النور الذي حاول نسيانه لقرون، انطلقت قوته من داخلهِ من جديد، و اندفع كالسهم نحو المدينة، يقطع الصحراء بسرعةٍ تفوق الريح، و عباءته السوداء تلتف حول جسده كظلال الليل، حينَ وصل إلى أطراف الإسكندرية، كان كُلّ شيءٍ في فوضى.

الناس يركضون في الشوارع، الجدران تنهار، الأطفال يصرخون، والنيران تشتعل في المنازل التي سقطت بسبب مصابيحها، تحرك بينهم كالشبح، لا يراهُ أحد بوضوح، لكنَّهُ كانَ في كُلّ مكان، رفع جدارًا عن جسد عجوز ممدد تحته، حمل طفلًا صغيرًا من بين الأنقاض، أنقذ امرأة سقطت في حفرةٍ أرضية عميقة، كان يتحرك بسرعةٍ خارقة، كطيفٍ من نور، ينقذ ثُمَّ يختفي، ثُمَّ يظهر في مكانٍ آخر.

لكنَّ الزلزال لم يكن النهاية، توقف فجأة، شعر بالظلام ينتشر من خلفه، ظِلّ ضخم يمتد على الأرض أمامه، رفع عينيه إلى السماء، ورأى ما لم يرد أنْ يراهُ أبدًا .

موجة هائلة ترتفع من البحر، شاهقة كجبل، تحجب ضوء الشّمس، تمتد بطول الأفق كُلّه، تزأر بصوت البحر الغاضب، قادمة لتبتلع المدينة كلها، تسمرت قدماه، والريح تعصف بردائه، والرعب يشتعل في عينيه، عرف أنَّ هذهِ هي النهاية، أنَّ البحر نفسه قرر أنْ يبتلع كُلّ ما بُني عبر القرون، استدار ونظرَ إلى الجموع، وصرخ بأعلى صوته، صرخة اخترقت ضجيج الأرض والبحر معًا.

- اهربوا إلى الصحراء، اهربوا جميعًا.

ركضَ بينَ الناس، يدفعهم إلى الخارج، يحمل مَن يستطيع حمله، يجرّ الجرحى، يسحب الأطفال من أيدي أُمّهاتهم، كانَ يتحرك بسرعةٍ خارقة، بينَ لحظةٍ وأُخرى يحمل ثلاثة أو أربعة، يتركهم عند حافة المدينة ويعود، الهواء أصبح ثقيلًا، والرطوبة تحولت إلى بخارٍ خانق، والموجة تقترب أكثر وأكثر ،وفي لحظةٍ قصيرة ولكنّها مريرة التفت للخلف، رأى الموجة تضرب المدينة بكُلّ قوتها، كوحشٍ ضخمٍ يبتلع فريسته!

المياه تزأر وتكسر كُلّ شيء، البيوت، المعابد، الأسواق، حتّى الأعمدة الرخامية لم تصمد أمامها ،اختفى كُلّ صوت، سوى صوت الماء.

توقفَ (السكندري) في منتصف الطريق، جسده مبلل، شعره يلتصق بوجهه، والدموع تختلط بالماء، سقط على ركبتيه، وغطى وجهه بيديه، وصرخ صرخة مكتومة، صدى وجعه تردد بينَ الأنقاض والمياه، همسَ بصوتٍ متهدج.

- كم مرّة، كم مرّة سأفقد كُلّ شيء؟

- لقد عشت ألف حياة يا (ورت حكاو)، ولكن كلها تنتهي بالموت لمَن حولي، لماذا أنا؟

رفع رأسه ببطء، ونظر إلى المدينة الغارقة أمامه، نصفها تحت الماء، والنصف الآخر تهدم بالكامل كانتْ الإسكندرية، جوهرة البحر المتوسط، تتحول أمامَ عَينيهِ إلى أنقاض، تذكّرَ أباهُ وأُمّه، وصديقه (مرقس)، وحبيبته (أموس)، والأزقة القديمة التي نشأ فيها، همسَ كمَن يُناجي الأطلال.

- هذا إرث أبي الضائع، وهذا عقابي الأبدي.

وقفَ ببطء، والماء يصل إلى ركبتيه، ثُمّ إلى خصره، لكنّهُ لم يتحرك، كانتْ عيناه الزرقاوان تلمعان بضوءٍ غامض، ليسَ ضوء الغضب هذهِ المرّة، بل ضوء الحزن.

مدَّ يدهُ نحو البحر، وأغلق أصابعهُ كمَن يقبض على الفراغ، وفجأة هدأ كُلّ شيء، تراجعت المياه ببطء، كأنَّ البحر نفسه استجاب لرجائه، وانحسر بعيدًا عن المدينة الميّتة، تاركًا خلفه أنقاضًا وأجسادًا صامتة.

وقفَ هناك طويلًا بينَ الركام والماء، لا يسمع سوى دقات قلبه الهادئة، ولأوّل مرّة مُنذُ قرون، شعر بضعف الإنسان داخله، شعر أنَّهُ مهما طال عمره، فكُلّ شيءٍ حولهُ فانٍ.

عادَ إلى كهفه، جلس بجوار مدخله وأسند رأسه إلى الجدار الحجري، يغمره ضوء الفجر الخافت، بينما خارج الكهف كانت رائحة البحر المالح تصل مع الريح، حاملة معها نواح مدينة غمرتها الأمواج، وذاكرة رجل لم يعد يعرف أينَ تنتهي حياته، ولا متى؟!

ولكنَّهُ أدركَ المغزى الحقيقي في حياته، هو مساعدة البشر لا الهروب منهم، فقرر مُنذُ تلك اللحظة أنْ يعود إلى الإسكندرية، مدينة أباهُ الغارقة، ولا يتركها أبدًا.

الفصل الثاني والثلاثون

الزمان: عام ٤١٥ ميلاديّة.

في قلب المدينة العريقة، حيثُ تلامس أبراج الكنائس السماء، وتختلط أصوات الأجراس بنداءات الباعة في الأسواق، كانَ ضوء الصباح يتسلل من نوافذ الكنيسة العظيمة، المشيدة بالأعمدة الرخامية الضخمة.

في الداخل، كانَ المُصلّون يتوافدون من كُلّ أحياء المدينة، رجالًا ونساءً وشبابًا، وجوههم تحمل مزيجًا من الإيمان والرهبة والبشاشة.

وقفَ البابا (كيرلس) على المنبر الخشبي المزخرف، يعلوهُ نور شموع خافتة، والتي كانتْ برغم ضوء النهار، يجب أنْ تُضاء أثناء قراءة الكتاب المُقدس أو العظة الأسبوعية، يُلقي عظته أمام الجموع المحتشدة، بصوتٍ هادئ رزين يملأ المكان وقارًا وسكينة، ويبعث على الطمأنينة في النفوس، بدء العظة قائلًا.

- يا إخوتي، إنَّ اللَّهَ قد خلقنا على أحسن صورة، على قداسةٍ ونقاء، فلا تضلنا الفلسفات الزائفة، ولا كلمات الذين يقولون بما يخالف مشيئته، لقد امتلأت المدينة بأحاديث أفلاطون وسقراط وغيرهم من الحكماء، الذينَ ظنّوا أنَّ العقلَ وحدهُ كافٍ لإدراك أسرار الخلق، لكنّهم نسوا أنَّ الروح هي الطريق إلى اللَّه، احذروا يا إخوتي من تلك التعاليم التي تُفسد القلوب قبل العقول، واثبتوا على الإيمان، فالمعرفة الحقّة هي معرفة اللَّه وحده، لا الفلسفة ولا الجدل.

كانَ الحضور يستمعون في خشوع، وبعضهم يذرف الدموع، حتّى توقف صوت البابا فجأة بصيحةٍ عالية قادمة من الصفوف الخلفية، حيثُ وقف رجل في منتصف العمر،

تبدو على وجهه علامات الغضب والإحتقان، يُدعى (بطرس الكاتب)، أحد أبرز المتعلمين والغيورين على الكنيسة، صرخ بصوتٍ عالٍ وهو يُشير بيدهِ.

- قداسة البابا، إلى متى نسكت؟

- هُناكَ الآن مَن يُهاجم الكنيسة علنًا، مَن يفسد عقول الناس بتعاليم وثنية، ويدعو إلى أفكار الفلاسفة المضلين، وها هي المرأة تُدعى (هيباتيا)، ابنة العالم (ثاون)، لا تكتفي بنشر فلسفة (أفلاطون)، بل تحرض الشباب على إنكار (المسيح) وتدعوهم إلى اتباع العقل والهوى، حتّى صارت رمزًا للشذوذ الفكري والجسدي معًا.

عمَّ الهمس والهمهمات بينَ الجموع، وتعالت أصوات غاضبة من هُنا وهناك، وارتفعت صيحات تردد.

- الموت (لهيباتيا)، الموت (لهيباتيا)، حتّى ارتجت جدران الكنيسة من الهتاف، عندها

ضرب البابا كيرلس بعصاهُ على الأرض بقوة، فعاد الصمت فجأة، وصرخ قائلًا بصوتٍ

قد ملأهُ الألم والحزن.

- لا يا إخوتي، لا، لا يجب أنْ نحارب الفكر بالسيف، فالمسيح قال: "ما يُؤخذ بالسيف، بالسيف يُهلك".

- لسنا قضاة على الناس، بل شهود على الحق، إنَّ واجبنا أنْ نُعلّم أبناءنا التفرقة بينَ النور والظلمة، لا أنْ نحارب الظلمة بظلمة أشد منها، اتركوها، فلعلّ اللّه أنْ يهديها.

انخفضت الأصوات تدريجيًا، وجلس (بطرس) مكانه، لكن وجهه ظل متجهمًا، ويداه تقبضان على الرداء بقوة، كأنَّ في صدرهِ نارًا لا تخمد، خرج الناس من الكنيسة وهم يتهامسون عن المرأة التي تجرأت على الكنيسة، وعن البابا الذي منعهم من الانتقام.

وفي الجهة الأُخرى من المدينة، كانتْ مكتبة الإسكندرية القديمة لا تزال تحتفظ ببعض مجدها القديم، وفي قاعة فسيحة تعج بالطلاب والعلماء، كانتْ (هيباتيا) تقف أمام لوحٍ كبير من الرخام الأبيض، ممسكة بقلمٍ من الفحم، تشرح ببراعة نظرية هندسية معقدة، كانت كلماتها تخرج كأنها موسيقى عذبة ومنسقة، تجمع بينَ الصرامة العلمية وسحر الإقناع.

كانتْ في منتصف الأربعينيات من عمرها، ورغم هذا لا يظهر عليها عمرها الحقيقي أبدًا، ذات ملامح مصريّة إغريقيّة جميلة، وجهها يشع بالذكاء والجمال أيضًا، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها في وقار، أنهت شرحها بابتسامة خفيفة، وقالت لتلاميذها.

- الفكر يا أصدقائي هو أعظم عطية منحها الإله للإنسان، فلا تجعلوهُ أسيرًا للخرافة أو الخوف، إنَّ البحث عن الحقيقة هو عبادة العقل، والعقل هو شعاع من نور الإله.

صفق الحضور بحرارة، والتف حولها بعض تلاميذها يسألونها عن دروس الغد، وبينما كانت تهم بالانصراف، لاحظت من بعيد رجلًا واقفًا عند مدخل القاعة يُراقبها في صمت، اقترب بخطواتٍ هادئة، وكانت نظراته عميقة تسبر أغوارها من خلف عيون زرقاء، كأنّها تشع بضوءٍ غامض، وسيمًا ذا هيئة مُميّزة، وكأنَّ خلف عينيه ألف حكاية، ابتسم لها، وقال بصوتٍ هادئ عميق.

- كنتِ اليوم حقًّا مبهرة، يا ابنة (ثاون).

ابتسمت بخجلٍ وقالت.

- أشكرك أيُّها السيّد، يسعدني أنَّكَ وجدت فيما أقول شيئًا يستحق الإصغاء.

قال وهو يطالعها بإعجابٍ صادق.

- بل الكثير يا (هيباتيا)، لقد حضرت دروسكِ في الرياضيات والفلسفة مرارًا، وأرى فيكِ امتدادًا لعِلم والدكِ بل وتجاوزًا له، أنتِ لا تدرسين الأرقام فقط، بل وكأنَّ الآلهة قد باحت لكِ بأسرارها!

خفضت بصرها خجلًا وهمّت بالانصراف، فأوقفها برفقٍ وقد مدَّ يدهُ مُصافحًا.

- هل تسمحينَ لي أنْ أُرافقكِ على شاطئ البحر؟

- أودُ مناقشتكِ في فكرة الحياة الأُخرى التي ذكرتِها في محاضرتكِ.

ترددت قليلًا، لكنَّ شيئًا غريبًا في نظرته أشعرها بالطمأنينة، فأومأت بالموافقة. ابتسمَ قائلًا.

- اسمي (أرسلينوس)، ولكنَّ الجميع يخاطبونني (بالسكندري).

خرجا معًا يسيران بمحاذاة البحر، والنسيم البارد يعبث بشعرها، بينما السماء تميل إلى الغروب، دار بينهما نقاش طويل حول الروح والموت والخلود، كانَ كُلًا منهما يطرح رأيه بشغف، قالت هي.

- لا أؤمن بحياة بعد الموت، بل بالذكرى، بالعِلم الذي نتركهُ للأجيال.

أجابها هو بصوتٍ هادئ.

- رُبما يا عزيزتي، ولكن ماذا لو كانت الروح حقًّا خالدة، لا تموت ولا تفنى؟

ابتسمت قائلة.

- إذًا فهي رحلة طويلة مُملة.

أجابها بابتسامةٍ يغلب عليها الحزن.

- رحلة أطول ممّا تتخيلين.

غابت الشّمس، واعتذرت عن تأخرها، فقال بلطف.

- اعذريني ولكنْ صدقًا لم أشعر بالوقت، حديثكِ يجعل الزمان يتوقف.

ضحكت بخجلٍ وقالت.

- وأنا استمتعت بالحوار معك.

تركها أمام منزلها وانصرف، وقلبه يخفق بعنفٍ غريب لم يشعر بهِ منذُ قرون، لقد أيقظت فيهِ هذهِ المرأة شيئًا كانَ يظنّهُ قد مات مُنذُ زمنٍ بعيد، ظل يسير على الشاطئ والذكريات تتزاحم في عقله، تذكر(أموس) حبّه القديم، التي فقدها قبل قرون، والتي ما زال طيفها يسكن قلبه، أحسَّ بأنَّ القدر يُعيد لهُ الدرس ذاته من جديد.

تكررت اللقاءات بينهما، كانتْ (هيباتيا) تفتح لهُ أبواب عقلها، وهو يفتح لها قلبه، تناقشا في الرياضيات، والفلسفة، والطبيعة، وحتّى في الإيمان، كانتْ تؤمن بالعقل، وكان هو يرى ما وراء العقل، وكلما طال حديثهما، تقاربت روحيهما أكثر، حتّى أصبحا لا يفترقان.

كانتْ تجلس معهُ بالساعات على صخور الميناء، يتأملان الأمواج، ويتحدثان عن أسرار الحياة والموت.

ومع مرور الأيّام، بدأ الناس يتهامسون عن العلاقة بينهما، وعن قرب (السكندري) من تلكَ الفيلسوفة التي تمقت الكنيسة، أمّا (بطرس) الكاتب، فكانَ غضبه يزداد يومًا

بعدَ يوم، يرى فيها خطرًا يُهدد الكنيسة والإيمان، ويرى في (السكندري) الزريعة التي يحتاجها ليتخلص منها.

وفي أحد أيَّام الشتاء القارس، كانت الإسكندرية مبللة بالأمطار، والبحر يعلن عن غضبهِ المعتاد في فصل الشتاء، خرجت (هيباتيا) كعادتها بصحبته، يسيران على الشاطئ وهي تتأبط ذراعه، تتحدث بصوتٍ هادئ عن كتاب جديد تنوي كتابتهُ حول فلسفة الروح، كان يستمع إليها مأخوذًا، صوته مختنق بالعاطفة، وفي لحظة صمت، نظر إليها طويلًا وسألها.

- هل تعتقدين أنَّ هناك أرواحًا لا تموت أبدًا، بل تتعذب لأنّها لا تجد نهاية؟

ابتسمت وقالت.

- لو كانَ الأمر كذلكَ فالخلود لعنة، فرُبما أُفضّل الموت.

تجمّدت ملامحه للحظة، وكأنَّهُ تلقى طعنة في القلب، ثُمَّ قال بصوتٍ خافت.

- إذًا أنتِ أذكى ممّا كنت أظنّ.

أثناء ذلكَ كان (بطرس) الكاتب يُراقبهما من بعيد، مختبئًا خلف الأعمدة المهدمة، يضم معطفه إلى صدره، وبجانبهِ مجموعة من أتباعه، يحملون حبال غليظة، لم يدوم انتظارهم طويلًا، فقد أوصلها السكندري إلى منزلها ثُمَّ انصرف، حينها أشار بيدهِ، وانقض الرجال عليها كذئابٍ بشرية، صرخت هي من هول المفاجأة، لكنَّ أحدهم لكمها بقسوة فسقطت أرضًا، قيدوها بالحبال الغليظة، وجرّوها إلى الشارع، حيثُ بدأت الحشود تتجمع، صرخ (بطرس).

- هذهِ التي أهانت اللّه، ونشرت الكفر، خذوها.

وتعالت صيحات الجنون من الجموع المحيطة بها تهتف.

- الموت (لهيباتيا).

جردوها من ثيابها في مشهدٍ مهين، وسحلوها في الطرقات، حتّى تلطخ جسدها بالدّماء، وتهشمت عظامها على الحجارة، كانتْ تصرخ وتئن، تطلب الرحمة، لكنَّ قلوبهم كانتْ أقسى من الصخر، الذي يُمزق جسدها العاري، التقط أحدهم صدفة بحرية مكسورة، وبدأ يسلخ جلدها وهي حيّة، حذا آخرون حذوه، وانطلقت صرخاتها المدوية، تخترق ليل الإسكندرية كطعنةٍ في السماء، وحينَ أنهكها الألم، صبّوا عليها الزيت وأشعلوا فيها النار، تصاعد الدخان، وتبددت صرخاتها مع لهبها المتصاعد إلى السماء.

وعلى مقربةٍ كانَ (السكندري) يسير في أحد الأزقة، حينَ سمع تلكَ الصرخة التي ميّز صوت صاحبتها جيّدًا، صوتها اخترق كيانه، فتجمّدَ للحظة، ثُمَّ انطلق بسرعةٍ خارقة نحو مصدر الصوت.

كانت الأزقة تموج بالناس، والدخان يملأ السماء، ورائحة اللحم المُحترق تخنق الأنفاس، شقَّ الصفوف بجسدهِ كالعاصفة حتّى وصل إلى الدائرة، التي تتوسطها النيران.

رآها هُناك، كانتْ (هيباتيا) ملقاة وسط اللهب، جسدها قد تفحم وملامحها الجميلة تذوب من فعل النيران، سقط على ركبتيه، صرخ صرخة رهيبة دوت في أرجاء المدينة، اشتعلت عيناهُ بالضوء الأزرق من جديد، بعد قرونٍ من الخفوت.

ضربت الرياح فجأة، وارتجت الأرض من تحت أرجلهم، وانقضّ على القتلة كالبرق، لا يُرى إلّا وميض عَينيهِ بينَ الظلال، لم يترك منهم أحدًا، مزقهم بقبضتهِ كأنّهم ورق في مهب ريحٍ عاتية، وصارت الأزقة تمتلئ بجثثهم وصدى صرخاتهم.

وحينَ سكنت العاصفة بموت الجميع، عاد إلى جسدها المتفحم، حملها بينَ ذراعيهِ كطفلةٍ نائمة، ودموعه تتساقط على وجهها المحترق، كأنّها محاولة أخيرة لإعادتها للحياة، سار بها عبر شوارع المدينة المظلمة حتّى وصل إلى أطرافها، وهناك وضعها أرضًا، دونَ أنْ ينبس ببنت شفة، فقط نظراته كانتْ تتحدّث، جلسَ إلى جوارها، وجهه مغطى بالتراب، وعيناه تنزفان حزنًا، وقال بصوتٍ متهدج.

- كم من مرّةٍ يا إلهي تأخذ منّي مَن أُحبّ؟ كم من مرّةٍ أُلعن بالخلود كي أعيش مرارة الفقد؟
- أهذهِ هي عدالة الآلهة؟!

نهض وحمل جثمانها، وأدار ظهره للمدينة التي فقد فيها كُلّ مَن أحب، وسار نحو الصحراء، بينما كانَ صوت الموج البعيد يختلط بأصداء صرختهِ الأخيرة، وكأنَّ الإسكندرية نفسها تبكي (هيباتيا)، آخر مَن أضاء فيها نور العقل قبلَ أنْ يُخمدهُ الجنون.

الفصل الثالث والثلاثون

الزمان: ٦٤١ ميلاديّة

المدينة العريقة يُحاصرها جيش المسلمين مُنذُ شهورٍ طويلة، وأبوابها المنيعة تئن من ضربات المجانيق، شوارع المدينة تمتلئ بالقتال والجوع والخوف، كانتْ الإسكندرية آخر حصن يقف في وجه الفتح الإسلامي، آخر ما تبّقى من ظلّ بيزنطة في أرض مصر، تلكَ الأرض التي أنهكها الصراع بينَ (المقوقس) الرومي، وبينَ أبنائها الأقباط الذينَ ذاقوا العذاب تحت سطوته، وهو يحاول أنْ يفرض عليهم عقيدته بالقوة والنار.

في ركنٍ من أركان المدينة، داخل قبو حجري عتيق قُرب الميناء الشرقي، جلس (السكندري) في هدوء، ينظر إلى النيران المُشتعلة في حُزمة الاخشاب التي أمامهُ، أمامهُ يجلس شاب في الثلاثين من عمره، ثوبه من الكتان، وجهه نحيل، تحملُ عيناهُ الكثير من الهدوء، اسمه (يعقوب)، أحد تلاميذ البابا (بنيامين) الهارب إلى صعيد مصر، الذي نجا بنفسهِ من بطش (المقوقس)، فاختفى بينَ الأديرة في الصحراء، يُرسل تلاميذه سرًّا لنشر رسائلهِ بينَ المؤمنين المضطهدين، قطع الصمت يعقوب بصوتٍ خافت.

- يا سيدي (السكندري)، لقد ضاقت صدور الناس، ولم يبقَ طعام ولا أمل، الجنود الروم في الحصون لا يأبهون للجياع، و(المقوقس) اختفى مُنذُ أسابيع، أينَ هو؟ لا أحد يعلم، أمَّا نَحنُ فقد تركنا بلا راعٍ ولا قائد.

رفعَ السكندري رأسهُ ببطءٍ ونظرَ إليهِ، وقالَ بصوتٍ هادئ، وكأنَّ الأمر لا يعنيه أو يتوقعه.

- (المقوقس) هربَ كما يهرب الضعفاء حينَ يرون السيوف، لم يكن يومًا ابن هذهِ الأرض، ولن يُضحي بحياتهِ من أجلها.

غمغمَ (يعقوب) في أسف.

- لكنَّ المدينة يا سيدي تلفظ أنفاسها الأخيرة، الحصار طال، والناس تنتظر الفرج من السماء، هل تراهُ يأتي من الشرق؟

- من هؤلاء المسلمين؟

تمتم (السكندري) قائلًا.

- رُبما يا (يعقوب)، كُلّ أُمّة تأتي تحمل نورها ونارها، ولكنْ مَن يقرأ التاريخ يعرف أنَّ مصر لا تموت، بل تُبعث في كُلّ عصرٍ بثوبٍ جديد.

ساد الصمت لحظة، لا يسمع فيها إلَّا صوت الريح بالخارج، كان (يعقوب) يُحبُّ مُجالسة (السكندري)، يُسامرهُ في الأحاديث، يشعر أنَّهُ شخصٌ غريب، قوي، حكيم، يملك حكمة وعلوم كمَن عاشَ ألف عام، فأصبحَ لهُ تابعًا وتلميذًا واتخذهُ مُعلّمًا، خرجَ (يعقوب) من شرودهِ ثُمَّ قال، وهو يُحدّق في عيني مُعلّمه.

- لقد سمعت أنَّ قائد المسلمين اسمه (عمرو بن العاص)، هو رجلٌ حكيم أكثر منهُ مُحارب، وقد أرسلَ رسائل إلى الناس يُؤمنّهم فيها على حياتهم إنْ سلّموا المدينة.

ابتسمَ السكندري ابتسامة غامضة.

- الحكمة لا تعني الرحمة دائمًا يا (يعقوب)، ولكنّني رأيت هذا الرجل من بعيدٍ يوم كان على تخوم المدينة، فيهِ حزم مَن لا يتردد، ودهاء مَن يعرف أنَّ النصر ليسَ بالسيف وحده.

قبلَ أنْ يرد (يعقوب)، دوى صوت الهتاف في الخارج، كَموجةٍ بحريّة اجتاحت الشوارع دفعة واحدة.

"اللَّهُ أكبر، اللَّهُ أكبر" .

هتافٌ غريب بلُغةٍ غريبة، تُشبه لهجة الأعراب وبدو الصحراء في أرض فيران، تبادلا النظرات، ثُمَّ اندفعا إلى الخارج، تسابقا في الأزقة الضيّقة حتّى وصلا إلى ساحة السوق القديمة، كانتْ الأعلام البيضاء تُرفع فوقَ الأبراج، وأبواب الأسوار قد فُتحت دونَ قتال، وجنود الروم اختفوا وكأنَّ الأرضَ قد ابتلعتهم!

خرجَ الناس من منازلهم ينظرونَ بدهشةٍ إلى صفوف الفرسان، التي تقدّمت في هدوء، لا نهب، لا صراخ، لا دّماء، وفي مُقدّمتهم رجل طويل القامة، وجهه مهيب، يرتدي درعًا بسيطًا فوقَ عباءةٍ بيضاء، يمتطي جوادًا عربيًا أسودًا يلمعُ في ضوء النهار، هو القائد (عمرو بن العاص) نفسه، توقفَ القائد عندَ ساحة كبيرة، ترجّل عن حصانه، رفع يده، وأمر مُترجمهِ القبطي أنْ يبلّغ النّاس قوله.

- "أيُّها النّاس، مَن كانَ منكم من أهل مصر، من قبطها أو يهودها، فلهُ العهد والأمان، على نفسهِ ومالهِ وعبادته، لا يُؤخذ منهُ شيء إلّا بحقّ، ومن دخل في ذمّة المسلمين فهو آمن، لا يُظلم ولا يُهان".

كانتْ الكلمات تنساب كالماءِ البارد على وجوه الناس بعد ظمأ شديد، تتبعها نظرات غير مصدقة، تابع القائد وهو يُمسك برقعةٍ جلديّة ويدفعها إلى كاتب كانَ بجواره.

- اكتُبوا هذا المرسوم.

كانَ يتحدّث بلغتهِ ويقوم المُترجم القبطي بالترجمة للجموع، فأمسك الكاتب بريشته، ودوّنَ بخطٍّ جميل.

"الموضع الذي بهِ (بنيامين) بطريرك النصارى القبط، لهُ العهد والأمان والسلام، فليحضر آمنًا مُطمئنًا ليدبر شعبه وكنائسه".

حينَ نُطقت الجملة الأخيرة، تهلّل وجه (يعقوب)، وانحنى أمامَ (السكندري) قائلًا.

- لقد عادَ السلام يا سيدي، البابا (بنيامين) سيعود إلى كُرسيّه، وستنتهي سنين الاضطهاد، يجب أنْ أذهبَ إليهِ فورًا، أُخبرهُ بما حدث.

رمقهُ (السكندري) بنظرةٍ طويلة، ثُمَّ قالَ بهدوء.

- طريق الجنوب طويل، والصحراء ليست آمنة، (المقوقس) ترك وراءهُ رجالًا لا يؤمن

جانبهم، وقُطاع الطُرق يملأون الطرقات، لن تذهب وحدك، سأرافقك.

- ولكن...

نطقها (يعقوب) وكأنَّهُ يخشى على مُعلّمهِ مشقة الطريق، وخاصّةً أنَّهُ غير قبطي، فالأمر لا يخصّهُ كي يتحمل تلك المشقة، فقاطعهُ (السكندري) قائلًا.

- لا تقل شيئًا يا (يعقوب)، أحيانًا يختار القدر لنا طريقًا لا مفرَّ منه.

****

بدأت الرحلة بعدَ أيَّامٍ قليلة، عبرَ الاثنان الصحراء الغربية، والسماء فوقهما صافية كوجه البحر، والشَّمس تضرب الرمل بوهجٍ يلسع الأقدام، ويصل إلى الأبدان، كانَ (السكندري) يسير بخطواتٍ ثابتة، بلا كلل أو إرهاق بينما (يعقوب) يتصبّب عرقًا، ويترنّح من الإرهاق، لكنْ نظرات مُعلّمه كانتْ تمنحهُ طاقة للاستمرار ،وفي الليل كانا يستريحان بجوار جذوةٍ من النار، يسمعان أصوات الذئاب تأتيهما من بعيد، في إحدى الليالي الطويلة للرحلة، قالَ يعقوب.

- يا سيدي، مُنذُ عرفتك وأنا أراكَ لا تأكل إلَّا قليلًا، ولا تنام إلَّا قليلًا، حقًّا مَن أنت؟

ابتسمَ السكندري، ونظر إلى النيران، وأجابَ بهدوء.

- أنا ظلّ تلكَ المدينة يا (يعقوب)، كُنتُ فيها حينَ كانتْ عاصمة للعالم، ورأيت مكتبتها وهي تُبنى، ومنارتها وهي تُضاء للمرّة الأُولى، ورأيتُ المدينة تغرق وتنهار وتحترق، ويعاد بناؤها مرّةً أُخرى كالعنقاء تخرج من رمادها، وسمعت صرخات علمائها وأرواحهم تصعد إلى السماء، وها أنا أراها تولد من جديد كُلّ مرّة.

كانَ (يعقوب) قد سقط فكه السُفلي من الذهول ممّا يسمع، فتساءل بدهشة.

- أأنت بشر مثلنا؟

انطلقت ضحكة مجلجلة من فم (السكندري)، شقت سكون الليل، وساد الصمت من بعدها، وواصلت النار تلعق الحطب بصوتٍ خافت كأنّها تحفظ ما قيل، وبعدَ عشرين يومًا من السير بينَ الرمال والوديان، لاحَ لهما دير صغير على تلّ صخري، يُحيط بهِ سور من الطين، يعلوهُ صليب من الخشب المُتهالك، هُناكَ حيثُ يُقيم البابا (بنيامين)، الرجل الذي صمد رغم كُلّ ما لاقاهُ من مُعاناة هو وشعبه، حينَ دخلا القلاية، وجداه جالسًا على بساط من الحصير، يرتدي جلبابًا أسود ووشاحًا يغطي رأسه، كانتْ ملامحه حادّه، وجسدة هزيل، لكنَّ عيناهُ تفيض بالسلام، أسرعَ (يعقوب) إليه، وخرّ ساجدًا على الأرض في مطانية تبجيلًا لا عبادة، وقالَ وهو يبكي.

- سيدنا البابا، عادَ السلام إلى مصر، القائد (عمرو بن العاص) أمير المسلمين، قد أعطاكَ الأمان لكَ ولشعبنا، ووقّع على مرسوم بعودتكَ إلى كرسيك.

رفعَ البابا رأسهُ ببطء، نظر إلى (يعقوب) ثُمَّ إلى (السكندري)، الذي وقفَ صامتًا في رُكنٍ قصيّ من القلاية، قال بصوتٍ هادئ.

- ليُمجَّد اسم الربّ في كُلّ زمان، ومَن أنتَ أيُّها الغريب؟

تقدّم السكندري بخطواتٍ بطيئة، ومدَّ يدهُ مُصافحًا، وقال.

- أنا رجلٌ من الإسكندرية، جئت أحرس (يعقوب) في رحلته.

نظر البابا إليهِ طويلًا كأنَّهُ يُحاول أنْ يقرأ ما خلف عينيه الزرقاوين، ثُمَّ قال.

- بك سرّ لا أُدرك كنهه، ولكنني أشعر أنَّكَ مُرسل بقدر.

جلسوا جميعًا، وتحدّثوا طويلًا عن المدينة التي تغيّرت، عن نهاية الحكم البيزنطي، وعن بداية عهد جديد، قد يكون أكثر عدلًا، ثُمَّ قالَ البابا بعدَ صمتٍ طويل.

- علينا أنْ نعود، الشعب ينتظرني هناك.

****

كانتْ العودة أشدّ مشقة من الذهاب، الرياح اشتدت، والطُرق امتلأت باللصوص والنَّاهبين، الذينَ يفرّونَ من المُدن بعد سقوطها، أثناء ترحالهم في إحدى الليالي، حينَ كانوا يعبرون واديًا ضيّقًا تُحيط بهِ الصخور، خرجت عليهم مجموعة من الرجال، وجوههم مُغطاة، وسيوفهم تلمع في الظلام، تقدّم زعيمهم وهو يصيح.

- ألقوا ما معكم من مالٍ وطعام.

وقفَ (السكندري) أمامَ (البابا) و(يعقوب)، رفعَ رأسهُ ببطء، وقالَ بلهجةٍ حازمة، والغضب يرتسم على ملامحه.

- ابتعد وأفسِح الطريق.

تعالت ضحكة ماجنة من قاطع الطريق، وتبعهُ البقية من أتباعهِ في السخرية، وتقدم من (السكندري)، وقالَ وهو يكاد يلامس وجهه.

- وإنْ لم نبتعد، ماذا ستفعل أيُّها الوسيم؟

وفي لحظةٍ خاطفة، بدأت عينا (السكندري) تشتعل بضوءٍ أزرقٍ متوهّج، صرخ أحد اللصوص.

- ما هذا؟؟

- إنَّهُ شيطان من الجان.

لكنْ قبلَ أنْ يُكملَ صراخه، كانَ (السكندري) قد اندفعَ بينهم كالإعصار، حركته لا تُرى، سيوفهم تتكسر على جسده، وصيحاتهم تختنق في حناجرهم، في لحظات، ساد الصمت والريح تحمل رائحة الدّم.

تراجعَ (يعقوب) مذهولًا، بينما البابا رفع صليبه، وهمسَ بصوتٍ مرتجف.

- مَن أنت؟

- هل أنت ملاك من السماء؟

اقتربَ السكندري منه، ومسح عن يدهِ الدّماء، ثُمَّ قال بابتسامةٍ حزينة.

- بل بشر يا سيدي، قد وضعتهُ الآلهة في طريقك لحمايتك.

- ويكفي هذا لا تسأل أكثر، فليسَ كُلّ ما يُكشف يُقال.

واستدار وأكمل طريقهُ في صمتٍ فتبعاهُ، وصلوا إلى مشارف الإسكندرية بعدَ أسابيع، والمدينة بدت مختلفة، لا رايات روم ولا جنود، بل أسواق بدأت تدب فيها الحياة من جديد ،لكنْ من بعيد، تصاعدت أعمدة الدخان من الجهة الجنوبية للمدينة، تغيّر وجه السكندري، وانطلق راكضًا تاركًا البابا و(يعقوب) خلفه، حتّى بلغ منطقة الميناء القديم، وهُناكَ رأى ما لا يحتملهُ قلبه.

كانت النار تأكل ما تبّقى من مكتبة الإسكندرية، الألواح و المخطوطات، الكتب التي نجت من حريق (المقوقس) قبلَ سنوات، كلها تلتهمها النيران، بينما الجنود ينقلون الكتب والمخطوطات بأوامر من القائد، اقتربَ من أحد الواقفين، وسأله.

- مَن أمرَ بهذا؟

أجابهُ المتابع للموقف في أسف.

- القائد (عمرو بن العاص) يا سيدي، بعد أنْ سأل أمير المؤمنين (عمر بن الخطّاب)، فجاءهُ الجواب. "إنْ كانَ ما فيها ممّا يوافق كتاب اللّه، فكتاب اللّه يُغنينا عنه، وإنْ كان فيها ما يُخالفهُ فلا حاجةَ لنا بهِ".

تجمّد (السكندري) في مكانه، عيناه الزرقاوان لأوّل مرّة ينطفئ بريقهما من اليأس، شعر أنَّ جزءًا من روحهِ يُنتزع مع كُلّ ورقة تحترق، تراجع ببطء، رفع وشاحهُ الأسود إلى وجهه، وغادر المكان دونَ كلمة، صعد ربوة تطلّ على المدينة، والريح تعصف بثوبه، والدخان يصعد إلى السماء في مشهدٍ لن ينساهُ أبدًا، همسَ بصوتٍ متهدّج من الحزن، والدموع تنساب على وجنتيه.

- كُلّ عصرٍ لهُ نارهُ التي تلتهم ذاكرته.

ثُمَّ أدار ظهرهُ للإسكندرية، وسارَ نحو الصحراء يبتعد، بينما الأدخنة تتصاعد خلفه، كأنّها أعمدة تصل إلى السماء تستودع إرث انساني عظيم!

كانَ يُدرك جيّدًا أنّها ليست النهاية، بل بداية حقبة جديدة لمدينةٍ لا تموت.

الفصل الرابع والثلاثون

الزمان: عام ١٤٧٧ ميلاديّة.

كانتْ الإسكندرية في ذلكَ الوقت تُعيد ترتيب وجهها، كما يُعيد البحر أمواجه بعد العاصفة، شَّمس الصباح تُشرق فوقَ بقايا عظيمة، حيثُ تقف أنقاض المنارة الشهيرة، منارة (فاروس)، التي تهدّمت مُنذُ أكثر من قرنٍ ونصف؛ بسبب زلزال عظيم آخر ضرب المدينة، ودمّرَ نصف مبانيها، وكاد أنْ يمحيها بالكامل من الوجود، ولكن يبدو أنَّ المدينة أقوى ممّا قد نتخيّل أو نتوقع، وها هي أطلال المنارة المُتهدمة، تشوّه مدخل المدينة الغربي كما تشوّه الندبة وجه الجميلة! التي كانتْ يومًا تُضيء البحر كلّه.

اقترب موكب السلطان (الأشرف أبوالنصر قايتباي المحمودي) من الساحل، تحفُّ بهِ الخيول والعلماء والمهندسون وقادة المماليك، والموسيقى تدقّ من بعيد، إيذانًا بوصول السلطان إلى المدينة العريقة، التي كانتْ يومًا عروس البحر، والآن صارت عجوزًا تتكئ على ذكرياتها.

هبط السلطان (قايتباي) عن صهوة جوادة، ووقفَ على ربوةٍ صغيرة يطلّ منها على الخراب العظيم، ونظر طويلًا إلى الأنقاض الصامتة، كأنَّهُ يسمع من بين الحجارة صدى تاريخ عظيم، قالَ وهو يزفر بأسى.

- تلكَ كانتْ فخر الدُّنيا يا رجال، منارة الإسكندرية التي أضاءت البحر والممالك، صارت اليوم كومة من حجارة مهدمة.

اقترب أحد المماليك قائلًا باحترام.

- مولاي، إنَّ لدينا من المهندسين مَن يستطيع أنْ يُعيد بناءها كما كانت.

لكنَّ السلطان هزّ رأسه في هدوء، وقال.

- لا تُعاد المعجزات يا ولدي، ولكننا نستطيع أنْ نُحيلها إلى شيءٍ آخر، شيئًا يحفظ للإسكندرية مجدها وكرامتها.

عندها أشارَ إليهِ أحد القادة أنَّ هُناكَ رجلًا يستطيع أنْ يقوم بهذا، وقالَ لهُ إنَّهُ خبير نادر، يصفه المماليك بالعبقري، ويقال إنَّ فكرهُ أوسع من البحر نفسه، أَذن السلطان بإحضاره، وبعد لحظات دخل رجل في منتصف العمر، طويل القامة، يتشح بالسواد، وفي عينيه بريق غريب يدل على ذكائه، وقدمه القائد.

- ذاكَ هو (عبد اللَّه السكندري)، الذي يملك من المعرفة ما لم يملكهُ أحدٌ غيره.

انحنى أمام السلطان باحترام، وقالَ بصوتٍ هادئ رزين.

- مولاي السلطان، شرف لي أنْ أقف أمامكَ على شاطئ المدينة الخالدة.

ابتسمَ (قايتباي)، وأشار إليهِ بالاقتراب.

- بلغني أنَّكَ صاحب فكرٍ راجح، وأنَّكَ تستطيع أنْ تُحيلَ الخراب مجدًا، فقل لي يا (عبد اللَّه)، ما ترى في هذهِ الأنقاض؟

تقدّم السكندري بخطواتٍ واثقة، نظر إلى الأنقاض، ثُمَّ إلى البحر، وقال.

- يا مولاي، هذهِ الحجارة شهدت عصورًا وسقوط ممالك، وحروب، وعواصف، إنَّ بقايا المنارة ليستْ ميّتة كما تراها، بل تحمل روح الإسكندرية نفسها، إنْ جمعتَ حجارتها في بناء جديد، فإنّها ستعود لتحرس المدينة لا تنيرها فقط.

صمت (قايتباي) قليلًا، ثُمَّ ابتسم بإعجاب، وضرب بيدهِ على كتف (السكندري) قائلًا.

- واللَّه إنَّكَ لذو عقلٍ حكيم كما قالوا عنك، ما أجمل أنْ تحمي المدينة بروح من أنارتها يومًا، لقد راقت لي فكرتك يا (عبد اللَّه)، وسأوليك تنفيذها، وأمنحك كُلّ الصلاحيات، وما تحتاجهُ من بيت المال، يُصرف لكَ دونَ قيد.

انحنى (السكندري) ثانيةً في احترام، وهمسَ قائلًا.

- سأجعلها يا مولاي حصنًا لا تُكسر أسواره ما دامَ في البحر ماء.

****

بدأ العمل بعدَ أيَّامٍ قليلة، وامتدت تجمعات البناء على مساحة واسعة عند طرف الميناء، كانتْ الخيول تجلب الحجارة من الأنقاض، والرجال يعملونَ ليلَ نهار تحت إشراف (السكندري)، وصديقه المُقرّب المهندس (أحمد بن زيد الأنصاري)، الذي كانَ بمثابة الأخ الذي لم تُنجبهُ أُمّه.

كانَ (أحمد) هادئ الطباع، واسع الابتسامة، صادق القلب، وكأنَّ الإله قد أرسلهُ ليكونَ (للسكندري) عزاءً عن كُلّ ما فقدهُ في رحلتهِ الطويلة.

جلسا معًا ذات مساء على صخرة تطلّ على البحر، يُراقبان العُمّال وهم ينصبون الأساسات، قال (أحمد) وهو يبتسم.

- لم أرَ في حياتي أحدًا يعرف أسرار البناء مثلكَ يا (عبد اللَّه)، كيفَ استطعت أنْ تضع هذا التصميم بهذهِ الدقة؟

ضحكَ (السكندري)، وقال وهو ينظر إلى الأفق.

- رُبما لأنَّني رأيت ما لم ترهُ أنتَ يا صديقي، رأيتُ مُدنًا تنهض وأُخرى تسقط، ومعابد تُبنى ثُمَّ تُهدم، وتعلّمت أنَّ كُلّ حجر يحمل سرًّا، إنْ أصغيت لهُ جيّدًا فقد ملكته.

أنصتَ إليهِ (أحمد) في انبهار، ثُمَّ سألهُ.

- ومن أينَ لكَ هذهِ الحكمة؟

صمت (السكندري) لفترة، ثُمَّ غمغم قائلًا.

- من بحرٍ لا ينتهي اسمهُ الزمن.

ابتسمَ (أحمد)، ولم ينطق بعدها، كانَ يُدرك أنَّ لصديقهِ سرًّا أكبر من أن يُسأل عنه.

****

مرّت الشهور، وارتفع الطابق الأوّل من القلعة، شامخًا كأنَّهُ يخرج من قلب البحر!

لكنْ ذات ليلة، وبينما كانَ (السكندري) يتفقد الأساسات بنفسه، لاحظَ أنَّ بعض الحجارة من الجهة الجنوبية قد تحركت عن موضعها، أمر بإيقاف العمل في تلك المنطقة، وتفقدها جيّدًا، فوجد علامات حفر حديثة، وأثر أقدام حولها، في اليوم التالي لم يُخبر أحدًا، بل قرر أنْ يتحققَ من الأمرِ بنفسه.

وحينَ أرخى الليل سدوله، تسلّل إلى موقع البناء، متشحًا بالسواد، يخفي وجهه بوشاحٍ أسود، لا يظهر منهُ إلّا بريق عَينيهِ الأزرق في الظلمة، جلسَ على ربوةٍ عالية تطلّ على موقع القلعة، يُراقب الصمت الذي يُغطي المكان. الريح تعصف بالرمال، والبحر يصدر أنينًا كأنَّهُ يحذر، وفجأة، لمح ظلالًا تتحرك قرب الأساسات، مجموعة من الرجال يحملون معاول، يهمّون بالحفر خلسة، قفز من مكانهِ بخفة النمر، وهبط بينهم قبلَ أنْ ينتبهوا، فانطلقت صرخة قصيرة تلتها لمعان سيوفهم في العتمة.

دارت معركة سريعة، والسيوف تلمع وتضرب، لكنْ ما لبثَ أنْ اشتعلت عيناهُ بضوءٍ أزرقٍ رهيب، فارتجّ المكان كأنَّ البرق نزل فيه، وفي لحظات سقط أغلبهم قتلى، بينما فرّ اثنان في الظلام.

اقترب من أحد القتلى الذي لم يلفظ أنفاسه بعد، أمسكَ برأسه ورفعه، نظر في وجهه، فإذا هو أحد مماليك (مراد بك)، الحاكم العسكريّ لمصر، كانَ قد رآهُ معهُ من قبل بجواره، وهو لا ينسى الوجوه أبدًا مهما مرّ الزمن.

زمجرَ (السكندري) بصوتٍ جعل الهواء نفسه يرتجف.

- مَن أمرك بهذا؟

أجابهُ الجريح بصوتٍ متقطع وهو يلهث.

- إنّها أوامر (مراد بك)، يريد إفشال البناء.

- لماذا؟

لكنَّ الرجل لم يُجب، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبلَ أنْ يُكمل كلماته، وقف (السكندري) وقد احتقن وجهه بالغضب، رفع رأسه نحو السماء الغائمة، وصرخ صرخة هائلة هزّت المكان، ارتجّت لها المبانى القريبة، وطار سرب من الغربان من فوق السور كأنّها أشباح الليل!

ثُمَّ استدار وغادر كالعاصفة، يمضي نحو قصر (مراد بك).

****

بعد يومين، كانت ليلة غارقة في السكون، السماء بلا قمر، ومدينة القاهرة نائمة تمامًا في ذلك الوقت، كانَ (مراد بك) يجلس في حجرتهِ داخل قصره الكبير، يرتشف شراب الرمان الذي يعشقه، وقد أطفأ المصابيح استعدادًا للنوم، لكنَّ إحساسًا غريبًا زحف إلى صدره، شعر بأنَّ أحدًا يُراقبه.

رفع رأسه نحو زاوية مظلمة في الغرفة، فرأى ظلًا يتحرك، نهض بسرعة، قبض على سيفه المعلّق قرب الباب، وصاح.

- مَن هناك؟!

لم يأتِه جواب، فاندفع بضربة سريعة نحو الظل، لكنَّ السيف لم يصب شيئًا سوى الهواء، في اللحظة التالية، وجد نفسه في مواجهة رجل متشح بالسواد، عينيه تتوهجان بضوءٍ أزرقٍ مخيف، كأنهما عينا جنيٍّ خرج من باطن الأرض، دار بينهما قتال قصير وسريع، تكسّر فيهِ بعض الأثاث وتناثرَ الشرر من السيوف، حتّى أفلت السيف من يد (مراد بك) وسقط أرضًا، فوجد نفسه ملتصقًا بالحائط، ونصلٌ بارد على عنقه، قال (السكندري) بصوتٍ حادٍّ يخترق الصمت.

- لماذا أردت تدمير القلعة؟

التزم مراد بك الصمت، لكنَّ عيناهُ كانتا تفضحانه، غرز السكندري النصل قليلًا في صدره فصرخ في ألم، وقال.

- سأُخبرك، سأُخبرك!

ثُمَّ تابع وهو يلهث.

- ملك فرنسا، أرسل إليَّ مرسولًا، طلب ألَّا يُبنى هذا الحصن أبدًا، ووعدني بالعطايا والذهب إنْ أفشلت البناء، ففعلت ما طلب.

ارتسمت على وجه (السكندري) نظرة ازدراء، تراجع خطوة، ثُمَّ قال بصوتٍ خافت يغلي غضبًا.

- بعتَ مدينتك مقابل الذهب، ولم يُكمل، بل غرس سيفه حتّى النصل في صدر(مراد بك)، الذي اتسعت عيناهُ في رعب، قبلَ أنْ يسقط جثّة هامدة.

وقفَ (السكندري) لحظة فوقَ جثمانهِ وبصق، ثُمَّ همس.

- هكذا ينتهي الخونة.

غادر القصر في صمت، والليل يبتلعهُ كما يبتلع البحر حطام السفن.

****

عادَ إلى الإسكندرية، واستأنف العمل في القلعة بنفسه، أشرف على كُلّ حجر وعمود يتم بنائه، حتّى اكتمل البناء بعدَ عامين كاملين، وها هي القلعة تقف شامخة عند حافة البحر، كأنّها أسدٌ يحرس المدينة، وفي يوم الافتتاح، جاء السلطان (قايتباي) بنفسه، ووقف أمام البوابة الكبيرة المهيبة، رفع رأسه مبهورًا وقال.

- ما أروع هذا البناء! لقد فقتَ ظنّي يا (عبد اللّه)، إنَّ هذا الحصن سيكون درعًا للإسكندرية لأجيال قادمة.

انحنى (السكندري) احترامًا، وقال.

- هذا بعض ما تستحقه هذهِ المدينة العظيمة يا مولاي.

في المساء، حينَ هدأت الأصوات وخلا المكان إلّا من هدير الأمواج، التي تتكسر على أحجار القلعة، وقفَ (السكندري) على سور القلعة العلوي، ينظر إلى البحر الذي يعانق الجدار بأسنانهِ البيضاء، والنسيم يعبث بوشاحهِ الأسود، تذكّر كُلّ العصور التي مرّ بها، كُلّ الذين أحبّهم وفقدهم، وكُلّ المباني التي رآها تُبنى وتُدمر، سمع خطوات خلفه، فالتفت، كان صديقه (أحمد بن زيد)، يقترب منهُ بابتسامتهِ المعهودة.

- ما أجملها يا (عبد اللّه)! لقد أتممت عملًا سيبقى ما بقيَ البحر.

ابتسمَ (السكندري) ومدّ يدهُ إليهِ فتعانقا، قال لهُ أحمد.

- ستُخلّد باسمكَ يا صديقي.

لكنْ قبلَ أن يرد، اخترق صوت حادّ صمت المساء، ثُمَّ ارتجف جسد (أحمد)، سهم غادر فى الظلام، استقر في ظهره، اتسعت عيناهُ دهشة وألمًا، وسقط وهو يُمسك بذراع (السكندري)، ولفظ أنفاسه الأخيرة بينَ يديه.

صرخ (السكندري) صرخة مكبوتة، ووضع جسده أرضًا برفق، ثُمَّ نهض كالعاصفة، ركض في اتجاه مصدر السهم، وقد اشتعلت عيناهُ بالضوء الأزرق، والظلام بدا وكأنَّهُ

يشق لهُ طريقًا، بينَ الصخور على الشاطئ لمح رجلًا مُلثمًا يهرب، فاندفع نحوه بسرعة البرق، أمسكهُ من عنقهِ ورفعهُ كَطفلٍ!، صرخ الملثم رعبًا.

- ارحمني، كنتُ مأمورًا.

وبغضب صرخ بهِ السكندري.

- مَن أرسلك؟

صرخ الرجل فى رعب .

- مملوك آخر من أتباع (مراد بك)، يُريد الانتقام لمقتله، قالوا لي اقتل (السكندري)، لكنَّ صديقَكَ قد وقف في طريق السهم فقتلتُه خطأً.

تجمّد (السكندري) لحظة، ثُمَّ غلبهُ الغضب، فانقض عليهِ بيديه، ومزّقه بقوةٍ غير بشرية، وكأنَّ أرواح مجموعة حيوانات مفترسة تسكنه، حتّى تخضبت مياه الشاطئ بدمائه، عاد بعدها إلى القلعة، إلى جسد صديقه المسجّى على الأرض، جلسَ بجانبهِ طويلًا، ورفع رأسه نحو السماء، عيناه ما زالتا تبرقان بضوءٍ أزرقٍ حزين، حملهُ بينَ ذراعيهِ وأخذَ يسير بهِ خارج القلعة، والبحر من خلفه ينوح كأنَّهُ يبكيهما معًا، همس بصوتٍ متهدّج، وهو يغادر المكان.

- مكتوبٌ عليَّ أنْ أحمل أجساد أحبّتي إلى مثواهم الأخير.

وسار في الظلام، والريح تعصف بثوبه، حتّى غاب في الصحراء، تاركًا خلفه القلعة التي ستُعرف إلى الأبد باسم قلعة (قايتباي)، شاهدة على عبقريته، وعلى لعنتهِ الأبدية التي جعلته خالدًا، لكنَّهُ وحيدًا، غريبًا لا يُعرف لهُ زمان!

الفصل الخامس والثلاثون

الزمان: عام ١٧٩٨ ميلاديّة.

كانَ صباح الإسكندرية في الأوّل من يوليو، في ذلكَ العام مُختلفًا عن أيّ صباحٍ آخر، مرّ على المدينة العريقة، ذلكَ اليوم الذي سيبقى محفورًا في ذاكرة التاريخ، وفي قصر حاكم المدينة (محمد كُريم)، الذي كانَ منشغلًا بمطالعة الكثير من الطلبات، وأوراق المراسلات متناثرة على مكتبه الخشبي الضخم، وريشة الكتابة بينَ أصابعه ما زالت تقطر بالحبر الأسود، حينَ اندفع أحد الجنود إلى القاعة لاهثًا، وجهه مغبر، وملابسه تدل على أثر الركض الطويل، صوته المُرتجف يحمل الرعب في نبراته، وهو يصيح.

- الفرنجة يا مولاي، الفرنجة وصلوا إلى العجمي، قواتهم تحتل الشاطئ الآن.

تجمّد الموقف للحظة في القاعة، توقفت حركة كُلّ مَن فيه، حتّى الطيور التي كانت تحوم قرب النوافذ، كأنّها أحسّت بثقل الخبر، فتوقفت عن زقزقتها، نهض (محمد كُريم) من مكانهِ بسرعة، واصطدم طرف عباءته بمكتبه، فتناثرت الأوراق في كُلّ اتجاه، لم يأبه لذلك، بل اتجه بخطىً مسرعة نحو السلالم المؤدية إلى سطح القصر، يتبعهُ عدد من حراسه وكُتّابه.

وما إنْ وصل إلى الأعلى، حتّى تناول من أحد الخدم منظارًا طويلًا يُشبه العصا، وضعهُ أمامَ عينهِ اليُمنى، وأخذ يتأمل الأفق الممتد نحو الغرب من بعيد، في تلك المنطقة المقفرة المعروفة بالعجمي، كان المشهد أشبه بجدار من الأشرعة البيضاء يغزو الأفق، تلمع تحت شَّمس يوليو القاسية، صفوف طويلة من السفن الحربية، تقترب من الساحل في نظام عسكري مهيب، ترفرف عليها الأعلام الفرنسية، والبّحارة يتحركون على متنها كخلية نحل.

شعر محمد كُريم بانقباضٍ في صدره، كأنَّ شيئًا ثقيلًا قد جثم عليه، ثُمَّ التفت فجأة خلفه بعينين باحثة تعج بالقلق، وصاح بأعلى صوته.

- أينَ (المأمون)؟

- أينَ (السكندري)؟

لم يكن (السكندري) مُجرّد رجل من رجاله، بل كانَ عقله الذي يعتمد عليهِ في أصعب المواقف، رجلًا غامضًا، حكيمًا كأنَّهُ عاش قرونًا، لا يُعرف لهُ عمر ولا نسب، وكان (محمد كُريم) يثق في بصيرته كما يثق في سيفه.

وفي تلك اللحظة، لم يكن هناك وقت للتردد، تحركت قوافل الجنود على عجل، تدق الطبول في أحياء المدينة، والرجال يهرعون نحو الأسوار حاملين ما تيسر من سلاح، وعند مشارف الإسكندرية الغربية، حيثُ مقام الشيخ (القباري) يقف وحيدًا وسط الصحراء، كانَ (محمد كُريم) يقف هناك بجانب (السكندري)، كلاهما يُراقب الافق حيثُ ترسوا الأشرعة الفرنسية، وقلقهما يزداد أكثر فأكثر.

قال (محمد كُريم) بتوتر.

- لقد توقعنا هذا اليوم، ولكن ليس بهذهِ السرعة، هؤلاء الفرنجة لا يريدون التجارة، بل يريدون البلاد كلها.

ردَّ (السكندري) بصوتٍ عميق، وهدوء لا يتناسب مع الموقف.

- المدينة اعتادت الغزاة يا مولاي، لكنها لا تنحني أو تسقط أبدًا، كُلّ موجة مرّت عليها تركت أثرها ورحلت، والإسكندرية تبقى.

كانَ صوت الريح يعصف بالرمال حولهما، والسماء تنذر بعاصفة بحرية قادمة، جلس الرجلان على صخرة كبيرة يتبادلان الخطط بسرعة، رسم (محمد كُريم) بيدهِ خطوطًا على الرمال، وهو يقول.

- سننصب المتاريس هنا عند المدخل الغربي، ونوزع الرماة على الأسوار، ونُخفي الفرسان خلف تلال الرمل، وإذا حاولوا التقدم نحو الميناء الغربي فسنقطع عليهم الطريق عبر الأزقة الضيقة.

أومأ (السكندري)، ثُمَّ أخرج خنجرًا صغيرًا من حزامه، وغرسه في الأرض قائلًا.

- هذهِ أرضنا يا مولاي، لن يطأها محتل إلَّا على جثثنا.

لم تمرّ ساعات حتّى دوّى أوّل انفجار على مقربة من الساحل، تبعتهُ أصوات المدافع تصمّ الأذان، انطلقت المعركة الأولى عند أطراف العجمي، حيثُ اصطدم فرسان الإسكندرية بصفوف الفرنسيين بقيادة (بونابرت) نفسه، الذي كان يراقب من بعيد بنظارته النحاسية المكبرة.

كانتْ السماء ملبدة بدخان البارود، وصوت الخيول يمتزج بصيحات الرجال، أظهر المصريون بسالة نادرة، يقاتلون بقلوبهم لا بعددهم.

كانَ (السكندري) بينهم، يرتدي عباءة سوداء تخفي ملامحه، يقفز بينَ الصخور والرمال، سيفه يلمع كالبرق، وعيناه تشعان بالضوء الأزرق الغامض، الذي طالما أثار الرعب في قلوب أعدائه، كانَ كمَن تحوّل إلى ظلٍّ لا يُرى إلَّا في لحظة انقضاضه، سقط حوله الكثير من الجنود الفرنسيين، يقطع صفوفهم كما لو كان ريحًا عاتية تضربهم من كُلّ اتجاه!

لكنَّ كثافة النيران الفرنسية، وضخامة عددهم بدأت ترجّح الكفة، ومع حلول المساء، كانتْ صفوف المدافعين تتراجع نحو المدينة، أدرك (محمد كُريم) أنَّ الوضع يزداد سوءًا، فانسحب بجيشهِ إلى داخل الإسكندرية، واتخذ من قلعة قايتباي القديمة حصنًا له، تلك القلعة التي شُيّدت من أنقاض منارة الإسكندرية، لتقف شاهدة على معركة جديدة تُكتب في سجلها.

دخل (السكندري) القلعة في الليل، كان الغبار يغطي وجهه، وملابسه ممزقة من أثر المعركة، لكنَّهُ لا زال ثابت النظرات.

وجد (محمد كُريم) واقفًا أمام الخريطة الكبيرة، التي تمثل المدينة، يُلقي أوامرهُ بصوتٍ متعب لكنَّهُ حازم، قال لهُ (السكندري).

- لن نصمد طويلًا يا (كُريم)، إنهم يمتلكون نيران السماء، ونحن لا نملك إلَّا الصبر والإيمان، نحتاج إلى مدد وعون كبير.

نظر إليهِ (محمد كُريم) بعزمٍ وقال.

- الصبر وحدهُ لا يكفي يا صديقي، نحن بحاجةٍ إلى معجزة.

ابتسمَ (السكندري) ابتسامة مشجعة، وقال.

- رُبما تكون أنتَ المعجزة.

استمر الحصار أيَّامًا طويلة، القذائف لا تتوقف، والمياه والإمدادات مقطوعة عن المدينة، والجوع بدأ ينهش أجساد المقاتلين، ومع ذلك لم تُرفع راية الاستسلام، وفي اليوم السابع، جاء إلى (محمد كُريم) أحد القادة، يُخبرهُ بأنَّ الفرنسيين اخترقوا الجبهة الجنوبية، وأنَّ المدينة باتت على وشك السقوط، عمَّ الصمت المكان، نظر(محمد كُريم) إلى (السكندري) طويلًا ثُمَّ قال.

- لقد وصلنا إلى النهاية يا صديقي، لكن قبلَ أنْ تسقط الراية أُريدُ منكَ خدمة أخيرة.

اقترب (السكندري) بخطواتٍ مسرعة، وقال.

- أوامرك يا مولاي.

أشارَ إليهِ (محمد كُريم) بالاقتراب أكثر، وهمس في أُذنه.

- تخرج الليلة، تذهب إلى القاهرة، إلى (مراد بك) و(إبراهيم بك)، تُخبرهما أنَّ الإسكندرية على وشك السقوط، وأنَّ المدد يجب أنْ يأتي فورًا، رُبما يُمكن إنقاذ ما تبّقى من مصر.

رفعَ (السكندري) رأسهُ مُعترضًا.

- أتريد أنْ أتركك وحدك؟

- لن أتركك بينَ أنيابهم، فالمعركة لم تنتهِ بعد.

أجابهُ (محمد كُريم) بابتسامة حزينة.

- المدينة تحتاجك أكثر مني، وإذا كُتب لي الموت، فليكن في أرضي وبينَ رجالي.

انحنى (السكندري) احترامًا، ثُمَّ أسرع وخرج في جنح الظلام ممتطيًا جواده الأسود، متشحًا بعباءته السوداء، يقطع الصحراء كالشبح، لا يسمع سوى صهيل جواده، وصرير الريح من حوله.

مرّت أيام وليالٍ، ولا يتغير مشهد الرمال من حوله، حتّى وصل إلى القاهرة مرهقًا، والغبار يكسو وجهه، دخلها ليلًا متخفيًا، يتنقل بينَ أزقتها حتّى وصل إلى دار (مراد بك)، فسلّمهُ الرسالة بنفسه.

كانَ (مراد بك) و(إبراهيم بك) في جدال حادّ حينَ دخل عليهما، لكن حينَ قرأ الرسالة خيّم الصمت على المجلس، ورفع مراد بك نظره إلى (السكندري)، وقال.

- لقد تأخرنا كثيرًا، الإسكندرية الآن بيد الفرنسيين.

شعر (السكندري) وكأنَّ خنجرًا مسمومًا قد اخترقَ صدره، لم ينتظر أكثر من ذلك، استدار وعاد أدراجه إلى الإسكندرية، كانت رحلته هذهِ المرّة أسرع، مدفوعة بالغضب والحزن، وعندما وصل، وجد المدينة قد سقطت في يد الغزاة، والأعلام الفرنسية ترفرف

فوق القلعة، التي شيّدها بيديهِ وعرقة ودماء المصريين، وصوت المدافع توقف ليحل محلّهُ صمت ثقيل.

جابَ الأزقة كالشبح يبحث عن رفيقه، يسأل الناس فلا يُجيبه أحد، إلى أنْ علم أنَّ (محمد كُريم) قد أُسر ونُقل إلى القاهرة لمحاكمته، لم يتردد لحظة، عاد إلى القاهرة مرّةً أُخرى، وهناك بدأ يبحث عنهُ بينَ المعسكرات الفرنسية، حتّى وصل إلى المكان الذي يُحتجز فيهِ الأسرى.

رأى بعينيهِ جسد (محمد كُريم) معلّق على سور ساحة الإعدام، رأى بمخيلته ما حدث، دوّى صوت الرصاص، وسقط (محمد كُريم)، جسده المثقل بالرصاص يتهادى قبلَ أنْ يخرّ على الأرض بلا حراك.

تجمّد (السكندري) في مكانه، لم يتحرك، لم يصرخ، فقط دمعة ساخنة انحدرت من عينهِ اليُسرى وسقطت على الرمال، هذهِ الدمعة التي احتوت غضب قرونٍ كاملة، من الغدر والخيانة والخذلان، اقترب منهُ رجل عجوز وربتَ على كتفة مُعزيًّا وقال.

- لقد كنت حاضرًا لحظة إعدامه يا ولدي، وقد رفض أنْ يدفع الفدية التي عرضها عليهِ (بونابرت) مقابل حياته.

كان واقفًا شامخًا رغم القيود، وصوته يجلجل في الساحة، وهو يقول.

- إذا كانَ مقدورًا عليَّ أن أموت، فلن يعصمني من الموت دفع الفدية، وإذا كان مقدرًا لي الحياة فعلام أدفعها؟

اقترب ببطءٍ من الجدار الذي عُلّق عليه جسد صديقه، لمس كفة البارد وقالَ بصوتٍ مبحوح.

- ارقد بسلامٍ يا (كُريم)، لقد فعلت ما عجز عنهُ الجميع، متّ واقفًا كالأبطال.

ثُمَّ استدار، وغاب وسط الحشود، كأنَّهُ لم يكن، في تلك الليلة، شوهد ضوء أزرق خافت يلمع فوق أسوار قلعة الإسكندرية، ثُمَّ اختفى فجأة في ظلمة البحر، كأنَّ روح السكندري عادت إلى المدينة التي أحبّها، لتبقى تحرسها في صمتٍ أبد الدهر.

الفصل السادس والثلاثون

الزمان: عام ١٨٨٢ ميلاديّة.

في ذلك المساء الثقيل من أيّام شهر يونيو الحارّة، كانَ هواء الإسكندرية محمّلًا برائحة البحر ممزوجة بشعور خانق من الرطوبة العالية، وكأنَّ المدينة تستشعر ما هو قادم قبلَ أنْ تقع الواقعة!

في قسم شرطة الأنفوشي، كانتْ الأجواء هادئة نسبيًا، حتّى دوى صوت ركضٍ عنيفٍ في الممر الخارجي، تلاهُ صوت خفير الشرطة، وهو يصرخ من أعماق حلقهِ المبحوح.

- البكباشي (صلاح)، البكباشي (صلاح).

اندفع الرجل إلى داخل المكتب دونَ إذن، وقد اختلط العرق بالتراب على جبينه، وعيناه يطل منهما خوفٍ لم يستطع إخفاءه، رفع البكباشي (صلاح) رأسه بدهشة، ثُمَّ نهض من خلف مكتبه بسرعة، وهو يقول بنبرةٍ متوترة.

- ما الذي حدث يا (عبد الموجود)؟

- تكلّم!

وقف الخفير يلهث لحظات، ثُمَّ تمتم بصوتٍ مرتجف.

- يا فندم، الهياج عمّ المدينة كلها، الناس في الطرقات تهرول، صراعات ومشاحنات في كُلّ مكان، والدم كالأنهار!

قطب البكباشي حاجبيه، وصاحَ بغضبٍ وهو يضع يدهُ على مسدسه.

- أخبرني بالتفصيل يا رجل، ماذا حدثَ بالضبط؟

تنّهد الخفير، وقال مسرعًا.

- (مكّاري)، من الذين يقومون بنقل الناس على الحيوانات، وقع بينهُ مشادة مع راكب مالطي على أجرة الطريق، الكلمة جابت كلمة، والمالطي أخرج من بين طيات ثيابه، خنجرًا وسدد لهُ طعنة قاتلة في صدرهِ أمامَ الناس.

صمت لحظة ثُمَّ أضاف بصوتٍ أكثر توترًا.

- تجمّع المارّة، وهاجموا المالطي وفتكوا به، ومن حينها اشتعلت الأمور، المصريين يهاجمون الأجانب، والأجانب يطلقون النيران، خصوصًا الإيطالين واليونانيين، شوارع المدينة تحولت لساحة حرب يا فندم.

تجمّد البكباشي (صلاح) لحظة، ثُمَّ أدار وجهه ناحية النافذة، وتمتم في نفسهِ بمرارة.

- فلتحمي الآلهة هذهِ المدينة.

أمسكَ بطربوشهِ ووضعهُ بعزمٍ على رأسه، ثُمَّ تناول مسدسه ووضعه في حزامه، وقال وهو يخرج مسرعًا.

- هيّا بنا يا (عبد الموجود)، يجب أنْ نتحرك فورًا.

خرج إلى الطريق العام، فوجد المدينة قد انقلبت رأسًا على عقب، قرب حلقة السمك، كانتْ المجموعات تتقاتل بالعصى والشوم، والدّماء ترسم خطوطًا داكنة على أرض الميناء، رجالٌ يصيحون، نساءٌ يصرخن، وأصوات الرصاص تتردد كالرعد في الأزقة الضيقة، رأى بعض الأجانب يطلقون النار من نوافذ منازلهم، بينما المارة يردّون بالحجارة والعصيّ، كان المشهد أشبه بجحيمٍ مفتوح على الأرض.

أمر رجاله بالتدخل الفوري، فاندفعوا في وسط المعركة يحاولون تهدئة الأمور، كانَ البكباشي (صلاح)، الذى يُلقبهُ الناس (بالسكندري)، يتحرك بثقةٍ وصرامة، صوته يعلو فوق ضجيج المعركة وهو يصيح.

- كفى، فليترك الجميع أسلحتهم.

لكنَّ صوته اختفى وسط صخب الجنون والمعارك، ممّا اضطرهُ أنْ يشهر مسدسه في الهواء، ويُطلق عدّة طلقات تحذيرية، فالتفت إليهِ الجميع لحظة، ثُمَّ خمدت الأصوات قليلًا، استغل رجاله الموقف ليبدأوا في تفريق المتقاتلين، والقبض على مثيري الشغب من الجانبين.

استمر القتال حتّى منتصف الليل، كأنَّ المدينة كلها اختارت ألّا تنام، سألت الدّماء في الأزقة والطرقات، والأنين عَلا من البيوت، حتّى إذا ما هدأت العاصفة أخيرًا، كانَ (السكندري) منهكًا، عرقه يقطر من جبينه، وثيابه ملطخة بالغبار والقدماء.

عادَ إلى القسم مترنحًا، وارتمى بجسدهِ المنهك على الكرسي الخشبي العتيق، يلتقط أنفاسه بصعوبة، لكنَّ راحتهُ لم تدم سوى لحظات، إذ انفتح باب المكتب فجأة، ودخل رجل بملامح صارمة وهيبة واضحة، لم يكد (السكندري) يرفع رأسه ليراهُ حتّى تجمّد مكانه، واعتدل واقفًا فورًا، يؤدى التحية العسكرية بانفعالٍ واحترام، فقد كان الواقف أمامهُ ليس سوى الزعيم (أحمد عرابي) شخصيًا.

أشارَ (عرابي) لهُ بالجلوس، ثُمَّ جلس هو الآخر، ووضع يدهُ على فخذهِ بثبات، وقال بصوتٍ هادئ.

- أبلغني يا بكباشي (صلاح) بما جرى في المدينة.
- ما آخر الأخبار؟

أجابهُ (السكندري) سريعًا بهدوء وحزنٍ في آنٍ واحد.

- كافة الأمور الآن تحت السيطرة، الآن يا معالي الباشا، تمّ القبض على كثيرين من مشعلي الفتنة من الجانبين، ولكن للأسف، سقط قتلى كثيرين، مصريين وأجانب، الشوارع تخضبت بالدّماء.

سادَ صمتٌ ثقيل، ظلّ فيهِ الزعيم (عرابي) شاردًا للحظات، ثُمَّ رفع رأسه، وقال بنبرةٍ حازمة.

- هذهِ مؤامرة مدبرة من الإنجليز والفرنسيين يا صلاح، يريدون إشاعة الفوضى لتكون ذريعة لاحتلال البلاد.

ثُمَّ ضرب بقبضتهِ على المكتب، وأضاف.

- لقد بلغني مُنذُ قليل أنَّ السير(تشارلز)، المندوب الإنجليزي، ذهبَ إلى الخديوي (توفيق)، وحذره ممّا يلقاهُ المسيحيون من عملية قتلٍ ممنهجة في الإسكندرية، وكأنَّهم وجدوا ما كانوا يبحثونَ عنهُ ليبرروا تدخلهم!

خفض السكندري عينيه، وقالَ بأسف.

- وقد علمت أيضًا يا باشا أنَّ الخديوي، قد أصدر أوامره بتقليل الدفاعات على المدينة.

قاطعهُ عرابي بنظرةٍ حادّة، وقال.

- هذا صحيح، أمر قائد الحامية بسحب المدافع من الحصون، لكنى جئت لأخالف أوامره، لن أترك المدينة تُسلم على طبقٍ من فضة.

اقترب منهُ (السكندري)، وقال بنبرةٍ صادقة.

- أنا معاك يا باشا للنهاية.

ابتسمَ (عرابي) لأوّل مرّة، وقال.

- علمت عنك الكثير يا (صلاح)، عن شجاعتك، وعن إخلاصك لمدينتك حتّى صاروا يُلقبونك (بالسكندري) تيمنًا بالمدينة الخالدة.

- فهل أنتَ معي لحمايتها والذود عنها؟

وقفَ (السكندري) منتصب القامة، وضرب كعبي حذائه بالأرض، ثُمَّ أدى التحية العسكرية، وقال بصرامة.

- وأنا لها يا باشا.

****

بعدَ أيَّامٍ قليلة، كانتْ قلعة قايتباى تعجّ بالجنود المصريين، المدافع مصطفة، والعساكر يتهيأون للمعركة، وقفَ (عرابي) و(السكندري) أعلى البرج الرئيسي، والبحر يمتد أمامهما كمرآةٍ زرقاء يعلوها الدخان، رفع عرابي المنظار المعظم إلى عينيه، ثُمَّ أنزلهُ ببطءٍ وقال بصوتٍ خافت.

- أظنّ الحرب ستبدأ اليوم.

أجابهُ (السكندري) بثبات.

- ونحن لها يا باشا، كل المدافع جاهزة، والرجال على أتمّ استعداد.

أخذَ (عرابي) يُحدّق في الأُفق قليلًا، ثُمَّ قال بنبرةٍ تحمل مزيجًا من الإيمان والقلق.

- تسليحهم أقوى وعددهم أضعاف قواتنا، لكنَّ اللَّهَ معنا، والإيمان يصنع المعجزات.

وقبل أنْ يُكمل حديثه، دوى صوت مدفعٍ هائل من جهة البحر، تبعهُ آخر، ثُمَّ ثالث، فاهتزت الأرض تحت أقدامهم، ارتجفت نوافذ القلعة، وتطايرت الحجارة من الجدران، صاحَ أحد الجنود من أسفل السور.

- بدأ القصف يا فندم، الأسطول الإنجليزي يضرب من ناحية الغرب.

أمسكَ (السكندري) منظاره، ورأى البوارج البريطانية مصطفة في صفوفٍ متقنة، تقذف حممها على شواطئ المدينة، اشتعلت النيران في بعض المباني القريبة، والدخان ارتفع كثيفًا يُغطي سماء الإسكندرية، أصدر أوامرهُ سريعًا.

- ابدأوا بالرد عليهم، كل المدافع تفتح نيرانها فورًا.

انطلقت القذائف المصريّة من القلعة، من الميناء، من برج السلسلة، انفجارات متلاحقة تشق صمت البحر، كانتْ معركة غير متكافئة، لكنَّ المصريين حاربوا ببسالة نادرة، كانَ (السكندري) ينتقل بينَ المواقع بنفسه، يشجع الجنود، يضمّد الجرحى، ويوجه المدافع بيديه، كلما أصابت قذيفة مصرية إحدى السفن الإنجليزية، علت الهتافات بينَ الصفوف.

"اللَّهُ أكبر!"

لكنَّ المدافع البريطانية كانتْ كالعاصفة، لا تهدأ ولا ترحم، بمرور الساعات بدأت الدفاعات المصريّة تنهار واحدة تلو الأُخرى، اشتعلت النيران في أحياء الإسكندرية، والناس تهرب في الشوارع، كَطيورٍ مذعورة تغادر أعشاشها خوفًا من صواعق السّماء!

استمر القتال أيَّامًا طويلة، والبحر يلفظ دخانًا ورائحة بارود لا تختفي من الجوّ، ومع كُلّ يوم، كان الأمل يتراجع ،عرابي أرسل أوامره بالإنسحاب التدريجي إلى كفر الدوار؛ لإعادة تنظيم الصفوف، وقفَ (السكندري) على سور القلعة، ينظر إلى المدينة وهى تحترق، قلبه يتمزق، ودمعة عصية تسقط من عينهِ لأوّل مرّة، هتف بأحد جنوده.

- أخرجوا المصابين، انسحبوا مع البقية، أنا سوف أقوم بتغطيتكم للنهاية.

وبقيَ هو حتّى آخر قذيفة أطلقتها المدافع المصريّة، حتّى صمت كُلّ شيءٍ عدا صوت هدير البحر، ونحيب المدينة، حينَ تحرك الإنجليز إلى الميناء وأحكموا سيطرتهم، كانَ الزعيم (عرابي) قد أُسر واقتيدَ إلى المحاكمة.

أمَّا (السكندري)، فقد تابع المقاومة مع بعض الفدائيين في الأزقة الخلفية، يقاومون قدر المستطاع، حتّى نجح الأدميرال (سيمور) في تفريقهم، تشتت الرجال، وتاهت الوجوه في الصحراء، وجد (السكندري) نفسه وحيدًا في ظلمة الليل، بعدَ أيَّام وأيَّام

من القتال المستمر، يسير بينَ كثبان الرمل، لا يسمع إلَّا أنفاسه المرهقة وصوت الريح، يشعر أنَّ المدينة تُناديهِ من بعيد، فقرر أنْ يعود، مهما كلّفهُ الأمر.

عادَ متخفيًا إلى الإسكندرية، عبر طرقٍ جانبية، حتّى وقف أخيرًا عند ربوةٍ عالية تطل على الميناء، كانَ الليل ساكنًا إلَّا من صوت الأمواج، التي تتكسر على الشاطئ، والمدينة من تحتها تئنّ من الدمار، الذي خلّفهُ قصف المدافع.

رأى في الأفق مركبًا كبيرًا تبحر مبتعدة، وعلم من أحد الصيادين، أنّها تحمل الزعيم (أحمد عرابي) إلى منفاهُ في سيلان، وقفَ ساكنًا لا يتحرك، والدموع تملأ عينيه، ثُمَّ رفع بصره إلى السماء، وأدى التحية العسكرية، وقالَ بصوتٍ خافتٍ مبحوح.

- وداعًا يا باشا، وداعًا أيُّها الزعيم.

نظر بعدها إلى الميناء، حيثُ كانتْ مئات السفن البريطانية تقترب من الشاطئ، أعلامها ترفرف في صلفٍ وغرور، أدرك في تلك اللحظة أنَّ فصلًا جديدًا بدأ في تاريخ مصر، فصل من الاحتلال والهزيمة والخنوع، أعادَ الوشاح الأسود إلى وجهه، كما كانَ يفعل في معاركهِ القديمة، غطّى ملامحه، ثُمَّ استدار ببطءٍ نحو المدينة التي أحبّها أكثر من نفسه.

كانَ يعرف أنَّهُ خسر معركة، لكنَّهُ لم يخسر الإيمان، سار في الظلام حتّى ابتلعتهُ العتمة، كأنَّهُ طيفٌ يذوب في ليل الإسكندرية!، تاركًا خلفه وعدًا صامتًا بأنَّ (السكندري) سيعود، كلما احتاجت المدينة إلى مَن يُقاتل من أجلها.

فمَن لها غيره؟

مَن؟!

الفصل السابع والثلاثون

الزمان: عام ١٩٤١ ميلاديّة.

الشتاء في أبهى صورة، كانتْ الإسكندرية تمضي في أيّامها الثقيلة على وقع أنفاس الحرب العالميّة الثانية،البحر قاتم اللون كأنّهُ يُعلن عن غضبهِ بما يدور على سطحة، والسماء ملبدة بغيومٍ رمادية تتوعد بما هو أشدّ.

داخل أحد المقاهي المُطلة على شارع سعد زغلول، كانَ الدفء الخافت المنبعث من مصباحٍ زيتيٍ قديم، يواجه رياح البحر الباردة التي تتسلل من النوافذ، في زاوية المقهى، جلس (سعيد)، الذي يطلق عليهِ الجميع لقب (السكندري)، بشاربهِ الكثّ ونظراته الحادّة التي تشعر معها أنّها تسبر أغوارك، يحتسي قهوته الثقيلة بينما يتحدّث مع صديقهِ (وجدي)، هو رجلٌ هادئ الملامح يميل أكثر إلى الفكر والتأمل، يقرأ الصُحف الأجنبيّة بشغف، ويتحدّث العربية ببطءٍ كمَن يختار كلماته بعناية!

قطعَ (وجدي) الصمت، وهو يُطالع عنوانًا عريضًا في الصحيفة التي بينَ يديه.

- يبدو أنَّ (هتلر) لن يتوقف يا (سعيد)، الألمان يقتربون من موسكو، وهنا البحر المتوسط صار ساحة مفتوحة بينَ جيوش العالم.

ابتسمَ (السكندري) ابتسامةً خفيفة، وقال وهو يُشعل سيجارة في يده.

- أوروبا كلّها تحترق يا (وجدي)، والنار كُلّ يوم تقرب من شواطئنا أكثر، الإنجليز قرروا أنْ يولوا أنفسهم مهمة حُماة الشرق، لكنّهم مُجرّد مُستعمر جديد.

هزّ (وجدي) رأسهُ موافقًا، وقال بصوتٍ خافت.

- الحرب هذهِ ليستْ بينَ دول، إنما حرب بينَ أطماع، كُلّ طرف يحلم أنْ يحكم العالم.

أجابهُ (السكندري)، وهو يزفر دخان سيجارتهِ ببطء.

- بالضبط، لكنْ كُلّ حرب لها ثمن، وغالبًا ما يدفعهُ الفقراء.

أثناء ذلك، كأنَّ السماء قررت أنْ تؤكد كلماته، دوى في الأفق صوت هديرٍ غريب، متقطع أوّل الأمر، ثُمَّ تصاعد حتّى صار كزئيرٍ هائل يهزّ جدران المقهى، نظر الناس إلى الخارج في ذعر، ووقف (سعيد) فجأة، حدّق نحو البحر عبر الزجاج، فرأى سربًا من الطائرات قادمًا بسرعةٍ خاطفة من جهة الغرب، يقترب من الميناء، وعلى أجنحتهِ الصليب المعقوف شعار النازيّة، صرخَ أحد الجالسين.

- إنها طائرات ألمانيّة.

لم تمرّ ثوانٍ حتّى دوت أولى الانفجارات في الميناء، تلتها أُخرى أقرب، فاهتزت النوافذ وتطاير الزجاج في كُلّ مكان، ارتفع دخان أسود كثيف من جهة محطة الرمل، وتعالت أصوات النساء بالصراخ في الشوارع.

جرّ (السكندري) صديقه من ذراعه، وصاح.

- هيّا بنا، يجب أنْ نُساعد الناس.

ركضا خارج المقهى، والغبار يملأ الجوّ، والسماء تمطر شظايا من الانفجارات المتتالية، كان صوته يعلو وسط الجلبة.

- "أطفئوا الأنوار، أطفئوا الأنوار".

التفت إليهِ (وجدي)، وهو يلهث من الركض.

- لماذا يا (سعيد)؟ لماذا تدعوا الناس إلى إطفاء الأنوار؟

أجابهُ وهو يسحب أحد الأطفال من تحت عربة مقلوبة.

- الطائرات تسترشد بالضوء، كُلّ ضوء يراهُ قائد الطائرة يعتبرهُ هدف، لذا لا بُدَّ وأنْ تغرق المدينة في الظلام.

وبينما الناس يهرولون مذعورين في الأزقة، استمرت الطائرات الألمانية في قصف الميناء والثكنات البريطانية، لكنَّ القنابل لم تُميّز بينَ جندي ومدني، سقطت على بيوت العُمّال، على الأسواق، على الشوارع الضيّقة التي تكتظ بالفقراء، لمدّة نصف ساعةٍ كاملة ظلّت الإسكندرية تهتز، كأنّها تحت قصف القنابل، لم تنجح المدافع الأرضيّة في إسقاط طائرةٍ واحدة، وكأنَّ السماء أعلنت عجز الأرض!

وحينَ خفتَ هدير المحركات أخيرًا، وعادت الطائرات إلى قواعدها البعيدة، ساد المدينة صمت ثقيل، يقطعهُ أنين الجرحى وصراخ الثكالى، تحرك (السكندري) و(وجدي) بينَ الركام، يبحثان عن ناجين، يرفعان الحجارة بأيديهما، يُساعدان في سحب الجُثث من تحت الأنقاض، لكنْ في لحظةٍ ما، حينَ ابتعد (السكندري) إلى أحد الأزقة الجانبية، اختفى بينَ الظلال دونَ أنْ يلحظهُ أحد، كانتْ عيناهُ تلمعان بوميضٍ غاب عنها لمدّةٍ طويلة.

أخرجَ من جيبهِ وشاحًا أسودًا قديمًا، لفّه حول وجهه حتّى لم يظهر منهُ سوى عينيه، اللتين اشتعلت بضوءٍ أزرق كالنيران الباردة، وفي ثوانٍ معدودة صار يتحرك بسرعةٍ لا تصدق، يرفع الكتل الحجرية بيديهِ العاريتين كأنّها لا وزن لها، يحفر الأرض بقبضتهِ فيستخرج منها أحياءً كادوا يدفنون، ويُمسك جدارًا متصدعًا قبلَ أنْ ينهار على أسرةٍ كاملة!

أنقذ عشرات الأرواح، نساءً وأطفالًا وعجائز، لم يعرف أحد مَن يكون هذا الرجل الغامض، الذي ظهر من بين الدخان كطيفٍ من نور، يتحرك بسرعة لا يدركها بشر، ثُمَّ اختفى كما ظهر.

وحينَ انتهى من مهمته، عادَ متسللًا إلى (وجدي) فوجدهُ جالسًا منهكًا على الرصيف، وقد غطاهُ الغبار والرماد، جلس بجوارهِ وخيّم عليهما صمتٍ طويل، يتأمل ألسنة النار البعيدة وهي تلتهم بعض المباني، قال وجدى بصوتٍ متهدج مُجهد.

- كأنَّ المدينة تموت يا صديقي.

أجابهُ (السكندري)، وهو يُحدّق في الأفق بعينين ثابتتين.

- الإسكندرية لا تموت يا (وجدي)، إنها كَالعنقاء تخرج من تحت الركام بعدَ كُلّ أزمة.

مُنذُ تلكَ الليلة تغيّرت الإسكندرية، تحولت المدينة الجميلة إلى حصنٍ مظلم يعيش على الخوف والانتظار، صدر أمرٌ من الحاكم العسكري، بإطلاق صافرات الإنذار فور اقتراب أيّ طائرةٍ حربية، غُطّيت نوافذ البيوت بالطلاء الأزرق الداكن؛ كي لا يتسرب الضوء منها، حتّى مصابيح الشوارع أُطفئت، وكشافات السيارات دُهنت أيضًا بالأزرق.

تمّ حفر المخابئ تحت العقارات القديمة، وبُنيت السواتر من أكياس الرمل والطوب، أمام المداخل لتخفف من أثر القنابل، كانتْ المدينة كأنّها تتنفس بصوتٍ خافت، تخاف أنْ يسمعها أحد، عشرات الآلاف من سكانها نزحوا إلى القُرى المجاورة، أكثر من سبعين ألف روح تركت بيوتها وراءها؛ خوفًا من الموت.

لكنَّ (السكندري) لم يُغادر، ظلّ في المدينة كحارسٍ خفي، يتنقل بينَ الازقة ليلًا، يتفقد المخابئ، يُساعد في الإنقاذ، يطعم الأطفال، ثُمَّ يختفي قبلَ أنْ يسألهُ أحد مَن يكون ،مرّت الأشهُر حتّى جاء يومٌ اشتعل فيهِ الميناء من جديد، ولكنْ هذهِ المرّة لم تكن

القنابل من السماء، فجأة دوّت انفجارات هائلة من جهة الأرصفة، التي ترسو فيها السفن البريطانية.

تصاعدت النيران والدخان، واهتزت النوافذ على مدى أميال، سقطت مدمرتان بريطانيتان في أعماق البحر، وتحول الميناء إلى جحيمٍ من النيران، هرع الناس إلى الشوارع في ذعر، ولم يُسمع أيّ إنذارٍ هذهِ المرّة، انتشرت الشائعات بسرعة.

- عناصر إيطالية نفذت عملية انتحارية لتفجير الأسطول الإنجليزي.

جُنَّ جنون القوات البريطانية، خرج الجنود إلى الشوارع يطلقون النار في كُلّ اتجاه، وبلا تمييز، في نوبةٍ من الهستيريا والانتقام، كانتْ الرصاصات تتطاير كالمطر، تُصيب كُلّ مَن يتحرك.

صرخَ (وجدي)، وهو يرى مجموعة أطفالٍ يحاولون الهرب من النار، فاندفع نحوهم ليحميهم، لكنَّ رصاصاتٍ غادرة من جندي إنجليزي أصابتهُ في صدره، فسقط على الفور، بينما الأطفال سقطوا حولهُ واحدًا تلو الآخر وامتزجت دمائهم.

وقفَ (السكندري) مكانه لحظة، غير مدرك أنَّ صديقه قد فارق الحياة أمامَ ناظريه، ثُمَّ دوى صوته في أرجاء المدينة بصراخٍ يشق السماء.

- وجدييييييي.

كانتْ صرخته كالرعد، ارتجفت لها جدران الميناء، اشتعلت عيناهُ بالضوء الأزرق من جديد، وقف وكأنما انطلقت داخله قوة كانتْ قد اختفت مُنذُ زمن، في لحظةٍ واحدة اندفع نحو الوحدة الإنجليزية القريبة، كانَ يتحرك كالشهاب، لا يراهُ أحد إلّا كظلٍ يمرّ، يسقط الجنود من حوله دونَ أنْ يعرفوا ما الذي أصابهم.

لم تمضِ دقائق حتّى خيّم على الوحدة كلها صمتٍ مطبق، عشرات الجثث ممددة على الأرض، وأسلحة مدمرة، كان الهواء مشبعًا برائحة البارود والدم.

لكن ما حدث لم ينجح فى إطفاء نيران غضبة، انطلق (السكندري) نحو أكبر معسكرٍ للقوات البريطانية خارج المدينة، كانَ الليل يلف المكان، والجنود نيام، اخترق الأسوار كأنها من ورق، وبدأ في تدمير كُلّ ما أمامه، الدبابات، المدافع، الخيام، مستودعات الذخيرة، كانتْ الانفجارات تتوالى خلفه، والسماء تشتعل بالأحمر، كأنَّ جهنم فُتحت على الأرض!

يُقاتل وحده، بيديه، لا يملك سلاحًا سوى غضبه، كُلّ ضربةٍ منهُ كانتْ كالصاعقة، وكُلّ صرخةٍ منهُ كانت تهزّ المعسكر بأكمله، حاول الجنود المقاومة، لكنّهم لم يروا خصمهم، إلّا حينَ صاروا في الأرض جثثًا هامدة، وحينَ انتهى كُلّ شيء، وقف (السكندري) وسط اللهب، وجهه مغطى بالرماد الاسود، و عيناهُ تضيئان في العتمة مثل شعلتين من نارٍ زرقاء، صدره يعلو ويهبط كمَن فرغ للتو من معركةٍ مع القدر نفسه.

تقدم نحو جسد صديقه (وجدي)، الممدود على الأرض، وحمله بينَ ذراعيه برفق، وكأنَّ العالم كُلّه صار لا يُساوي شيئًا أمام هذا الجسد الصامت، سار بهِ بينَ ألسنة النار المشتعلة، بينما خلفه المعسكر البريطاني يحترق عن آخره.

ثُمَّ لفّ الوشاح حول وجهه مرّة أُخرى، ووقف شامخًا كظلٍ من الماضي، ومع أوّل خيوط الفجر، كانَ قد اختفى بينَ كثبان الرمل، تاركًا خلفه مدينةً تبكي أبناءها، وتحمل بينَ رمادها حكاية رجلٍ من أرضها ولد معها.

رجل لا يُهزم.

الفصل الثامن والثلاثون

(ما قبلَ النهاية)

الزمان: عام ١٩٥٢ ميلاديّة.

كانَ صباح السادس والعشرين من يوليو، عام ألفٍ وتسعمائة واثنين وخمسين، هادئًا على غير العادة في ميناء الإسكندرية، السماء صافية تميل إلى زُرقةٍ حزينة، كأنّها تُشارك المدينة صمتها المهيب.

رياح البحر تتهادى بخفة، تحرك الأعلام على صواري السفن الراسية، بينما كانتْ (المحروسة) -تلكَ السفينة الملكية العظيمة، تستعد لرحلتها الأخيرة، التي ستحمل على متنها آخر ملوك مصر الحديثة.. (جلالة الملك فاروق الأوّل).

وعلى الرصيف، يقف (السكندري) بينَ صفوف رجال البحريّة، يرتدي زيّه الرسمي الأبيض، تُزيّن كتفيه نجوم لامعة، ووجهه يحمل مزيجًا من الكبرياء والأسى.

كانَ الزمن قد ألقى على ملامحهِ ظلًا من التعب والحنين، وذاكرته تتزاحم فيها صور الملوك، المعارك، والانقلابات، كأنّها شريط لا ينتهي ولن ينتهي من الذكريات، مُنذُ أنْ رآهم لأوّل مرّة في عهد (محمد علي) الكبير، وحتّى هذهِ اللحظة التي يشهد فيها نهاية الأسرة، التي غيّرت وجه مصر لأكثر من قرن.

أغمض عينيه للحظة، فمرّت أمامه وجوه كُلّ السابقين.

(محمد علي)، شامخًا، يُخطط لبناء جيشٍ يليق بمصر.

(إبراهيم باشا) في معاركهِ بسوريا والأناضول.

(سعيد) وابتسامته الهادئة، وهو يُراقب قناة السويس تُحفر بعرق المصريين.

(إسماعيل)، يُزيّن البلاد بالمسارح والقصور، ويقودها إلى طريق المجد الأوروبي.

ثُمَّ (توفيق)، و(عباس حلمي)، (وفؤاد الأوّل) حتّى وصلَ إلى هذا الشاب، (فاروق)، الذي حمل التاج في عزّ شبابه، ثُمَّ تكالبت عليهِ الظروف حتّى أسقطته رياح يوليو.

فتحَ (السكندري) عينيه على صوت خطوات متلاحقة، واهتزاز الأرض تحت وقع الأقدام العسكرية المنتظمة، الجنود يصطفون في صمت، والضباط يتبادلون نظراتٍ متوترة، لم يكن المشهد كمغادرة ملك في رحلة، بل كوداعٍ لماضٍ كامل.

اقترب الموكب الملكي ببطء من الرصيف، سيارات فخمة تلمع في ضوء الشَّمس، والأعلام تتدلى على استحياء ،ترجل الملك (فاروق) من سيارته، متأنقًا كعادته، يرتدي بزّته البحريّة البيضاء، يُزين صدره نيشان النيل وعدّة أوسمة لامعة، لكنَّ وجهه بدا شاحبًا، مُرهقًا، وعينيه غارقتين في صمتٍ ثقيل.

ورغم كُلّ ما كان يُقال عنه، فقد بدا في تلك اللحظة إنسانًا مُجرّدًا من السلطان، رجلًا يودّع وطنه، لا ملكًا يفقد عرشه، تقدّم (السكندري) خطوة إلى الأمام، وضرب كعب حذائهِ في الأرض، مؤديًا التحية العسكرية الصارمة.

توقف الملك أمامه، ونظر إليهِ نظرة طويلة فيها شيء من الاعتراف القديم ،ثُمَّ رفع يدهُ وردّ التحية ببطء، قائلًا بصوتٍ متهدج.

- شكرًا لكَ أيُّها القائد.

لم يردّ (السكندري)، فقد اختنقت الكلمات في حلقه، اكتفى بأنْ نظر إلى عيني الملك، وفيهما لمحة من الحزن القديم ذاته، الذي رآهُ في وجوه الملوك الذين رحلوا من قبل، ثُمَّ أفسح لهُ الطريق ليمضي نحو سلّم السفينة، تتبعهُ خطوات ضُباطه وحرسه المُقرّبين.

وقفت (المحروسة) شامخة في عرض البحر، وقد اصطف البّحارة على جانبيها في نظامٍ بديع، ارتفع العلم الملكي للمرّة الأخيرة، بينما انطلقت صفارات السفن في وداعٍ طويلٍ ومهيب، دوى صداهُ في سماء الإسكندرية، بدأت المُحركات تدور ببطء، والمياه تتفتح حول مقدمة السفينة كزهورٍ بيضاء، تتناثر في وداعٍ حزين.

وقفَ (السكندري) في مكانه، عيناه تتابعان السفينة وهي تبتعد شيئًا فشيئًا، كأنّها تسحب معها قرنًا كاملًا من الزهو والعظمة، تسلل النسيم البحري إلى وجهه، شعر برجفةٍ من الصقيع في ذلك الجوّ، رفع يده ببطء، وأدّى التحية مرّة أُخرى، وإنْ لم يكن أحد يراه، ثُمَّ همسَ بصوتٍ خافت لا يسمعهُ إلّا البحر.

- ها هي الإسكندرية، قد كتب عليها أنْ تودّع أبناءها مرّة أُخرى.

توقف عن استرجاع الماضي، حينَ شعر بدمعة ساخنة تنحدر على خديه، لم يكن يبكي ملكًا، بل تاريخًا عاشهُ كُلّه. .

رفع بصره إلى الأفق، حيثُ صارت (المحروسة) نقطة بيضاء تذوب في زرقة البحر، وأحسّ بشيءٍ ينكسر في صدرهِ ببطء.

لقد انتهى عهد، وسيبدأ عهد آخر، فليحفظ اللّه هذهِ البلاد.

ثُمَّ استدارَ مبتعدًا، خطواته بطيئة لكنّها ثابتة، وصوت الموج خلفه كأنَّهُ تصفيق ووداع طويل، لأسطورةٍ ظلّت شاهدة على كُلّ فجرٍ وكُلّ غروب، مُنذُ أنْ وُلدت مصر الحديثة.

****

الزمان: عام ١٩٥٤ ميلاديّة.

كانَ ميدان المنشية في ذلكَ اليوم من أكتوبر، عام ألفٍ وتسعمائة وأربعة وخمسين يعجُّ بالحشود، امتلأت الشرفات والأسطح والطرقات بالناس، رجالاً ونساءً وأطفالاً، كلٌّ جاء من مكانٍ مختلف، لكنّهم قد اجتمعوا جميعًا على شيءٍ واحد، أنْ يروا زعيمهم (جمال عبد الناصر)، ذلكَ الشابّ الذي خرج من قلب الجيش المصري؛ ليمنحهم حلمًا جديدًا، وطنًا حرًّا لا تُديرهُ قُوى أجنبية، ولا تحكمهُ الأوامر من الخارج، كانتْ اللافتات ترفرف في الهواء، وأصوات الهتاف تتعالى.

- يحيا جمال عبد الناصر، يحيا الإستقلال.

ضجَّ الميدان بالحياة، تتخللهُ رائحة البحر الممزوجة بحرارة الشَّمس الخريفية، التي تلونت بلونٍ ذهبيٍ باهتٍ على وجوه الناس، وقفَ (السكندري) في الصفوف الخلفية، بملامحهِ الهادئة التي لا يعرفها أحد، وقد ارتدى بذلة رمادية بسيطة، تخفي خلفها قرونًا من الأسرار التي لم يعرفها أحد.

كانَ وجهه ساكنًا، لكنَّهُ يرقب كُلّ شيءٍ بعينين يقظتين، كأنّهما مرآتان للزمن، يقومان بتسجيل التاريخ نفسه، لم يكن حضورُه مصادفة، بل رغبةً دفينة في أنْ يشهد مصر وهي تستعد لميلاد عصرٍ جديد، بدأ صوت المذيع يُعلن وصول الرئيس، دوت الهتافات والتصفيق كعاصفة ضربت الميدان، وانطلقت الزغاريد من أفواه النساء، كأنّها طيورٌ تُحلّق في فضاء الوطن!

صعد (عبد الناصر) إلى المنصة بخطواتٍ ثابتةٍ واثقة، ووقفَ خلف الميكروفون بابتسامتهِ المعهودة، ثُمَّ بدأ حديثه بصوتٍ قويٍّ يخترق القلوب قبلَ أن يصل إلى الآذان.

- يا أبناء مصر الأحرار، لقد اخترنا طريق الحُريّة ولن نعود إلى الوراء.

ارتجّ الميدان بالتصفيق والهتاف، و(السكندري) يبتسم في صمت، متأملًا ذلكَ الوجه الذي بدا مألوفًا له، كأنَّهُ رأى في عَينيهِ شيئًا من وجوه الذين مضوا من قبل!

وجوهٍ حملت ذات الشغف والصدق، مُنذُ (محمد علي) وحتّى (سعد زغلول).

وفجأة وفي لحظةٍ خاطفة، دوى صوتٌ غريب اخترق السماء، طلقة نارية صاخبة جعلت القلوب ترتجف، والجموع تتراجع في فزعٍ عارم، العيون تتلفت، الصراخ يملأ المكان، والناس تهرع يمينًا ويسارًا، كان المشهد فوضويًّا، كأنَّ الزمن توقف لوهلةٍ ليُراقب ما سيحدث.

لكنَّ (السكندري) لم يتردد لحظة، انطلق بسرعةٍ خارقة، يخترق صفوف الحشود بخفةٍ فهد وسرعة البرق، حتّى وصل إلى مصدر الطلق، كانَ شابًّا في العشرينات، يختبئ خلف أحد الأعمدة، يرتجف وهو يُحاول إعادة تعبئة مسدسه، أنقضَّ عليهِ (السكندري) في لحظةٍ كوميض البرق، قبض على ذراعهِ وأدارها بحركةٍ حاسمةٍ فسقط السلاح على الأرض، حاولَ الشابّ المقاومة، لكنَّ نظرة واحدة من عيني (السكندري) المشعتين الزرقاوين، جعلتهُ يتجمّد في مكانه، قال لهُ بلهجةٍ صارمة.

- لماذا تفعل هذا؟

ارتبك الشابّ وصمت، كأنَّ لسانه انعقد بينَ شفتيه، ثُمَّ أمسكهُ (السكندري) من عنقه، وسلّمهُ إلى رجال الشرطة، الذين هرعوا إلى المكان، وفي اللحظة نفسها، ارتفع صوت الرئيس من فوق المنصة، يعلو على كُلّ الهرج والفوضى، صوته قوي لا يهتز، كأنَّهُ يُخاطب الخوف نفسه ليقهره، قال عبد الناصر بصوتٍ يهزّ القلوب.

- دعوهم يقتلونني، إنَّ (جمال عبد الناصر منكم) ولكم، إنَّ حياتي فداء لمصر.

تبددت الفوضى، وتحوّلَ الرعب إلى حماسٍ جارف، ارتفعت الأيدي بالتصفيق والهتاف من جديد، وترددت الصيحات.

- نحيا معك يا (عبد الناصر)، نحيا معك.

ابتسمَ (السكندري) وهو يُراقب المشهد من بعيد، كانَ ينظر إلى (عبد الناصر) وكأنَّهُ يرى فيهِ صورةً من ماضيه البعيد، يرى فيهِ دّماء الثائرين في وجه الاحتلال، يرى في صلابتهِ صدى (محمد كريم) يوم رفض أنْ يبيع حُريّته بالذهب، ويرى في صوتهِ قوة كُلّ مصريٍ حمل سلاحه؛ ليحمي تراب هذا الوطن، قال مغمغمًا لنفسه.

- ها قد وُلدت مصر من جديد، وهذهِ المرّة لن تسقط.

وقفَ في مكانهِ للحظاتٍ، يُراقب الحشود وهي تهتف، وتبكي وتضحك في آنٍ واحد، رأى وجوه الشباب تلمع بالأمل، ونساءً ترفع أيديها بالدعاء، وأطفالًا يصفقون دونَ أنْ يدركوا أنّهم يشهدون لحظةً ستُكتب في كتب التاريخ.

كانتْ الشَّمس تميل نحو الغروب، ونسيم البحر يهبّ من جهة الميناء حاملًا رائحة الملح والحُريّة، سارَ (السكندري) بخطواتٍ ثابتةٍ نحو البحر، ملامحه مطمئنة، وقلبه مفعمٌ بشيءٍ لم يشعر بهِ مُنذُ زمنٍ بعيد.

لقد أدرك أنَّ مصر لم تعد بحاجةٍ إلى مَن يحميها في الظلّ، فلها الآن رجال يواجهون الخطر علنًا، ويقفون أمامَ الرصاص ليحموا شعبهم.

رفعَ عينيه إلى السماء، ثُمَّ إلى البحر، واستدار مبتعدًا بخطواتٍ واثقةٍ نحو المدينة، التي أحبّها مُنذُ قرون، يبتسم في صمتٍ ورضا، وهو يعلم أنَّ في هذهِ الأرض رجالًا لن يسمحوا لها أنْ تُهان ما دام في قلوبهم نبض واحد.

****

الزمان: عام ١٩٥٦ ميلاديّة.

كانَ صباح الإسكندرية في ذلكَ اليوم، من عام ١٩٥٦ مختلفًا عن أي صباحٍ عرفته المدينة من قبل، نسيم البحر وصوت موجاته يحمل نغمة جديدة، نغمة حريةٍ طال انتظارها، والشّمس تُشرق على ميناء المدينة، كأنّها تحتفل مع البشر بوداعٍ طال ثلاثًا وسبعين عامًا.

على رصيف الميناء، اصطفّت صفوف جنود البحرية المصرية في نظامٍ مهيب، تكسوهم الهيبة والفخر، ووجوههم مشرقة في ضوء النهار، والعيون تتابع المشهد التاريخي المنتظر، جلاء آخر جندي بريطاني عن أرض مصر، كانتْ السفن البريطانية تستعد لمغادرة الميناء، أعلامها تتدلى على صواريها في صمتٍ يائسٍ، كأنّها تنكسها حزنًا على نهاية زمنٍ من الغرور والاستبدال!

أمّا المصريون المصطفون على الشاطئ، فكانتْ قلوبهم تخفق بقوةٍ، وعيونهم تفيض بدموعٍ ساخنةٍ، لا تستطيع أنْ تدرك هل هي دموع فرحٍ أم دموع كرامةٍ مستعادة؟

في مقدمة الصفوف وقفَ (السكندري)، مرتديًا زيًّ ضابطٍ بحريٍّ أنيقٍ، لم يكن وجهه يظهر عليهِ الكثير من الانفعال، لكنَّهُ كانَ يفيض بالذكريات بداخلهِ، ذاكرته التي تمتد عبر قرون، تُعيد أمامه كُلّ لحظات الاحتلال، مُنذُ أنْ رأى بأُمّ عينيه المدافع البريطانية، تدكّ أسوار الإسكندرية عام ١٨٨٢.

تذكر حينما وقفَ بجانب الزعيم (أحمد عرابي)، فوقَ أسوار قلعة قايتباي، يحث الجنود على الثبات، والسماء تمطر نار وهلاك، والبحر يتحول إلى جحيمٍ من الدخان واللهب، تذكر وجوه الجنود الذين قاتلوا ببسالةٍ، ودماءهم التي سالت على التراب لتروي بذور الحرية، التي لم تثمر إلّا الآن، ابتسمَ بحزنٍ، وقال في نفسهِ بصوتٍ خافت، مُحدّثًا نفسه.

- ها قد جاء اليوم الذي حلم بهِ (عرابي)، ودفعت الأجيال ثمنه بالدّم والصبر.

أفاقَ من شرودهِ على صوت المدافع المصرية، وهي تطلق طلقات التحية، إعلانًا رسميًّا بانتهاء الاحتلال البريطاني، دوى الصوت في سماء الإسكندرية يُعلن ميلاد عصرٍ جديد ،الناس تهتف، الجنود يرفعون أعلامهم، والسفن البريطانية تبتعد شيئًا فشيئًا، حتّى لم يبقَ منها سوى ظلّ باهت في الأفق.

شعرَ (السكندري) بأنَّ روحه تتنفس للمرة الأولى مُنذُ زمنٍ بعيد، وبأنَّ تراب الوطن الذي حمل آلامه عبر السنين، قد عاد ملكًا لأبنائه، مرّت الأيّام، ولم تكد تهدأ مشاعر الفخر والفرح في نفوس المصريين، حتّى جاءت لحظة أُخرى لا تقلّ عظمةً عن الأولى.

كانَ ذلك اليوم الذي أُعلن فيهِ أنَّ الزعيم (جمال عبد الناصر)، سيلقي خطابًا في ميدان المنشية، الميدان الذي صار شاهدًا على التاريخ من قبل، حينَ أفشل القدر محاولة اغتياله.

لم يكن (السكندري) ليفوّت مثل ذلكَ اليوم، فقد صار في أعماقهِ جزءًا من روح المدينة، شاهدًا على كُلّ تحولٍ فيها، جاء إلى الميدان في زيٍّ مدنيٍّ بسيط كما فعل مُنذُ عامين، وسط الجموع التي ملأت المكان من أقصاه إلى أقصاه، الأعلام ترفرف، الوجوه متحمسة، والعيون تترقب ظهور الزعيم، الذي أعاد للناس الثقة في أنفسهم.

وبينما كانتْ مكبرات الصوت تبث موسيقى وطنية هادئة، ارتفعت الهتافات حينَ ظهر (عبد الناصر) على المنصة بابتسامته المعهودة، يُحيّي الجماهير بيده، فتعالت الأصوات من كُلّ جانب.

- ناصر، ناصر، ناصر.

بدأ الرئيس خطابه بصوتٍ ثابتٍ عميق، يحمل قوةً لا تخطئها الأُذن، وتحدث عن الكرامة والاستقلال وبناء الوطن، ثُمَّ فجأة توقّف لحظة، رفع رأسه، ونظر في وجوه الناس، وقال بصوتٍ كهزيم الرعد.

- لقد قررنا تأميم شركة قناة السويس العالمية، لتصبح ملكًا للشعب المصري، شركة مساهمة مصرية.

كانتْ الكلمة كالصاعقة التي أضاءت سماء الوطن، اهتز الميدان بالهتافات، والناس تبكي وتضحك في آنٍ واحد، والطبول تدقّ من كُلّ صوب، والنساء تزغرد من النوافذ والشرفات، كأنَّ المدينة كلّها تحولت إلى قلبٍ واحدٍ ينبض بالفرح، (السكندري) نفسه لم يتمالك دموعه، لم يكن يومًا يظنّ أنَّهُ سيرى مصر، وهي تنتزع من العالم ما سُلب منها بالقوة، وفي اليوم نفسه، انطلقت مسيرات ضخمة في شوارع الإسكندرية، الأعلام ترفرف، والأغاني الوطنية تتعالى من كُلّ مقهى وبيت.

مشهدٌ لم تعرفه المدينة مُنذُ زمنٍ طويل، مشهد يعيد إليها بهاءها الذي سُرق منها أيّام الاحتلال، ولكنْ كما اعتاد (السكندري) أنْ يرى عبر التاريخ، كانتْ الأفراح في بلدهِ لا تدوم طويلًا، فكل فرحةٍ عظيمةٍ يتبعها امتحانٌ أكبر.

لم تمضِ سوى أسابيع حتّى بدأت الأخبار تتسرب عن مؤامرةٍ كُبرى، فرنسا وإنجلترا لم تتقبلا ضياع القناة، فانضمت إليهما إسرائيل في تحالفٍ خبيثٍ يهدف إلى إسقاط مصر، وإسكات صوت (عبد الناصر).

وفي أواخر أكتوبر من العام نفسه، بدأ العدوان الثُلاثي، من الشرق زحفت جيوش إسرائيل على سيناء، ومن البحر هاجمت فرنسا وإنجلترا المدن الساحلية.

دوت صفارات الإنذار في الإسكندرية، وعادت أصوات المدافع لتملأ السماء كما ملأتها عام ١٨٨٢، أسرع الناس إلى المخابئ، وأطفئت الأنوار، والمدينة عادت لتعيش في ظلامٍ ثقيلٍ لا يقطعهُ سوى وهج القنابل.

أمّا (السكندري)، فقد ارتدى زيّه العسكري من جديد، لم يعد ضابطًا بينَ الضباط فحسب، بل صار روحًا حارسة للمدينة، يعرف زواياها وأزقتها كما يعرف كف يده.

تحرك مع رجال البحرية نحو مواقع الدفاع على الشاطئ، والمدافع المصرية تصد الهجمات بكل ما تملك، كانتْ المعركة غير متكافئة، الطائرات الإنجليزية تمطر السماء بالقنابل، والسفن الفرنسية تطلق حممها من البحر، لكنَّ المصريين صمدوا، رغم الدمار والخسائر.

في قلب الميناء، وقف (السكندري) أمامَ مدفعٍ ضخم، ينظر إلى الأفق حيثُ يلوح الأسطول المهاجم، يُعطي تعليماته، ويوجه الجنود ويعيد تنظيمهم.

استمر القتال أيّامًا طويلة، حتّى كاد المصريون يُستنزفون تمامًا، والعدو يظن أنَّ النصر اقترب، لكن في تلك اللحظة الفارقة، اهتز العالم على وقع بيانٍ من موسكو.

أعلن الاتحاد السوفيتي أنَّهُ لن يقف صامتًا أمام العدوان، ووجّه تهديدًا صريحًا إلى باريس ولندن، بأنَّهُ سيضربهما بالقنابل الذرية إنْ لم ينسحبوا فورًا من الأراضي المصرية، ساد الرعب في عواصم الغرب، وتراجعت الجيوش المعتدية في صمتٍ مذلٍّ، تاركةً خلفها رماد الخيبة.

ابتعد الأسطول الفرنسي والطيران الإنجليزي، وتقهقرت القوات الإسرائيلية تهرب في فزع، حتّى أنَّ القوات المصرية استطاعت أنْ تحكم سيطرتها على قطاع (غزة)، وتسترده من يد العدو الصهيوني، وقفَ (السكندري)على رصيف الميناء في اليوم التالي، والبحر أمامه هادئ بعد العاصفة، ينظر إلى الناس يحتفلون في الشوارع، الأطفال يرفعون الأعلام، والنساء توزع الحلوى، والرجال يرقصون في الميادين.

لكنْ هو، كعادته، اختار الصمت، ابتسمَ وهو ينظر إلى الأفق، حيثُ كانتْ الشَّمس تغرب ببطءٍ على صفحة الماء، ونسيم البحر يُلامس وجهه برقة، كأنّها يد صديقٍ قديمٍ تربت عليه.

قالَ مُحدّثًا البحر ذاته، وهو يتأمل الأمواج المتلاطمة.

- لقد كنتَ شاهدًا على كُلّ شيءٍ يا بحر، رأيتَ الغزاة يأتون ويغادرون، رأيتَ الأحزان والمجد، لكنَّكَ كنتِ دائمًا هنا، ثابتًا، وفيًّا، لا تفارق مدينتك كما لم أفارقها أنا.

رفع رأسه نحو السماء، ونسمات المساء الباردة تعبث بشعرهِ الرمادي، ثُمَّ مضى يسير على الشاطئ الطويل، والمدينة خلفه تشتعل بالأنوار وتتعالى أصوات الاحتفالات.

توقفَ لحظة، التفت إلى الميناء الذي شهد رحيل الغزاة ذات صباح، وإلى البحر الذي حمل أسرار القرون كلها، ثُمَّ همسَ.

- الحُريّة لا تموت، حتّى وإنْ خُنقتها ألف يد.

وواصل سيره ببطءٍ، كأنَّهُ يمشي فوق ذاكرة الأرض نفسها، بينما كانت الأمواج تتكسر عندَ قدميه كأنّها تصفق له، احتفالًا بعودة الوطن إلى أبنائه، وبقاء روحه الخالدة في قلب الإسكندرية، المدينة التي لا تموت.

****

الزمان: عام ٢٠١١ ميلاديّة.

إنَّهُ يُحبُّ يوم رأس السنة الميلاديّة، فهو يوم مختلف على مدينة الإسكندرية، تلك المدينة التي احتوت كُلّ الثقافات، وتشبعت بالكثير من العادات، كانَ يعشق السير والتجول في شوارع الإسكندرية، في ذلكَ اليوم وخاصّة في توقيت انتصاف الليل، كانتْ مظاهر البهجة تعمّ كُلّ شوارع المدينة، مع الأمطار الغزيرة المصاحبة في ذلك التوقيت، أعطت للشوارع العريقة رونقًا خاصًا.

قاربت اللحظة التي يفضلها، كانَ يسير بتمهل مرتديًا معطف ثقيل وكوفية حول رقبته، واضعًا يداه في جيب معطفه، يسير مسرعًا في ذلك الشارع الشهير باسم (خليل حمادة) بمنطقة سيدي بشر، يُحاول أنْ يصل إلى طريق البحر قبلَ أنْ تدق الساعة، وتعلن انتصاف الليل وبداية العام الجديد، أثناء ذلكَ مرَّ أمام تلكَ الكنيسة الشهيرة، والمعروفة بكنيسة (القديسين)، وتذكر صديقه (مرقس) الرسول، وكيفَ مات على يديهِ وأسلم جثمانه لتلاميذه ليحفظوه، تأثر حينما وصل إلى تلك النقطة، فقد كانَ (مرقس) من الشخصيات التي من الصعب أنْ يجود الزمان بمثلها.

الزحام شديد، فقد أوشكت الكنيسة على الانتهاء من الصلوات، الخاصّة باستقبال عام ميلادي جديد، وتذكار ميلاد (السيد المسيح)، حاولَ أنْ يتجاوز المارة ليصل إلى صديقهِ الخالد (البحر)، قبلَ أنْ تدق الساعة لتعلن ميلاد العام الجديد.

فجأة لمح سيارة خضراء اللون، تحاول أنْ تقترب من الارتكاز الأمني ومدخل الكنيسة، وتوقفت وهبط منها سائقها في عجالة، وأطال السير إلى أحد الشوارع الجانبية، كُلّ هذا حدث في دقائق قليلة، تحرك الأمن المُحيط بالكنيسة، محاولًا اختراق الزحام، لتحري أمر تلك السيارة، وحث قائدها على الابتعاد.

كان في تلك اللحظة قد انعطف في المسير، متخذًا أحد الأزقة الجانبية اختصارًا للوقت، ولم يكد يفعل حتّى دوى صوت انفجار رهيب، يصم الآذان، ودفع جسده عدّة أمتار في الهواء؛ ليرتطم بإحدى السيارات المتوقفة على جانب الطريق، ويسقط أرضًا.

طنين رهيب في أُذنيه، وصداع لم يشعر بمثلهِ طوال حياته، التي تجاوزت العشرين قرنًا من الزمان، دوار، نظرات زائغة، عدم إدراك للمكان والزمان.

صرخات وعويل في كُلّ مكان، استعاد تركيزه جزئيًا، تحرك مُسرعًا عائدًا مرّة أُخرى إلى الشارع الرئيسي، وهنا توقف من هول ما رأى.

أصابهُ الذهول بشللٍ مؤقت، مشهد لم يتخيل أبدًا أنْ يراه، رغم المذابح التي عاصرها وعايشها على مرّ العصور، ولكن هذا المشهد بالذات حفر في ذاكرتهِ بالدّماء.

أشلاء بشرية في كُلّ مكان، جثث متناثرة، مصابين تنزف منهم الدّماء بغزارة، بعض المصابين تطايرت أطرافهم، ويحاولون اِعادتها إلى مكانها في صدمةٍ نفسية وحالة من عدم التصديق.

"صراخ، صراخ، صراخ" .

أصبحت الخلفية الصوتية للمشهد الدموي عبارة عن صراخٍ وعويل، جثث ضباط شرطة في زيّها الأبيض وقد أُحيل لونه إلى الأحمر القاني، اختلطت دمائهم بأطفال ممسكة بصلبان خشبية وترتدي التونية البيضاء، الخاصّة بالصلاة داخل الهيكل، مئات الأجساد المتناثرة من حوله.

ولأوّل مرّة مُنذُ زمنٍ طويل، انحنى ونظر للسماء وصرخ صرخة مدوية، ومعها اشتعلت عيناه ببريقٍ أزرق أضاء عتمة المنطقة بالكامل.

وانطلق بسرعة البرق يبحث عن الأحياء، من بين الأموات يخرج الأجساد من أسفل الركام، الذي سقط من جدران الكنيسة التي تهدمت، وكذا جدران المسجد المقابل لها، كانَ يحمل من يستشعر فيهِ الحياة، إلى أبعد نقطة ممكنة عن نقطة الانفجار، وأقرب نقطة تستطيع بلوغها سيارات الإسعاف، التي بدأ صوتها يهدر من حوله.

ظل على هذا المنوال قرابة الساعة، وكأنَّهُ تحول إلى رافعة بشرية، أو آلة للبحث عن الأحياء وانتشالهم!

وأخيرًا لم يعد هُناكَ أحياء، كان الموت في كلّ مكان، توقف في وسط الجثث المنتشرة، وسقط على ركبتيه، ورفع ذراعيهِ إلى السماء، وصرخَ صرخة هادرة بكلمةٍ واحدة فقط.

- لماااااااذا؟!

مرّت الأيّام في صمت، لم يخرج من مسكنهِ بعدَ تلكَ الحادثة المفجعة، أغلق كُلّ وسائل التواصل مع العالم الخارجي، من مذياعٍ وتلفازٍ وحتّى هاتفه النقال.

قررَ أنَّ يُعطي لروحهِ فرصة لأنْ تعود إلى جسده، مستلقي على فراشهِ شاخص البصر، يقتات على القليل ليسكت صراخ أحشائه.

تناهى إلى مسامعهِ أصوات عديدة، تجمهُر تبعهُ صوت طلقات نارية، تسلل إلى رئتيه دخان حارق أجبرهُ على السعال، أسرعَ إلى شرفة منزلهِ ليستطلع الأمر.

كانَ مشهدًا غريبًا وعجيبًا، آلاف البشر تملأ الشوارع والطرقات، وتسير بلافتات، وتهتف معًا، تتراجع أمامهم قوات من الشرطة، متقهقرة أمام عزيمتهم.

برغم قنابل الدخان والطلقات المطاطية، التي أفرطت في استخدامها، ولكنْ كُلّ هذا لم يوقف تقدم الجموع.

حاول أنْ يتبين الهتاف، ولكنَّ الأصوات متداخلة، وصوت سيارات الشرطة والمطافئ لا يسمح بأيّ صوت بجواره، ولكنْ رويدًا رويدًا، تعالت الهتافات، أدركَ المعنى والمراد.

هتاف واحد ظل يتردد كثيراً.

- الشعب يُريد إسقاط النظام.

هُنا فقط ابتسم؛ فقد علم أنَّ المدينة الخالدة، تقرر لها كتابة فصل جديد في التاريخ.. بل تاريخ مصر بالكامل.

الفصل التاسع والثلاثون

(النهاية)

سطع البرق للمرّة المئة تقريبًا، وأضاء الغرفة كلها لثوانٍ معدودة، ورسم ظلال على ملامح (السكندري)، والرجل ضخم الجثّة الذي يجلس أمامهُ، كانَ (السكندري) قد انتهى من حديثهِ الطويل، ولُفافة التبغ في يدهِ قد انتهت مُنذُ فترة، لتلحق بزميلاتها في المنفضة أمامهُ.

أمّا الرجل الضخم الذي جلس مقابله، فقد ظلَّ صامتًا للحظاتٍ طويلة، عيناهُ تُحدّقان في (السكندري)، وكأنهما تبحثان بينَ ملامحهِ عن خيطٍ من الحقيقة، أو ذرة من التصديق، ثُمَّ قالَ أخيرًا بصوتٍ أجشّ، وهو يلوّح بيدهِ التي تمسك بالمسدس.

- وهل تظنّ أنني سأصدق ما قلت؟

- كُلّ تلك الخرافات عن الخلود والزمن والآلهة والمعارك القديمة؟!!

- ما هذا إلَّا خزعبلات يُمكن أنْ ترويها للأطفال قبلَ النوم.

لم يتحرك (السكندري)، بل أطلقَ ضحكة مجلجلة ارتجت لها أركان الغرفة، ضحكة حملت شيئًا من الغطرسة والغرور، والكثير من الألم الدفين الذي لا يعرف مصدره إلَّا هو، ثُمَّ نهض ببطءٍ واقتربَ من الرجل الضخم حتّى صار على بُعد خطوةٍ واحدة منه، وقالَ بصوتٍ خفيض، لكنَّهُ كفيل بأنْ يزرع الرعب في أيّ قلب.

- ولِمَ أكذب عليك؟

وإنْ أردت أنْ أكذب، لأخترت قصة أكثر معقوليّة ممّا سمعت، لكن ما أخبرتُكَ بهِ قد حدث، شئت أم أبيت، نظر الرجل نظرات متوترة له، كانَ (السكندري) ساكن الجسد،

ثابت الملامح، بينما كانَ الرجل الضخم يتحرك في مقعده كمَن يجلس فوق الجمر، وأخيرًا قال بنفاد صبر.

- كُلّ هذا لا يعنيني في شيء، أنا جئت لشيءٍ واحد، وأعلم أنَّكَ تعرف مكان القلادة.

ثُمَّ أخرج من جيب سُترته مجموعة من الصور الفوتوغرافية، ووضعها أمام (السكندري)، التقطها الأخير بيدٍ واحدة، قلّبها ببطءٍ دونَ أنْ يتغير تعبير وجهه، كانتْ الصور تُمثّل لقطات لهُ في أماكن مختلفة، على مدار خمسة عشر عامًا أو أكثر، في أماكن كثيرة بالإسكندرية، وأُخرى في صحراء، وفي بعض الصور يظهر بوضوح وهج ضوء فيروزٍ صغير يلمع من أسفل قميصه، تمامًا في موضع الصدر، وصور أُخرى تظهر القلادة بالفعل من أسفل أزرار قميصه.

ابتسمَ (السكندري) بسخرية، ثُمَّ ألقى بالصور على الأرض، وقال ببرودٍ قاتل.

- كُلّ هذا لا يثبت شيئًا، وما أدراكَ أنَّ ما تراهُ في هذهِ الصور هو القلادة التي تبحث عنها؟!

زمجر الرجل الضخم غاضبًا، وارتجفت يداه وهو يقول.

- لقد ذكرتها كُتب التاريخ، ودوّنها المؤرخون، قلادة ليست لها مثيل، عمرها من عمر مدينة الإسكندرية ذاتها، إنّها ليستْ أسطورة كما تزعم، إنّها مفتاح القوة الذي حار من أجلهِ الملوك والكهنة مُنذُ آلاف السنين.

أشارَ لهُ (السكندري) بطرف إصبعه، وهو يستند للخلف واضعًا ساقًا فوقَ الأُخرى، وعيناه تتأملان الرجل كما لو كانَ صبيًا يصرخ من أجل لعبة.

- كُلّ هذا لا يهمني، لا الدلائل ولا الكتب، ولا المؤرخين، كلهم يكتبون ما يجهلون.

وفي لحظة صمت قصيرة، مدّ الرجل الضخم يدهُ إلى جيب سُترته الداخلي، وأخرج شيئًا مغلفًا بقطعة قماش حريرية سوداء، وبمُجرّد أنْ كشف عنها، اتسعت عينا (السكندري) على نحو لم يرهُ أحد من قبل، وانعكس في عينيهِ وميض أزرق خاطف، ثُمَّ خبا سريعًا كبرقٍ مفاجئ، قال بصوت لم يخلُ من الإرتباك.

- من أينَ أتيت بتلك؟

ابتسم الرجل بخبث، وقال بنبرة انتصار واضحة.

- أعلم أنَّكَ تمتلك النصف الآخر من هذهِ البردية، ولذلك تعرفت عليها دونَ أنْ تقرأها.

توقفَ (السكندري) عن التنفس لحظة، وكأنَّهُ يحاول السيطرة على أعصابه، كأنَّهُ تلّقى ضربة في صدره، ثُمَّ استعاد رباطة جأشه وأجاب.

- إذًا لنتفاوض.

- ماذا تريد؟

أخذَ الرجل نفسًا عميقًا وألقى بجسدهِ إلى الخلف، وقال بثقة.

- جيّد، لنكن واضحين، هذهِ القلادة تساوي الكثير، هناك رجل إيطالي ثري مستعد لدفع مبلغ يحتوي على سبعة أصفار، نقدًا بالعملة الأجنبية.

- وأنا الوحيد القادر على تهريبها خارج البلاد وتسليمها لهُ بأمان، سأمنحك نصف المبلغ.

حدّق (السكندري) فيهِ طويلًا في صمت، ثُمَّ قال بنبرةٍ باردة تُشبه صفعة على وجه خصمه.

- وهل تعتقد أنَّ المال يُمكن أنْ يُسيلَ لعابي؟

ضحك الرجل بخبث، وقال وهو يميل للأمام، حتّى كادت أنفاسه تلامس وجه (السكندري).

- توقعت هذا، لكن، ماذا إنْ أخبرتك أنني أعرف مكان الكهف الذي تزوره في أطراف الكينج مريوط؟

صمت (السكندري) فجأة، وتبدلت ملامحه للحظة، كمَن تلّقى صاعقة، تابع الرجل ملوّحًا بمسدسهِ هذهِ المرّة.

- نعم، الكهف الذي تُخفي فيهِ أسرارك، أستطيع أنْ أتوقع أنّها هناك، وإنْ لزم الأمر، يمكنني التخلص منك وفحص المكان بهدوء.

كانتْ كلمات الرجل تتردد في أُذني (السكندري) كطلقات مدفع، ذلك الكهف لم يكن مُجرّد مخبأ، بل كان مثوى أبيه وأُمّه، ومخزن ذكرياته وكنوزه العديدة مُنذُ قرون، كانتْ ضربات قلبه تتسارع، حتّى بدا لهُ أنَّ صوتها يغطي على هدير المطر في الخارج.

وفجأة وفي لمحة خاطفة وقف من مكانه، اشتعلت عيناه بضوء أزرق متوهج، أقوى من أي مرة مضت، تراجع الرجل الضخم خطوة إلى الخلف وقد تجمّدَ الدم في عروقه، في لحظة خاطفة، مدَّ (السكندري) يدهُ اليُمنى وأمسك الرجل من عنقه بقبضةٍ فولاذية، رفعهُ في الهواء كما يُرفع طفل صغير، وقال بصوتٍ مُزلزل، خرج كهدير صخرة تتدحرج في كهفٍ سحيق.

- يبدو أنَّكَ قد أخطأت الخصم، وأخطأت طريقة اللعب.

اختنق الرجل، محاولًا أنْ يصرخ، لكنَّ الهواء لم يعد يصل إلى رئتيه، رفع المسدس بصعوبة، وضغط الزناد مرّة، مرّتين، ثُمَّ عدّة مرّات، دوت الطلقات في الغرفة، وارتدت في كُلّ مكان وارتجّ الأثاث، وتناثرت شظايا الزجاج.

لكنَّ (السكندري) لم يتحرك، لم تهتز شعرة في رأسه، الرصاصات ارتدت عن صدره كما لو أنَّ جسده من صخر أو من الصلب!، اتسعت عينا الرجل في رعب، و سقط المسدس من يده وهو يحاول أنْ يتكلم، أنْ يتوسل، لكنَّ صوت العظام وهي تتحطم تحت قبضة (السكندري) غطى على كُلّ شيء، قالَ بصوتٍ أشبه بالزئير.

- لقد حذرتك .

ثُمَّ ضغط بقوةٍ رهيبة، فصدر صوت مكتوم، وارتخت أطراف الرجل الضخم وسكنت عيناهُ إلى الأبد، ألقاه (السكندري) أرضًا كما لو كانَ يُلقي دمية خاوية من الحياة!، وقف لثوانٍ يلهث، لم يكن التعب جسديًا بقدر ما كانَ انفعالًا متراكمًا، انفعال الكائن الذي تعب من الكتمان، مسح الدم الذي لطخ يده، ونظر إلى الجثّة الصامتة أمامه، ثُمَّ انحنى ببطءٍ والتقط البردية التي سقطت من يد الرجل، كانتْ قديمة، هشّة، حملها كأنّها كنز لا يُقدّر بثمن، حدّق فيها طويلًا ثُمَّ رفع بصره إلى الجثّة، وقال بنبرةٍ خافتة.

- لم يكن عليكَ أنْ تعرف أكثر ممّا يعرف غيرك.

اقترب منهُ بضع خطوات، جثى على ركبتيه بجوار جثّة الضخم، تحسس صدره الذي لم يتأثر بالرصاص، ومسح الدم عن سترته بحركةٍ رتيبة، كما يفعل مَن اعتاد الموت من حوله، ثُمَّ أدخل يدهُ ببطءٍ في جيب سترته الداخلي، وأخرج القلادة، ونظر لها في صمت، لكن ما إنْ لامست أصابعه الحجر الفيروزي المثبت في مركزها، حتّى توهج الحجر بضوءٍ مدهش، ضوء ليس لهُ مثيل .

أضاءت الغرفة بأكملها بلون فيروزي براق، انعكس على جدرانها وسقفها، وفي تلك اللحظة، انطلق البرق في السماء، فاهتز المكان كلّه.

اقترب من النافذة، رفع رأسه نحو السماء التي تُمطر بغزارة، والبرق يلمع كل حين، في الضوء الخاطف، بدا وجهه أقرب إلى وجه رجل عاش آلاف السنين، وضع القلادة حول

عنقه، فانبعث من الحجر بريق جديد أكثر سطوعًا من الأوّل، غمر المكان كلّه، حتّى تلاشت ملامحه في الضوء.

وحين خمد الوميض أخيرًا، كانتْ الغرفة خالية إلّا من جثّة الرجل الضخم الملقاة على الأرض، ولفافة تبغ تلفظ أنفاسها الأخيرة في المنفضة.

****

هبط من سيارته، واقترب من الحاجز المعدني لكوبري ستانلي. كانت الطرق خاوية تمامًا في تلك الفترة من الليل والشتاء، فما من عاقل يأتي إلى هذا المكان مع تلك السيول الرهيبة التي تضرب محافظة الإسكندرية في ذلك الوقت من العام، توقف ينظر إلى البحر طويلًا، وسرح في خياله؛ آلاف الذكريات مرّت أمام عينيه في ثوانٍ.

ابتداءً من تلك الفتاة التي حاول الجنود اليونانيون اغتصابها، مرورًا بموت أمه (ميريت-نيت)، ومقتل (أموس) بين يديه، وابتسامة (هيباتيا) الساحرة، وكلمات (مرقس) التي غيّرت وجهة نظره للحياة، وشجاعة (أحمد عرابي)، ونظرة الحزن في عين (فاروق).

نظر حوله إلى المدينة الغارقة في الظلام، كان يراها في كل مرة وكأنها الأولى؛ عروسٌ مشرقة دائمًا، حتى في أقسى الظروف وأسوأها. أدرك أنها المتمّمة والمكمّلة له.

وُلد معها، وعاشا معًا، وقُدّر لهما المرور بكل ظرف وفرح معًا.

ولكنه أنهكه الخلود؛ لم تمر الأزمنة من حوله بل جازت في نفسه.

وهنا أدرك أنه لا يستطيع الصمود أكثر...

قرر التخلّي. فهو يدرك جيدًا أنها خُلقت للخلود، وهو للفناء.

واختار الفناء...

حتى وصل إلى تلك اللحظة.

أخرج نصف البردية من جيب سترته وتطلع إليها، وقرأ بخفوت:

"تزول اللعنات في حضن المياه الأزلي."

خمسة كلمات فقط، كان يمكن أن تُنهي ألمه ومأساته الطويلة منذ عقود.

أخرج القلادة بيده الأخرى ونظر إليها طويلًا، وبدأ الحجر في منتصفها ينبض وكأنه يضخ الحياة في قلبه هو.

قال وهو يبتسم بسخرية .

- لم يخلق البشر للخلود، انت من تستحق الخلود .
- انت يا مدينة الخلود .

تبع جملتة تلك بان ألقاها بكل قوته من أعلى الجسر، وبمجرد أن لامست المياه دوّى انفجار رهيب، وضرب البرق البحر، وتوهجت المياه بضوء فيروزي غريب.

وانحدرت دمعة حبيسة لعقود على خده... دمعة كتبت له نهاية حياته الطويلة.

تحرك مبتعدًا في خطوات ثقيلة...

حتى اختفى في الظلام... للمرة الأخيرة.

****

تعالى أزيز الأجهزة الطبيّة، في تلكَ المستشفى الاستثماريّة الشهيرة والكبيرة بالاسكندرية، والمرتبطة بذلكَ الجسد لرجلٍ في الستينيات من عُمره، أشيب الشعر، يبدو الوهن والمرض قد انتصر عليهِ في معركتهِ الأخيرة.

كانتْ مؤشراته الحيويّة ضعيفة، تنذر أنّها لن تدوم طويلًا، ودوى صوت الرعد مُباغتًا، ممّا جعلهُ يجفل من غفوته، ففتح عَينيهِ وشهق في ألمٍ وضعف، وأخذَ يسعل لفترة.

كانَ وحيدًا بُناءً على طلبهِ الشخصي، أمر حُرّاسه وزوجته وأبناءه أنْ يتركوه، يُريد أنْ يخوض حربه الأخيرة منفردًا بصدرٍ رحب، كما اعتاد طوال عُمره، ومع ضربة البرق التالية، لمح ذلكَ الجسد الجالس على المقعد المجاور لهُ.

لم يتبين ملامحه بالتفصيل، ولكنّهُ أدركَ من جسدهِ إنّهُ عجوز محني الظهر، يتكئ على عصا، ويرتدي قبعة صوفيّة شهيرة في السبعينات، سألهُ في عصبية.

- مَن أنت؟

- وماذا تُريد؟

ابتسمَ العجوز، وقالَ في هدوء.

- اهدأ، اهدأ.

- لا حاجةَ للانفعال والتوتر فهو خطر عليك، وخاصّة في لحظاتك الأخيرة.

احمّرَ وجه (شاكر بيك) في غضبٍ وصرخ، لكنّ صرختهُ قد تحولت إلى سعالٍ مستمر، تناثرت معهُ الدّماء من فمهِ واختنق حتّى كادَ أنْ يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهنا وقف العجوز من مكانهِ واقترب منه، وقالَ وهو يجلس على طرف فراشه.

- أخبرتُكَ أنْ لا حاجةَ للانفعال.

- أنصت لي جيّدًا، أنا أعلم مَن أنتَ جيّدًا، فلا أحد لا يعلم مَن أنت، (شاكر بيك) حوت السوق بالكامل، رجل الأعمال الذي يستطيع أنْ يمتلك ما يُريد وقتما يُريد.

- الذي لا يقف أمامهُ أحد مهما كان، الذي يتخلّص من جميع أعدائه، كما يتخلّص من الحشرات بحذائه!

واقترب بوجههِ منه، وقالَ بلهجةٍ تحمل من الخُبث الكثير.

- ولكن للأسف تمكن المرض اللعين من جسدك، وأوشكت على أنْ تنتهي أسطورتك، في وقتٍ لم تكن تتوقعهُ أبدًا.

انحدرت الدموع من عين (شاكر بيك)، حينما وصل العجوز لهذهِ النقطة، ولكن لم يُمهلهُ الأخير فرصة ليُكمل أشجانه، فقاطعهُ قائلًا.

- ولكن أنا عندي الحل.

اتسعت عينا (شاكر بيك) في أمل، وظهرت الفرحة على ملامحهِ التي أنهكها المرض، وقالَ بضعف.

- آتني بهِ، أتوسل اليك.

ضرب البرق في تلك اللحظة فأنار الغرفة لثوانٍ، ممّا جعلهُ يرى ملامح العجوز، برغم ابتسامتهِ الصفراء التي تحتلّ وجهه، إلّا أنَّهُ لمح ملامح شَّيطانٍ مَريد، أخرجَ العجوز من جيب سُترتهِ قلادة ذهبية، غريبة الشكل تمثل مفتاح الحياة، ويتوسطها حجر فيروزي، وقال بهدوء.

- هذهِ قلادة الخلود.

- بمُجرّد أنْ ترتديها تمنحكَ القوة والصحة، وتعطيك ألف حياة.

برقت عينا (شاكر بيك) في فرحة، ومدَّ يدهُ في لهفة، لكنَّ العجوز أبعدَ القلادة بعيدًا عن يدهِ، وابتسمَ بخُبثٍ، وقال.

- ولكنْ لكُلّ شيءٍ ثمن.

هتفَ (شاكر) بسرعة.

- وأنا موافق، موافق.

وهُنا سطع البرق مرّة أُخرى وأضاء الغرفة كلها، أثناء ذلكَ مالَ العجوز بجسدهِ إلى الأمام، ليقترب من جسد (شاكر بيك)، وقالَ بصوتٍ خفيض.

- لقد نسيت أنْ أُعرّفك بنفسي، أنا (شهاب).. (شهاب عامر)، أعشق مساعدة الغير، وأنا هُنا من أجلكَ أنت.

قالها وأطلق ضحكة مجلجلة، تردد صداها كثيرًا في طرقات المستشفى، ومدَّ يدهُ وأعطى القلادة إلى (شاكر)، الذي اختطفها بلهفةٍ وارتداها حولَ عنقه، وبمُجرّد أنْ فعل، توهج الحجر الفيروزي بضوءٍ غريبٍ غمرَ الغرفة كلها، وشهق (شاكر) بغتة.

واعتدل بنصفهِ العُلوي فجأة على الفراش، وقد توردت ملامحه بالدّماء مرّة أُخرى، واستعادت بشرته نضارتها، وكأنَّهُ عاد بالزمن أكثر من عشرين عامًا، وضرب البرق للمرّة الأخيرة؛ ليُنير الغرفة الخاوية، إلَّا من (شاكر بيك) فقط!

تمّت بحمدِ اللّه.

المحتويات

تقديم ٥
(ما قبل البداية) ٩
الفصل الأوّل ١٣
الفصل الثاني ١٩
الفصل الثالث ٢٥
الفصل الرابع ٣١
الفصل الخامس ٣٧
الفصل السادس ٤١
الفصل السابع ٤٥
الفصل الثامن ٤٩
الفصل التاسع ٥٣
الفصل العاشر ٥٩
الفصل الحادي عشر ٦٣

الفصل الثاني عشر ٦٧
الفصل الثالث عشر ٧٣
الفصل الرابع عشر ٧٩
الفصل الخامس عشر ٨٣
الفصل السادس عشر ٨٧
الفصل السابع عشر ٩٣
الفصل الثامن عشر ٩٧
الفصل التاسع عشر ١٠٥
الفصل العشرون ١١١
الفصل الحادي والعشرون ١١٧
الفصل الثاني والعشرون ١٢٣
الفصل الثالث والعشرون ١٢٩
الفصل الرابع والعشرون ١٣٥
الفصل الخامس والعشرون ١٤٣
الفصل السادس والعشرون ١٥١
الفصل السابع والعشرون ١٥٩
الفصل الثامن والعشرون ١٦٧

الفصل التاسع والعشرون ١٧٥
الفصل الثلاثون ١٨١
الفصل الحادي والثلاثون ١٨٧
الفصل الثاني والثلاثون ١٩٣
الفصل الثالث والثلاثون ٢٠١
الفصل الرابع والثلاثون ٢٠٩
الفصل الخامس والثلاثون ٢١٧
الفصل السادس والثلاثون ٢٢٥
الفصل السابع والثلاثون ٢٣٣
الفصل الثامن والثلاثون ٢٣٩
الفصل التاسع والثلاثون ٢٥٣

للتواصل مع الكاتب